2271
.50827
.328

2271.50827.328
Karam
Dam'at Yazīd

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 074067354

الكتاب ١٩٠ ت ٤٦

كرم ملحم كرم

دمعة يزيد

قصة وتاريخ

مكتبة صادر
بيروت

Karam, Karam Mulhim

كرم ملحم كرم

Damʿat Yazīd

دمعة يزيد

مكتبة صادر . بيروت

2271
.50827
.328

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الجزء الاول

نظرة ... فهيام !

١

من الضارب كبد الرمال الحانعة الصفر على بعيره الاسمر السبوح، الملتف بعباءة كلون الرماد والمعتمّ بلفافة سوداء مفتولة كالطوق؟... من هذا المكحل العينين بالاثمد، المستطيل الوجه على بياض لوّحته الشمس فاكمدّ، الطريّ الشاربين، السبط العذار، الحانق النظرات كأن له عند دنياه ثأراً ؟

من الرجل الصموت المنسل في المدن على استخفاء، والطاوي البيد على صيحة : « الله اكبر ! ... »، المقيم في يومه الصلوات الخمس مرتلاً فيها القرآن وقد استظهره حرفاً حرفاً ؟ ... من المجاهد وقد كشف جبينه عن مبغى ملحاح يروم قضاءه ودلت همته على رسالة جموح لا ينثني عنها ؟

نحر خمساً وعشرين ليلة في وثبته من مكة، صامداً الى دمشق، ولا يزال بهم بنحر سبع ليال لبلوغ عاصمة معاوية بن ابي سفيان . وكلما جاوز فدفداً هوت يمينه عفواً الى مقبض سيفه تجسه كأنه منطلق الى دمشق لسيفه يضرب به الاعناق

ودمشق خلعت عنها في مؤتمر اذرح خلافة علي بن ابي طالب وتلفتت الى خليفة آخر تقيمه على المسلمين . فما عدت لفتتها معاوية وليها منذ عشرين عاماً وقد خبرت فيه الحنكة والسماح واعتزمت ان لا تعدل به سواه من الاقطاب. فهو في معتقدها خير من يسهر على التراث العربي المسبطر التخوم، العالي القباب

ورسخت في صعيدها المصطفى قدمها . معاوية خليفة الرسول العربي محمد بن عبد الله . ونادت به من أعلى المآذن وتنكرت لابن ابي طالب ابن عم الرسول . فلم يجهل معاوية كيف يخطب ودها ويستميلها اليه . فنثر الذهب وجامل وصانع ، وتناهى في الملينة حتى لم يكن يغضب للشتيمة تثقب اذنيه ، ولا للاستطالة عليه يجر اذيالها الاعرابي الجافي الفظ . فالحلم عند ابن هند دعامة سياسة الناس ، والكرم مفتاح القلوب حتى الغلف الغلاظ

وتمثل مقتعد سنام البعير في وثبته الى دمشق هذا الملك الضخم البنيان ، البعيد الاطراف ، القابضة عليه يد معاوية عفواً ، بلا جهد ولا عياء ، وتنهد وقال : قاتل الله عمرو بن العاص، انه للمجرم ، طمعه في دنياه رمى الاسلام بالويل والشقاق !

وعكف على حث مطيته الى مثوى ابن ابي سفيان ، مغتصب الخلافة من علي ،وهو يدمدم : واعجباً منا في يوم صفين كيف قنع بعضنا بالتحكيم ونحن ارباب الحق النطاح ؟... ولكنها مكيدة ابن العاص الماكر ، آه من ابن العاص !

وامتدت يمناه الى حسامه فكاد ينتزع النصلة من الغمد على لظى وهياج. ولو اسعفه الظعون لجز جزة واحدة الى دمشق ينزل في افيائها ويقف من

معاوية وجهاً لوجه ، فيخذله عن حق ادعاه ويصدف به عن بطل يرتديه . على انه سيبلغ دمشق . فلا بد ان يدخلها ويمتشق فيها صارمه الصقيل

ولم يكن يجهل مقام معاوية . فليس ابن ابي سفيان نكرة في الناس وابوه سيد قريش في العهد الجاهلي ومناوىء محمد بن عبد الله في مستهل النبوّة. ما غاب عنه ان معاوية كاتب الرسول ونجيه، وان الرسول تزوج رملة اخت معاوية مصاهرة لبيت ابي سفيان ورغبة في ضم زعيم قريش اليه . فان يرض ابو سفيان ترض قريش جمعاء !

ويزيد ، يزيد الخير اخو معاوية ، من صفوة قادة المسلمين . فهو اول من ولي دمشق في عهدها العربي . وعتبة ،شقيق معاوية، من فحول خطباء العرب . اذا وقف في الناس للحماسة دفعهم ببليغ بيانه الى الموت مختارين باسمين .وان توعدهم احسوا الارض تدور بهم وتهوي من تحتهم هلعاً

هذا كله ملء وعي راكب البعير وحافظته . على انه لم يكن يتهيب خطر معاوية ومعاوية انتزع الحق من صاحبه ، واثارها في المسلمين احناً وبغضاء . فالاسلام لا يقوم على الفرقة بل على الجماعة . وليست الجماعة ما اراد معاوية وقد بدد شمل المسلمين بركوبه مقعد الخلافة عنوة . فشطر القوم شطرين بل ثلاثة ، رهط معاوية ، فرهط علي ، فالخوارج الحراص على منطوق الكتاب

وهوت الليالي السبع مضرجات بدمها . وها هي دمشق تطل مجلوّة كالعروس البكر وقد تفتحت على نضرتين ، نضرة الربيع ونضرة الخلافة. فابى معاوية ان تنتهي اليه سيادة المسلمين ولا يقدرها قدرها ويرفع من شأنها . فان ينازعه فيها ابن ابي طالب فقد اقرّته عليها الشام ومصر وبعض الحجاز

واعطته حقاً لم يكن له فيها . وهذا الحق لن يكتفي به معاوية وهو يريده كاملا ، فليس يقنع من قرص الحلوى ببعضه والنفس تصبو جميعاً اليه

ومقتعد سنام البعير ، الشاخص من مكة الى دمشق على غليان وحنق ، ليس بالغريب عن حاضنة بردى . فارتادها في السنة السادسة والثلاثين للهجرة اثر معركة صفين يرقب فيها ما يكون من امر التحكيم في اذرح . وها انه بعد طي اربع سنوات يجتاز اليها دروبها وكل جارحة فيه تنتفض كرهاً ومقتاً باسماء علي ومعاوية وعمرو بن العاص

ولم يكن راضياً عن احد . فالثلاثة يشنأهم فؤاده . الثلاثة هدموا في عرفه شرعة الله . ووقف البعير في كبد دمشق ، على ضفة بردى ، يعب الماء . فوثب عنه معتليه بعمامته السوداء ممتعاً ناظريه بمباهج قاعدة ابي عبد الرحمن ومغانيها الفخام . ولاح له قصر الخضراء بقبابه المشمخرة ، وفسحته الممتادية في الانبساط ، فراعه الانسجام وفتنه الرواء . ولكن من شيد القصر ومن يثوي فيه ؟ ... منذ اربع سنوات لم يكن في دمشق لهذا الصرح اثر ، فكيف قام اليوم يناطح السحاب ؟

ولعب الفضول بالنزيل الاسود العمامة . ودنا من صبية يلعبون على ضفاف النهر ومقود البعير في يده ، وقبضة سيفه لا تهيب شق عباءته فتقتحمه على غير احتشام . قال يخاطب الصبية ببسمة عريضة يروم بها الاستدراج : من صاحب هذا القصر الضخم يا ابناء اخي ؟

فلم يحفل به الصبية واجابوا دون ان يكترثوا له وقد شغلهم عنه لعبهم الجاد : هذا قصر الخضراء ، بناه خليفة الشام ابو عبد الرحمن معاوية وجعل فيه سكناه !

فعض النزيل شفتيه على مضض ناغر حتى كاد يدميها وجمجم بغيظ : خليفة الشام؟... أتسمع يا ابن صخر؟... لكل قطر خليفة ولكل مصر امير مؤمنين . واذلاه !.. واخيبة الاسلام !

وومضت عيناه ببريق النقمة . وأنقضتا على الصرح شرراً مستفحل اللهيب . فغمز مقبض سيفه بيده الممسك بها مقود بعيره وهدد وقد فارت فيه احقاده : ابن هند ، لن تنعم طويلاً بمثواك !

ومال الى السخرية المرّة ، الى السخرية العضوض ، فقال وهو لا يبرح يصب على القصر نظراته المندلعة منها اللعنة : يريد معاوية اقتفاء خطوات الاكاسرة والمناذرة في تشييد الصروح . فبنى الخضراء كما بنى كسرى الايوان وسادة الجاهلية الخورنق والسدير . ولكن الخضراء سيتهدم على صاحبه يا ابن هند. انا ما سلخت ثلاثين ليلة في القفار البيض كي املأ بصري بروائع دولة تبغي انشاءها ظلماً على دعائم الدين ، بل جئتك كي امحوك من دنياك وانت عقبة في سبيل الدين . وحق من براني من عدم ، ودفعني الى هذا المطمئن كتلة ناطقة حساسة ، لن ارتضي لعيني الغمض الا وقد حززت رأسك ،وسفكت دمك، وضربت بك العبرة لقوم يعتبرون !

وظل يحدق الى القصر وهو يلهث من كيد . فتعجب من رجل يسخر دينه لدنياه عابثاً بالنواهي ، مستحلاً كل حرام . فيحشد في خزائنه اموال المسلمين ليتلذذ بالافاويق ، ويستعين بالمقام الاول في الدولة ليلهو بالمجد والفخفخة ، فتبطره السيادة ويضل بها عن الصراط القويم

وبكت جزعاً عينا النزيل الاسود العمامة . وصاح من كبد بليت بالقروح : اين انت يا محمد عن هؤلاء الانكاس المتاجرين بدين اردته لعبادة

الله وارادوه للمتعة ولشفاء الحزازة ؟... انهم لاعداء الله والاسلام مع دعواهم القيام فينا باسم الدين والاسلام. ألا بئس دعوى هي البطل والعدوان. وتربة من نشر راية هذا الدين الجديد لنجتث اصولهم اجتثاث الفأس للشجرة النخرة الحسيرة الاغصان !

وغلب عليه التكبير ، وما لبث ان غاب في تلاوة آيات ربه : « ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ! »

وقاد بعيره الى ساحة تناخ فيها الابل وقد عقد عليها الصفصاف خيمة ضافية الظل ، منيعة الأطناب . وراعه من دمشق هذا الازدحام الدفاق . فالدروب تغص بالمقبلين من الفجاج كافة الى استظلال كنف ابن هند . فما ذاع عن معاوية من انباء البذل والجود لم يُسمع عن ابن ابي طالب . فكان علي شحيحاً باموال المسلمين ، يأبى على ابنته حتى ان تزدان بعقد من اللؤلؤ اودع بيت المال ثم تعيده سليم الحبّات ، مأمون الزنة . وينكر على نفسه ان يرتدي الثوب الجديد ضناً بمذخورات الدولة الناشئة . فالزهد في الدنيا والرفق ببيت مال المسلمين من طبعه . على حين كان معاوية ينفق عن سعة ويسخو بلا حساب . فما جاءه مسترفد الا اجزل له العطاء . وما طمع في دنانيره نهيم الا ألقمه من النضار ما شاء

والناس مع متناهي اعجابهم بصدق علي ورجولته، ومع مزيد حقدهم على مكر معاوية وسلاطته ، كانوا يجدون في بذل ابن هند حافزاً يشد بهم اليه . فالجود كسف الكيد والعدوان وذهب بالمشاين والمعايب

ومعاوية الداهية لا يجهل المكمن الحساس في هذه المخلوقات الدارجة حوله . فكلهم طالب زاد . ووقع على مجس الضعف في علي فتحامى العثرة

واستظهر عليه بسني العطايا . فرفع الى مراتب المجد كل طموح الى الرتبة والولاية . وحشا بالذهب فم كل جشع يفتنه الدينار . فشمّر اليه القوم يحثون الركائب والمطايا

وراع النزيل الاسود العمامة هذا الفيض يرتـــع فيه معاوية فتعاظمت احقاده . وانه لفيض حتى في اسماء الرجل الهادم الباني . فهو ابن ابي سفيان، وابن هند، وابن صخر، وابو عبد الرحمن، وخليفـة الشام . وضحك الصامد من مكـة الى دمشق على ضغينة وحفيظة وتمتم : ما اكثر اسماءه واقصر ايامه . انه لعلى خطوة من مضجع التراب !

ووقف عند مسيل ماء يغسل وجهه من غبار الفلوات . واذا نفر من الجند في قيلولة وقد تفيأوا ظل شجرة وثيقة الجذع، طائرة الاماليد . فحياهم وجثم على مقربة منهم . وكانوا خمسة . ودلت لهجتهم على انهم من اليمنيين . ودار حديثهم على التغني بمحامد معاوية

وشق على النزيل الاسود العمامة ان يمتدح القوم من لا يراه حقيقاً بالمدح فنضّت فيه شهوة الاعتراض وقال غير حافل بما يكون لمقاله من سوء الوقع ومضض الاثر : ولكن صاحبكم خرج على سنن الدين وقد رضي بقيام خلافتين في الامة الواحدة !

فالتفتوا اليه بعيون جاحظة تنعى عليه جرأته . فمن دعاه الى ابـداء الرأي بهذه القحة اللاذعة ؟... على انهم شاؤوا هديه برقيق المقال . فانبرى له من يجيب : صاحبنا احق بالخلافة من كل من يدعيها . فهو ابن سيد قريش ، ترد عنه الزعامة لتنتهي اليه . ثم هو لم يخضب يديه بدم الخليفة عثمان بن عفان كالامام علي . والاسلام يكره ان يرفـع لواءه ساعدٌ امتد الى الدم الزكي

الطاهر فاذراه !

فعلت ضحكة النزيل الاسود العمامة متكلفة النبرة وقال : هذه الحجة على علي اختلقها ابن هند وارجف بها . وشايعه فيها فريق نوقش الحساب في معركة الجمل . ولو اثبت ابن ابي طالب صاحبكم معاوية في ولاية دمشق لبرىء من دم عثمان ولقي في طريقه الرحابة . غير ان علياً همّ بتنحية معاوية ناعياً على ابي عبد الرحمن ترفه واسرافه وتدبيره الامور على هواه . وخوف معاوية من العزل دفعه الى نشر قميص عثمان الملطخ بالدم داعياً الى الانتقام للخليفة الشهيد. ولكن ابن هند كان يستجير بالمسلمين لنفسه ، خشية ان يصرفه علي عن ولاية الشام ، لا لابن عفان القتيل . وتربة محمد ، ان معاوية ليقودكم في خدمة مآربه كالسوائم . حرام عليّ الاسلام ان لم تكونوا اغبياء مناكيد !

فماج في نظراتهم الشر وانتفضوا للاهانة وقد رفعوا رؤوسهم لها حانقين. وتلت السنتهم عيونهم في اعلان السخط فصاحوا بالدخيل الحديد المقول : اسكت ، لا ام لك !

فمضى في سخريته يقول : أتؤلمكم الحقيقة بهذا القدر فلا تطيق أذانكم وعيها ؟... ادركت الآن مبلغ سلطان معاوية وقد اغراكم باضاليله ولست ألوم !

فوثبوا من مطارحهم بعيون آكلة وشفاه مزبدة . ومشوا الى النزيل الاسود العمامة وايديهم على مقابض سيوفهم تهدد بانتضاء النصال . وصرخوا به باشداق يعربد فيها الفحيح : من الرقح المجازف ؟

فجالت فيهم عيناه وبسمة المناعة تترقرق في اساريره . واجاب بهدوء الواثق بنفسه : اخوكم من بني تميم ، يدين مثلكم بالاسلام ويؤمن بمطاوي

الكتاب . والمسلم لا يريق دم اخيه !

ـ ولكنك تتعصب لابن ابي طالب وتشتم معاوية . وابن ابي طالب لم يحجب دم من تدعو الى حجب دمه !

ـ كنت اتعصب لعلي لولا قبوله التحكيم . اما وقد رضي به في حق ليس لابن امرأة ان ينازعه فيه فقد كرهته نفسي وخلعته من عنقي . فهو نفسه ارتاب بنفسه !

فصاحوا متحمسين وقد التفت بعضهم الى بعض : لنضرب عنقه . ان هو الا من الخوارج الكافرين !

وتقلقلت اسيافهم في اجفانها . وامتشقوها بروقاً ترعد بالهول . فما نبا التميمي الاسود العمامة عن ثبات جنانه . بل هو وقد تلألأ لعينيه وميض النصال سلّ باتره لا تأخذه رعشة . فالموقف تعوّده في نزال القادسية ، وفي معركة الجمل وموقعة صفين . فكم لمعت الاسنة في باصرتيه وهوت دونه يحطمها درعه وفيصله . ولم يشأ ان يغمس حديد سيفه في اجساد تدين بدينه فخاطب مهاجميه بروح المسالم وعطف النصوح : رويدكم في ابتغاء الموت ثكلتكم امهاتكم . والله لو اردتها فيكم ضربات جادة لنثرتكم شلواً على شلو!

واهوى كالقضاء الرهيب بنصلته على اقرب جندي اليه فاطار منه سيفه دون ان يمسه باذى . فرغب في ان ينزل في قلوبهم الرعب فتبدو لهم مكانته في الصراع وتتهيبه افئدتهم . ولكنهم طمعوا فيه وهم خمسة وهو واحد فرد ، وعلا زئيرهم : لنسفكن دم الفاجر . قتله حلال لنا!

وانقضوا عليه . فاستزراهم وهم يندفعون لمقاتلته وصاح بهم يعاود النصح : الى اين ؟ ... لو كنتم معاوية بن هند لطاب لي الولوغ في دمكم .

اما وانتم ابرياء من اثارة الفتنة في الاسلام فما لي ولكم . احرصوا على رؤوسكم ان تدحرجها يمناي

فما ارتدّوا . فتراجع دونهم اشفاقاً وهو يقول : ابتعدوا وصونوا ارواحكم مني !

فابوا ان يكونوا دونه جرأة واقداماً ولم ينثنوا عنه . فظل يتراجع ، حتى اذا ما بعد بعضهم عن بعض خطوات رسخت قدمه في الارض وتأهب لقائهم وحسامه يتواثب في يمناه على ظمأ الى الدم ، ولسانه ينضنض بقولته: تعالوا ايها الحمقى!

وتعمد ان يحطم سيوفهم وسواعدهم دون ان ينزل بهم الموت اذا امكنته يده .فصرع اول واثب عليه فيما يكيل له الضربة الثانية . وبدا هائلاً عجيباً في منازلتهم . فكأنه الشرارة يخطف سيوفهم من ايديهم خطف الايماضة ويطعنهم طعنات تهوي بهم الى الارض مضرجين بدمائهم لا يطيقون حراكاً. فما شعروا الا وقد تساقطوا امامه صرعى يئنون انين الالم والقهر. وبقي خامسهم ، خامسهم الاعزل وقد اطار منه التميمي سيفه في ضربة الارهاب.ورانت على الوهون الاوحد الخشية وهو يبصر اخوانه عند قدمي التميمي جثثاً ينهر منها الدم ، فارتجفت ركبتاه لا تسعفانه في الدنو من ذلك المغامر النجد. واحس منه التميمي الونية فاشفق عليه وخاطبه بلين الرفيق: انصرف عن مورد حتفك يا ابن عمي.ما قادتني قدماي الى دمشق كي ازيد في فناء المسلمين . فكل ما اندبك له ان تحدث معاوية بما سمعت ورأيت ، وان تبلغه ان لكل اجل كتاباً ، وان يوم الحين قد حان!

فترجح الجندي الاعزل بين الخيفة والحيرة . ولم يقو على نفض جموده

عنه . وشهد المارة الصراع الدامي فاحتشدوا على صياح وولولة . وخشي التميمي افتضاح امره قبل اداء رسالته فمسح سيفه الراعف دماً بثياب الجند الهاوين امامه ، واعاد النصلة الى الغمد ، وتوارى كالطيف متغلغلاً في حدائق دمشق الظليلة ، الخضلة ، متستراً بجذوع الحور الاهيف والصفصاف المهيض

٢

امتلات دمشق بالوافدين اليها حتى كادت تغص. ولكن معاوية مع احتشاد الوفود ببابه ، ومثولها بين يديه تعالنه الطاعة والتأييد ، لم يكن وافر الثقة بالغد . فلا يبرح ابن ابي طالب ينادي بحقه في الخلافة وقد ثوى في الكوفة يمارس سلطانه اميراً على المؤمنين

وزاد في قلق معاوية ارتيابه حتى باعوانه . فما كان يلقى في اكثرهم صدق المهزة وصفاء الضمير . وليس ابن العاص دون علي ازعاجاً وقد ايد معاوية لا حباً لمعاوية ولكن حقداً على علي . فما كان ليرضى به ابن ابي طالب والياً على مصر وقولته لا تثبت على لون ، وجشعه لا يقف عند نهاية . فمن يعتمده يجد من نفسه حافزاً الى اتقائه بيقظة الخشيان وحذر الملسوع

وهال ابن ابي سفيان ان يفلت منه مقام حبس عليه زاد غده فتلاشى في تفكير ممض طويل واوصد دون الناس بابه.

وضاقت عليه في تفكيره الحيلة فوقف الى شرفة ايوانه ينظر الى دمشق بعين غشيتها سحابة من جزع واستند الى الجدار لئلا تدور به الارض .

وما برح ينظر الى دمشق بلهفة اليؤوس. أتضم قبضته هذا الملك الرحراح ثم تتفتح على هضيمة ؟ .. واغمض عينيه لئلا يرى فيزداد هلعاً . وما سلّ الهدب من الهدب الا وصوت حاجبه يتمطى في اذنيه :الضحاك بن قيس بباب امير المؤمنين يستأذن في الدخول !

فتنفس معاوية . فالضحاك بن قيس ذو خطر وقدر . وثق به ابن هند وقد عجم عوده فاولاه منه الجانب الايمن وباتت الدولة الفتيّة النابتة على ضفاف بردى ولا مقول فيها ادنى الى سمع غارسها من مقول الضحّاك .

ولماذا لا يكشف معاوية عن غمته على عين الضحاك واذنه وهذه حاله منه ؟ ... قال بالتماس الطامع في النجدة : ليدخل الضحاك يا سعد !

فانفرج باب الايوان عن قامة مديدة تجللها مهابة الرجولة وتشف عن ثقة بالنفس واعتداد حصين . هذا الضحاك بن قيس الفهري القائد الماضي الشفرة والوالي السديد الرأي . فمشى الى معاوية بوقار الانوف ودالة ذي الحظوة وسلم بالخلافة قائلًا : السلام على امير المؤمنين !

وكان معاوية قد حبا الى سريره يتربع فيه ، فاجاب بافتراز الترحيب : وعليك السلام يا ضحاك !

وقرأ في عيني الرجل حديثاً ينضح بالارتباك فاوجس شراً واردف : ما وراءك ؟

فتباطأ الضحاك في الجواب كمن يحمل نبأ شائك الكلم . واجال باصرته في لحاظ معاوية واعلن بمضض واحتراز : يريد الخوارج شراً بامير المؤمنين !

فاتسعت عينا ابن هند ، وتفتحت اذناه حتى بات كله آذاناً . واستوضح بوجل : ويحك ، الخوارج يا ضحاك ؟... ولكن علياً كفاني شرهم في موقعة الرميلة في النهروان وقد دق اعناقهم ونثر لحومهم لضواري الوحش وكواسر الطير !

— في كل واد اثر من ثعلبة يا امير المؤمنين !

فاهتز معاوية على سريره وعنده من أمر الخوارج الناقمين عليه وعلى ابن ابي طالب كل الخبر وصاح : أتراهم زحفوا الى دمشق يتوصدونني فيها ؟

فاجاب الضحاك بن قيس بلهجة بجاء ساورتها الكمدة ، الا انه لم يخرج بها عن وقاره : هم في دمشق يا امير المؤمنين !

فارتجفت لحية معاوية وغار لونه . وتضاءلت قامته حتى احس انه ملتصق الجبين بالتراب . وقال برعشة تعتورها الغصة : أجادّ انت يا ابن قيس ؟... بابي وامي ما نضّ مقولك بسوى المزاح ، ولكنه مزاح غليظ !

فتصامّ الضحاك عن النثلة ومضى في قوله : امير المؤمنين يعرف من حقد الخوارج عليه ما يدعوه الى التصون عن سعيهم به . فقد شهدت اليوم دمشق...

وسدد الضحاك الى معاوية باصرتين خادشتين . ووقف عن الكلام كأنه يحاول ان يزيد في ايلام معاوية وينتقم منه لنفسه وقد رماه بالغلاظة . فاعول القلق الحزاز في كبد ابن ابي سفيان : تكلم ، لك الويل ، ماذا شهدت دمشق ايها الفهري ؟

شهدت صراعاً دامياً بين خارجي فرد وخمسة من جنود امير المؤمنين . وكانت الغلبة ...

وسكت وعيناه الشامتتان في عيني ابن هند القلقتين . فصرخ معاوية : لمن يا ضحاك ؟

— للخارجي يا امير المؤمنين !

— وهل ظفر بجنودي الخمسة ؟

— بالخمسة جميعاً . فنثرهم عند قدميه كما تتطاير كثبان الرمل امام سوافي الريح !

فوهت قوى معاوية وارتج عليه من الخيبة. وخشي ان يكون الخارجي انسل الى قصر الخضراء ، ان يكون هنا وراء الباب شاهراً سيفه ، مهدداً بالانقضاض. خشي ابن ابي سفيان ان يكون تغلغل في قميصه الخارجي الناقم او ثوى في كمه . فنفض عنه عباءته وعيناه شاخصتان الى الباب وقال برهبة: وهل قبضتم على الاثيم ؟

فكان الجواب كطعنة الاجهاز: لقد توارى عن كل عين يا امير المؤمنين !

فارتعد معاوية واستطلع غاضباً : واين يزيد بن الحرث العبسي صاحب شرطتي ؟... اين رجالي ؟... اما هموا بمطاردة الجاني؟

ـ هم لا يزالون يبحثون عنه ... ولكن الامل بالاهتداء اليه ضعيف !

وشاءها الضحاك واخزة دامية . فرشقه معاوية بنظرة المتمعض وقد طفح فيه الكيل وشوت الحمى جبينه . وتراءى له انه زال عن دنياه فرعد آمراً قاطعاً : ضحاك ، اريد الساعة رأس الخارجي، الساعة . اقيموا الارض واقعدوها للقبض عليه . لست اطيق ان يقيم عدوي في ارضي !

وهاله ان يبلغ به القلق هذا المبلغ امام رجل من رجاله لا يتهيب الشيمة به ، فشدد في تذليل اعصابه لطول اناته لئلا يذهب روعه بسؤدده . وود الاستجلاء فقال وهو يغالب نفسه على البسمة كأنه غير مكترث للغاشية: حدثني بوضوح يا ضحاك ، ماذا كان من الخارجي فينا ؟

وخلعت بسمته على الايوان جواً من الطمأنينة . وليس كابن هند في التصنع والتلوّن . ففي وجهه اقنعة تلو اقنعة ينتضي منها في اقل من التماع الشرارة اي قناع شاء . فالغاضب يمسي في رفة عين راضياً . والضاحك يبكي في ما دون الايماضة . والجازع يطفر في رمية اللحظة الى الجبروت

ومالت بسمة معاوية بالضحاك بن قيس الى الايمان بصدق بأس الخليفة . فروى حكاية الخارجي المستبين بالجنود الخمسة رواية صحيحة الاداء وابن هند يسمع وينتفض من مضض . الا انه كان يغرز في راحتيه اظفاره لئلا تفضحه فلتات لسانه . فكل ما كان يقاطع به الضحاك قولته : تباً للجبناء ، أيردهم جميعاً وهم خمسة وهو فرد ؟... يا لخزيتنا عند ابن ابي طالب وعند الخوارج الانكاس !

على ان الضحاك ما بلغ الى قوله : « ولم يحاول الخارجي النيل من الجندي الخامس ، بل دعاه الى ابلاغ امير المؤمنين ان الحين قد حان !... » ، ما اشرف على هذه النبذة حتى شهق معاوية كأن سيف الخارجي شك في نحره . فصاح الضحاك مستطيراً : امير المؤمنين !

فنهض معاوية يدفع عنه ذعره ويتجلبب السخط الفوّار مهدداً بيمينه وقد نفرت منها الاشاجع ودمدم : أيتوعدني ابن الفاعلة وتكونون في دولتي جيوشاً بعدد رمال الصحراء وليس بينكم من يردّ عني مقدوراً ؟ ... انا لها ، والله . لانقبن الارض عن اللئيم وانقبن فيه عن قلبه . هؤلاء الصعاليك نمنا عنهم فبطروا . معاوية ليس بالرجل التكلة ولا المنتهك الحرمة ، لاذيقنهم الموت !

وصفق بيديه ينادي حاجبه . فاقبل سعد يقول بخشوع العبد الناصع الطاعة : مولاي !

— اريد يزيد بن الحرث العبسي صاحب شرطتي . اريده الساعة . جئني به على جناح الطير !

وصال وجال . وبدا سيداً ضخماً . فتحير الضحاك من هذا الانقلاب المفاجيء كالاعجوبة ولم يكن بين شهيق الهلع واشر الصولة منفذ لرجع النفس . وما تماسك الفهري وقد راعه المشهد ان قال في سره : والله لست

ارى من يبزه في المداورة . فالاسلام لا يصلح برجل سواه وهو المركب من كل طبع ، العالم باسرار كل نفس ، الغاضب في حلم ، الخائف في جرأة. علي يريدها بضربة السيف وهو يحتال عليها بمراوغة الثعلب !

واطل يزيد بن الحرث العبسي يتألق فيه العزم والشباب كالمشعل الهادي. وجه صبيح ، وقامة تشد صعداً ، وكتفان عريضتان تتسعان للدنيا ،وسيف احدب براق الغمد كشفت عنه عباءة حمراء من وبر ، وكوفية بيضاء من خز زركشتها مصانع دمشق وعصبها عقال عقدت عليه خيوط الفضة ، فبرز تحتها الجبين يشع كأنه انفس شعر في انفس ديوان

وانحنى يزيد امام معاوية يقول : روحي فدى امير المؤمنين !

فقال معاوية وهو في ازباد : ماذا كان منكم في الخارجي يا يزيد ؟

فالقى يزيد نظرة على الضحاك بن قيس تستفهم : « أأنت مطلعه على النبأ ؟ ... » ، واجاب معاوية بقوله : نحن في اثره يا امير المؤمنين. ما ابقينا على وكر في دمشق الا ولجناه للبحث عن الجاني فلم نهتد اليه . رجالنا في الخمائل والبساتين وعلى ضفاف بردى يجدون في التنقيب . ومنهم من جاوز الغوطة ولا نبرح من المجرم على ضلة !

فصاح معاوية بغيظ يتأجج فيتفاقم : ولكني اريد رأسه ، اريد رأسه فارفعه في صدر دمشق على شفار الاسنة . ان لم تأتوني به يا يزيد حلت عليكم نقمتي . رأسه بالف دينار . اذهب واهدم دمشق على من فيها واحمل الي الكافر اللعين !

فاعاد يزيد انحناءته وتوارى كما اقبل ، قبسة عجلان . وزوّده معاوية نظراً صاعقاً يشتعل فيه الامر والوعيد . فاطال الضحاك النظر الى ابن هند

في نقمته وقال في نفسه متعجباً مدهوشاً : انه ليغلي على زمهرير . وجهه من جمر وقلبه من جليد . لو اقبل الخارجي الساعة يطعنه بالسيف لعرض عليه صدره قائلاً بانكسار ومذلة : « اضرب يا ابن اخي ولاتوجع عمك!..»، وقد يدفعه دهاؤه الى ضم الخارجي الى جوانحه والدم يسيل منها والى تقبيل عارضيه . وربما اضطرب لسانه بقوله : « اتعبت نفسك يا ابن اخي ، رفقاً بنفسك ! ...» . فما اقدره على امتلاك القلوب والتلاعب بحلوم الناس !

وسكن فوران معاوية كمرجل اطفئت ناره ويزيد بن الحرث العبسي يبرح الايوان . ونضا خليفة الشام عنه سخطه كما ينضو قميصه الخلق . ودنا من الضحاك بن قيس الفهري قائلاً بنبرة حادة : الا انها هادئة تتواثب الى مرمى بعيد : هذه الدولة وقد بنينا اسها في اذرح يا ضحاك يجب ان تقوم قائمتها ويطول فرعها . فمن يأتيني برأس علي ابن ابي طالب ، لا برأس ذلك الخارجي المغمور ، ويكفيني شر المنابذة الضاربة قيودها على ساعدي؟...فما استطيع ان احك رأسي بيدي !

فما تمالك الضحاك ان يكشر عن افتراز ويقول : وما يكون نصيب قاتل علي منك يا معاوية ؟

فصاح وقد بسمت له الامنية على وعورتها : والله يا ضحاك ، لاشاطرنه وفري واعفون عنه حتى ولو خضب يديه بدمي !

وانقلبت سحنته فباتت على جهارتها اقرب منها الى الدمامة . وكشف منطقه عن احقاده فاذا هي تطغى على دمشق وتضيع بفيضها معالم بردى . وخطا الى الضحاك يقول وقد رانت عليه وساوسه وفضحه اضطرابه : ايها الفهري ، لا تحسبن معاوية يخشى الموت . فوالله ما الموت عندي سوى

غفوة حالم . على ان ما اخشاه ان اجاهد لدنياي ويسقط في يدي . اطعمت هذه الدولة الناشئة كبدي ووقفت عليها همتي ولا اراني بلغت فيها مرحلة الاستقرار . علي يناهضني من ناحية ، والخوارج من ناحية ، وابن العاص لا تستقيم لي منه قناة . وقد اركن الى علي والخوارج اكثر مني الى ابن العاص . فالماكر كالثعبان ، لين ملمس على رهافة ناب . ألا تذكر ياضحاك ما كان منه اثر مؤتمر اذرح ؟ ... جفاني واقام مني على قطيعة . وكل مناه ان ينصب نفسه خليفة او ان يساوم على الخلافة بما لا يقوى على اشباعه فيه كل ما تملك يمين الاسلام من سيادة ونضار . ولولا مناعتي لابتلعني . الا انني نحرت كيده بما اعددت له من عقاقير يهي دونها مكره الخناس . ومع حكمتي وليني لا اقع كيفما ادرت عيني على سوى الاعداء . ويشق عليّ ان يطوى اجلي قبل ان اجمع هذا الملك في يدي ، وانشر راية السلام على بقعة من الارض لم يحلم بها اكاسرة الفرس ولا قياصرة الرومان !

وامتدت اطماعه الى القسطنطينية قاعدة البيزنطيين والى الهند الفسيحة المراع . ونضنضت في باصرتيه هذه الاطماع البعيدة الغور، العزيزة الادراك ، فلمسها الفهري بعينيه ويديه ، واختنقت في صدره صيحته : يا للطماح !

ومضى معاوية في القول وهو يغوص على امانيه واهدافه الجسام : من الغبن ان نقف بهذا الدين السميح حيث وقف به علي يا ضحاك . فالرسول ، وكان يفضي اليّ بنجواه ، اراده ديناً يعم الدنيا . وليس بيننا من تلين له شباة هذه البغية سواي !

وايقن انه باعد في تيهه وندّ عن سماحه ، وانه مع سعة حيلته ووفر دهائه لم يشيد وحده هذه الدولة الطالعة المسلولة عنوة من دولة احكم اساً

واقدم عهداً . فان له في البنيان شركاء ، ومن شركائه الضحاك بن قيس الفهري الماثل في حضرته ، المرهفة للحديث اذناه . وخشي ابن هند امتعاض جليسه من دعوى الاثرة فقال وابتسامة المرأة تشع في ثناياه : وما انا بالناسي فضلكم جميعاً يا ضحاك ، معشر اعواني وخلاني . فان لكم في تشييد هذا الملك الفسيح يداً مبرورة . ولولا صدقكم في تأييدي ونفاحكم عني لتحطم في النضال سلاحي وهويت دون مرجاي ، على ان سواعدكم دعمت طلتي فظفرت بخصومي . وامنيتي كل امنيتي ان تظلوا حولي لنضمن لانفسنا الغلبة ونقذ الاسلام من الشماتة والخذلان !

وانشق باب الايوان وبدا منه سعد حاجب معاوية يقول : الوفود تموج بباب امير المؤمنين وتستأذن عليه !

فقال ببشر وترحيب : لتدخل ، لتدخل . لست هنا لسوى النصفة وارضاء الناس !

ولاطف ودامث . واعطى فاجزل . ونام عن الظالم وكفى المظلوم شر الهضيمة وقد ازال بماله العدوان . فما جاءه طالب حاجة الا قضى له حاجته وصرفه عنه على مرضاة ومسرة . غير انه وهو يقضي في الناس براجح الحلم ومخفوض الجناح لم ينس الخارجي المتوعد الضاري . وتلفت لتبدو له هامة يزيد بن الحرث العبسي ، صاحب شرطته ، بين هذه الهامات المتواثبة في مجلسه ، فما لاح له يزيد . قال : أيكون الخارجي قطرة ماء جفّت في عين الشمس ، ام هو نسمة ريح ضاعت في متناهي الآفاق ؟

وخلا مجلسه من الناس فصاح : اين يزيد ؟

ووقف في حضرته ابن الحرث العبسي يقول : لا يزال مقر الخارجي

خافياً علينا يا امير المؤمنين. واعتقد ان المجرم برح دمشق . وقد يكون سلك طريق العراق خوفاً من نقمة الخليفة وبطشه !

ـ اما تبينتم اثراً من آثاره ؟

ـ ذاب كحبة ملح في نهر . لا اثر ولا خبر !

ـ أيعتدي علينا ويفرّ منا يا يزيد ؟ ... انها لفضيحة لا احسبك بها ترضى . شددوا في البحث عنه . لست اطيق عدوي في ثيابي. لا تناموا الليل. فالليل يقظان !

ولكن الخارجي توارى حتى امحى . وقد تكون لفظته دمشق فصدف عنها وكل مجهود في تأثره باء بالخزية . وساد الاذهان ان الرجل ضرب ضربته واكتفى ورحل عن قاعدة ابي عبد الرحمن ، الا ان معاوية ما برح يوجس شراً

والشهر شهر رمضان ، ومن عادة خليفة مؤتمر اذرح ان يقيم ابداً في يومه الصلوات الخمس . ويزيده الشهر المبارك انغماساً في التعبد فلا تفوته منه سجدة . وطوى من رمضان ذاك العام ست عشرة ليلة يرتاد فيها المسجد مصلياً خاشعاً . ومع انهمار السيل في صباح اليوم السابع عشر ، وحدة الزمهرير ، ابى معاوية الا ان يبكر الى صلاته يقيمها في متنفس الضحى . فالتف بعباءته الراجحة الوزنة ، الفضفاضة الذيل ، المحبوكة من الوبر والمزركش اديمها الاسود بخيوط الذهب ، ودعا بعصاه المستديرة القبضة كالصولجان ومشى الى معبد الله في موكب حافل والمؤذن يعلن بخشوع التقى وهناءة البلسم : لا إله الا الله !

هذا موكب امير المؤمنين . فوقف من درجوا في تلك البكرة القارسة

الى المعابر شاخصين الى موكب الخليفة . ومنهم من انضم الى الحفل مشمراً لمناجاة ربه . وما انتهى الحشد الى باب المسجد حتى كان المؤذن ينادي باسم معاوية خليفة المسلمين على صيحات : « الله اكبر ! .. » . وارتفعت الايدي الى فسحة السماء المحجوبة بالغمائم الدكن تتضرع وتستزيد . الخلافة لابن ابي سفيان هامة الامويين

ولكن ما هذه الصيحة الهالعة الممزقة الاسماع كحزة المبضع ، المضطرب لها الموكب كأنه اصيب في متناهي حسه ؟ ... من الصارخ : « قتلت ، ادركوني !... » ، الهاوي بباب المسجد بين دمدمات الصخب وسليل السيوف؟

وتلا الصرخة الهالعة صرخات مرعوبة : انقذوا امير المؤمنين !

وغلى الموكب كأنه قدر تفور وقد اعتلج في القلوب والاسارير الغضب والهول . معاوية يهوي مضرجاً بالنجيع . ووثب القوم على رجل شاهر السيف يصيح باستهانة المجاهد: دعوني اسفك دمه وليعش الاسلام عزيز المنعة ، سليم الوحدة !

فارتفعت الاصوات تضج : اقتلوه ، اقتلوه !

وهمّت السيوف المسلولة بان تتخطف رأسه ، غير ان معاوية نفض عنه الوهلة واستعاد على عجل رشده . فالطعنة وان تكن صرعته فلم تذهب بصوابه كله . قال : لا تقتلوا الضارب قبل ان تسلخوا من احشائه سره . كنت ارقب الكارثة . فاحملوني الى الخضراء وانجدوني بالساعدي طبيبي !

والضربة اصابته في أليته. فالمغامر اهوى من الوراء بباتره وانثنى مكرهاً عن الاجهاز والحشد يسد عليه الطريق الى منشوده. وطار اليه يزيد بن الحرث العبسي شرارة لاهبة يمسك بخناقه وينتزع منه سيفه ويهزه بعنف صارخاً

به : من انت ايها الناشز الاثيم ، قتلتك اللعنة ؟

وتولت الحشية قادة معاوية فالتفوا حول الخليفة الصريع وقد هالهم ان تنقضي ايامهم بانقضاء ايامه . ورفعه الضحاك بن قيس ، وابو الاعور السلمي ، وشرحبيل بن سمط الكندي ، ويسر بن ارطأة بين ايديهم وقلوبهم عليه . فالتفت اليهم الضارب المقحام بازدراء واجاب يزيد بن الحرث العبسي بشدة لا تنتابها رعدة : أتريد ان تعرف من انا يا يزيد ؟ ... انا من يريد للاسلام القوة بينا تريدون له الهوان . انا الذائد عن دينكم وقد كنت من الداعين الى قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص ليخلو الجو للالفة والجماعة ويحيا الاسلام عزيزاً أثيراً !

واطلقها ضحكة حاقدة تموج بالنقمة . فهال سامعيه ما يتفوّه به والحوا في الافصاح : من انت ؟

قال : وما تبغون من اسمي وقد اوضحت لكم امري ؟... انا من يروم انقاذكم من رجال الضلال فيكم وانتم تشتهون لانفسكم الذل والفضيحة !

فما غاب عن يزيد بن الحرث العبسي انه حيال الخارجي الطريد مدوخ الخمسة . وتعاظمت بصاحب الشرطة احقاده على من عبث به هذا العبث الفاضح ، فصرع في كبد دمشق حفنة من الجند وتوارى عن كل عين لا تطوله اذية ، حتى اذا ما عرضت له السانحة هاجم بباب المسجد الخليفة وقد يكون اودى به . وشاء يزيد ان يسمع من المغامر اسمه الصريح فشدد في الاستيضاح : من انت ؟ ... من انت ؟

قال : أتريدون اسمي ؟.. انكم لهازلون . وما النفع من اسمي والنجح كل النجح في عملي ؟... انا الحجاج بن عبدالله الصريمي . البرك لقبي ، وتميم قبيلتي ،

والخوارج قومي . فهل زادكم اسمي معرفة بامري ؟

فصاح يزيد : هذا هو اللعين ، قاتله الله !

وشد وثاقه ودعا من حوله من الشرطة الى سوق المغامر الى السجن قائلا لهم : عذبوه حتى يستطيب الموت وتشتهي نفسه الخلاص من دنياه !

فاجاب الخارجي بطمأنينة وارتياح : بشرني باني قتلت معاوية ولتحرقني في جهنم النار!

٣

وجمت دمشق حيال النبأ الصارخ كأنها في غشية. فألمّ بها الجزع على ابي عبد الرحمن وانتابتها من شر المنقلب رهبة محمومة . وتلفت بعضها الى بعض مستطلعة حائرة . فودت ألا تصدق ما يلقى في مسامعها من جمر وما ينفث في ضميرها من ويل

ومشت الى قصر الخضراء والشك في خاطرها والرعب في نتوء عينها . وودت ان يطل عليها ابو عبد الرحمن من شرفات القصر بقامته المهيبة وطلعته الوقور سالماً معافى. فان ابا عبد الرحمن منها للجبين المشرق والقطب الهادي ، الا ان الفاجعة طغت على التعلة. فالنبأ صادق الوجه واللسان . معاوية مصاب بطعنة يخشى ان تكون مسمومة . فصعّدت دمشق صيحات الغلّ المعتلج فيها الخوف الكظيم . وماجت حول قصر الخضراء وفي كبدها الهلع وفي صدرها الوعيد

وغلى القصر بالوفود تستوضح اثر النازلة . واندفع الامويون كالسهم المرنان الى عميدهم الجريح يتبينون فيه العافية وقد هالهم ان تنبو عن باني المجد ومعيد السلطان . واذا الجموع تنشق كأنها هامة فلقها سيف ماضي الشفرة. وانساب في الفجوة ثلاثة من الفرسان ترجلوا امام باب القصر بعزيمة مجدولة كالمقبل لمهمة خطرة . وومضت في احدهم ، وهو شيخ طاعن في السن ، هيبة العلم . وكلما خطا في المزدحمين تطاولت اليه الاعناق مثلها الى منقذ اروع .

هذا هو الساعدي طبيب معاوية ورقية دمشق من الاسقام

وانحلت عرى المتألبين على الجريح فيما يمشي اليه الساعدي ، وبصر الخليفة ، المتململ على بساط الالم ، بطبيبه يحث اليه الهمة فالتمع في حدقتيه الامل . جاءه من يكفيه مضض الطعنة الغشوم . وافرجت شفتاه عن أنينه : انه لجرح نغّار ايها الساعدي ، فادفع عني لهيبه !

وحبست الانفاس في الصدور والساعدي يميل على الجرح الموّاج بالدم القاني . فسدد اليه نظراً ثاقباً يرهفه العلم الرشيد . وما لبث ان رفع عينيه المثقلتين بالهدية الى الخليفة الطعين قائلاً بثقة جازمة : الضربة مسمومة يا امير المؤمنين . على ان بوسعي انقاذك من كيدها . فلك ان تختار ، اما ان احمي حديدة تكوي الجرح وتذهب باثر السم القاتل ، أو ان اسقيك شربة تقطع منك الولد فيما تهب لك الشفاء !

فحامت الابصار على معاوية ترقب الجواب بفضول ظمآن . وما ابطأ معاوية في الجواب ، فكأنه على أسلة لسانه . قال : اما النار فلا صبر لي عليها ايها الساعدي ، واما الولد فان لي في يزيد وعبدالله ما تقر به عيني ويشفي نهمي !

فاعدّ الساعدي الشربة وسقاها الخليفة الجريح وهو يقول : انها لناجعة الاثر ، سريعة الجدوى ، دفع بها الله عنك سوء المغبة !

وكأن عبئاً كابساً هوى عن الظهور والساعدي يعلن مقاله . وجالت في الشفاه البسمات المطمئنة ، وعمت البشرى القصر فثملت بنشوتها الجموع . أما الساعدي فادرك منتهى مجده واسنى ايامه . فطوق هامته الثناء بهالات مكتنزة الاشعة وقد انحنت امام علمه وتفوقه دولة أيّدة ريّا . وما عفّت عن الشكر حتى النساء المزدحمات في القصر بانتظار ما يكون من امر الخليفة المضرج

بدمه . فاندفعن الى الساعدي بقسماتهن الوضاحة وقدودهن الرفيقة يفضن بكلمات الاعجاب المصطفاة ، الشجية النغم كرنين الاوتار .

وبين الاسراب المتحلقة على الساعدي وجه نبيل الحسن ، وضاء المبسم ، تتدفق شفتاه بالقول الشهي القطاف ، الفاتن النغمة . فحامت عليه الابصار معجبة . وعرف فيه الحشد اريب بنت اسحاق احدى بنات اعمام الخليفة الطعين ، ولؤلؤة دمشق الباهرة الجلوة . درجت الى قصر الخضراء معتصمة برعاية ابيها وامها . فما ضجت به دمشق عن معاوية استنفرهم ، وهم من اللحمة ، الى الخليفة الغارق في النجيع لاستجلاء النبأ الراعب والاطمئنان الى المصير

وتغلغل يزيد بن معاوية في الصفوف يبحث عن منقذ ابيه ليبثه شكره . ويزيد في لألاء الفتوة ، يغرورق في اعطافه الشباب الطري ، الفائر اليقظة . اسمر ، جعد الشعر ، في قامة ضامرة تشد انطلاقاً . اغار عليه في حداثته داء الجدري فطبع في وجنتيه عضات محمومة . واتسعت عيناه على استهواء خيال وقد اشرق سوادهما بوهيج روعة

ولاحت للفتى اريب بنت اسحاق في هيفها الواني وطلالتها الجموح فبهرته منها البلجة العارضة . وناءت برجله همته حيال ذلك الحسن النضيد فجمد مكانه لا يجرؤ على استباحة الحرم الوقور

ويزيد طلب نساء ومفتون صابة . يصرعه الجمال كأنه فيه ضحية . فتناهى شدهه . وهو لو طلب الكلام لتعتع في القولة . على ان الساعدي انقذه من صرعته بان مشى اليه بجلاله ومجده يقول : مرحباً بيزيد !

وتصافحا على غبطة . وسرّ يزيد ان ينجو من موقفه الحائر فقال : جئت أبحث عنك في هذه الجموع لابلغك ثريّ اعجابي . فان دفعك المضض عن امير

المؤمنين لحسنة ننظمها في عقد فضلك الحالي بكل نسيق طريف !

فراقت الساعدي في ابن معاوية حبكة البيان النضير . واجاب وابتسامته تتسع على عرض شفتيه ويتغضن بها وجهه : نفسي فدى امير المؤمنين . ما كنا لولاه لنستظل هذه الدولة المليئة بالعظمة والصولة يا يزيد . فان معاوية فينا للجبار الحليم والسيد الباني . فاذا ادينا اليه بعض حقه علينا فلسنا بالمتفضلين!

غير ان يزيد ، وقد بات من فورة الحسن على قبضة ، لم يملك نفسه في الاصغاء الى الساعدي وهو منصرف الوعي الى ارينب بنت اسحاق في فيض سناها . وتلفت اليها مضطرب العين ، خنوق المهجة . فاغضت على استحياء . وتراجعت وفي خديها حمرة من ارتباك وتبطنت بجهد الحلقة المرصوصة . فتبعها يزيد بعينيه مجذوباً اليها بشغف مرتجل حفيّ . وكاد يصيح بها : « الى اين؟...»، غير انه امسك اجلالاً للحسن المبسوط الروعة ، العابق الطيب . وتوارت ارينب بين الجموع فادركته الغصة وعلته خيبة رمداء لانقطاع الرواء الفاتن وتمزيق غشاوة السحر . وود ان يشق الحشد الى ارينب يستوضحها ما روّعها منه ، الا انه اضاعها وقد احتجبت عن ناظريه بمزدحم الجمهور

وتجلت فيه خيبته الممضة . وشاء الكلام فاعياه النطق . بل هو لم يكن يدري بما يعلن وقد تاه عن مبغاه . فنسي انه قبل يشكر للساعدي جليل علمه وجزيل فضله . انقذ معاوية من الموت وكأنه انقذ الاسلام من الهوان وصان البيت الاموي من الشماتة والذلة

ووقف كل من حول يزيد على قصي ارتباكه وسر لعثمته . ارينب رمته بخمور الحسن فيها واسرفت في الاعراض . قيدت وتوارت . فيا للاسير المظلوم الحشاشة !... والساعدي لم تغب عنه المأساة . فعاد ينقذ يزيد من

حيرته وامسك بيده قائلاً ببسمة صفية : لنذهب الى امير المؤمنين يا يزيد !

وابتعدا عن سرب الحور الشوادن . فقال يزيد مستسراً : انها لكاعب مشرقة الوسامة ، كافرة العين ايها الساعدي . لست ادري والله ما روّعها مني على استئناسي برضي بهجتها !

فابتسم طبيب الخليفة وقال : هذه ارينب بنت اسحاق يا يزيد . زهرة من ياسمين على عود من الند. ما في دمشق ابهى ولا اسنى. روّعها منك شبابك وسلطانك . وان تكن كافرة العين في صرع اخوان الصبابة فما العتب عليها ودولة الحسن تتألق منها في المبسم الينيع !

فترنح يزيد بنشوة الجمال المندلع الصولة، المتفنن في تنميق اوصافه الساعدي الطبيب . وقال وقد فاضت شفتاه بمختلج حسه: ايها الساعدي ، ليتك تقوى على شفاء القلوب مثلك على ابراء الاجساد !

واطلقها زفرة كاوية اللهيب . فضحك الساعدي القاعدة به السن عن دعوى الحنين وقال يمازح ابن معاوية : اللذة في الالم يا يزيد . فما دامت الجمرة تكوي فانت فتيء هنيء . لا تلتمس الشفاء من الحب وفي الشفاء ضجر فظ، وفي السلو فراغ دميم، بل افتح للشباب دروبه وانعم باهواله . فما فاتك منه لن يعود . والدواء لا تخش بطئه ، فهو في عنق الزمن العجول !

وغلبت الحكمة الممازحة. فنضا الطبيب الشيخ عن كامن شعوره ونضيج خبرته . وكانا قد بلغا باب معاوية المضطجع في سريره على بسمة الحلم كأنه لم يكن منذ هنيهات ضحية مكيدة دبرت في ليل. وازدادت بسمته اتساعاً وقد رفّ في عينيه الساعدي . قال : مرحباً بالنطاسي المنقذ !

واستأذن عليه يزيد ابنه . ولم يكن من عادة يزيد ان يدخل على ابيه بلا

استئذان . فاجاز له المثول في حضرته . وجلس الطبيب عن يمين الخليفة الجريح ، واقام يزيد عند قدمي معاوية لا تستجيز شفتاه النطق . فقد شدد عليه معاوية ابوه في الوقوف منه موقف الاجلال والخشوع . فهو بين يدي خليفة المسلمين . ولم يكن يرضى منه ابوه ، مع كل حدبه عليه ورفقه به ، الاستخفاف بالمقام العزيز الشوكة . فالخليفة خليفة حتى بين آله وبنيه

وضم المكان الضحاك بن قيس الفهري ، ويسر بن ارطأة ، وشرحبيل ابن السمط . ثلاثة من قادة معاوية الاعلام الذائدين عن خلافته بصدورهم وصدور رجالهم الضخام العديد . وبجانب الحجرة المسجى فيها معاوية على فراش الالم ، وراء ستار من الارجوان ، استقرت ميسون الكلبية امرأة معاوية ، ام يزيد ، وبنات معاوية الثلاث ، هند ورملة وصفية ، وابنه عبدالله ، يصغون الى منطق الخليفة ويقفون على اخباره . ومعاوية وقد ايقن بالنجاة من خطر الطعنة الصارعة ، ولاح له الشفاء سريع الطلة ، مال الى رؤية الخارجي الضارب والاصغاء الى باعث نقمته . فمن دفعه الى الفتك بابي عبد الرحمن ؟... قال ولم يذهب جرحه بجهارة صوته : اين يزيد بن الحرث العبسي ؟... عليّ بالخارجي الكنود !

فجيء به مكبلًا بالقيود ، الا ان تيهه لم يبرح فيه على غليان . فهو ينظر نظرة شزراء الى جميع هؤلاء الممتدة اليهم عيناه . فهم اما جهلاء او كفرة . نبذوا الدين الصحيح واقاموا من الشريعة السمحة في ضلالة . وما انحنى وقد مثل امام معاوية ، ولا سلم عليه ، بل وقف منه موقف السيد المغلوب على امره ، الثاوي في كرامته مع تحطيم سلاحه . قال صاحب شرطة معاوية ابن الحرث العبسي وهو يسوق الخارجي امامه : ها هو يا امير المؤمنين ،

جاهل غرّ اقدم على جريمة نكراء . لو صدقت طعنته لهدم دولة !

فتململ الخارجي في وثاقه ورعد : اما جاهل غرّ فلا ، وحقك يا يزيد، واما لوصدقت طعنته لهدم دولة فهو قول سديد . الا انها دولة بطل وبهتان. فالدين الازهر يأبى تعدد الرؤوس في الاسلام . كان النبي فرداً ، وخليفة الرسول ان هو الا واحد فرد. فاذا قام فينا من يعدو هذه الشرعة فلتتخاطفه سيوفنا . ومعاوية عداها بطمعه واحتياله ، وعلي فسح المجال الى الاستباحة بسلامة طويته وواهي حذره ، وابن العاص جرّ الى الشقاق بخداعه واثمه . وعلى كل مسلم مؤمن ان يخلع عنه هؤلاء الثلاثة الانكاد !

فارتفعت اصوات تدمدم : صه، لا ام لك !

فتفجرت من فم الخارجي ضحكة طغت على كل دمدمة . واومأ الى قيوده وهو يقول بسخر واستهانة : كنت اريدكم على الغضبة وهذه الاصفاد لا تشلّ ساعديّ . اما والله لنثرتكم كالنجوم في قبة الليل ، كل رأس في فلاة ، مأكلاً للوحش والطير !

فصاحوا وقد تقلقلت الاسياف في الاغماد : لك الويل !

فأشار معاوية ان كفّوا . وقال يخاطب يزيد بن الحرث العبسي : حلّ عنه وثاقه وانقذه من اغلاله يا يزيد !

والتفت الى الخارجي يقول : خفف عنك يا اخا العرب . انت هنا في حضرتنا ، فلا خشية عليك . انفث ما في صدرك فكلنا مسامع . من رمانا بك فاضمر لنا الهلكة؟

فأجاب الخارجي بجرأته الجموح : رماك بي الدين يا معاوية ، دين الله القويم . شئتَ افساده فاعتزمنا التنكيل بك . ومن سوء حظ الاسلام ان

تكون نجوت مني. بقاؤك هادم للوحدة ومفكك للعروة . لو انصف القدر لاصاب سيفي منك مقتلاً وصفا بمصرعك الاسلام . لا رحمك الله . ولكن القدر انتصب لنا عدواً قاهراً يبدد منا الشمل لارواء مطامع ومصانعة اهواء !

فاستدارت العيون جاحظة تبرق بالنقمة . وانعقدت الحواجب على وعيد وشر . ورقب الجميع ايماءة من معاوية لتمزيق الوقح . بيد ان معاوية الطويل الأناة لم يذهب عنه طول أناته . فقال يخاطب الخارجي ، كأنه لم يسمع منه التهديد ولا الاهانة ، بكلمات عذبة الرنة : أيكون معاوية وحده حافز شقاق في الاسلام يا ابن اخي ؟

فأعلن الخارجي : بل هم ثلاثة ، لا رفع الله لهم راية ، معاوية وعلي وابن العاص . وان تكن يدي قصرت عنك فما وهن صاحباي دون علي وابن العاص رفيقيك الى النار !

فاعرض معاوية عن الشتيمة كأنه غريب عنها، وصاح وقد تناسى جرحه وألمه : وهل اعتزمتم قتل علي ؟... بالله ، هلا اطلعتني على جلي المسعى ؟

وكاد يثب الى الخارجي يعانقه ازدلافاً اليه في الافصاح . وغاب عنه ان هذا الماثل امامه اوشك ان يستصفي منذ قليل دمه . فقال الخارجي وهو لا يبرح ممسكاً على حقده ، مغالياً في عبوسه : ما اعتزمنا قتل علي الا وقد قضينا بالبطش بك وبابن العاص ، بالثلاثة معاً وانتم اعداء الله . ووطنا النفس على سفك دمكم في يوم واحد ، في السابع عشر من هذا الشهر ، شهر رمضان المبارك . ولا بد ان يكون رفيقاك يغوصان الساعة في دمهما . علي في الكوفة وابن العاص في مصر !

فتفتحت الاسماع على مداها لالتقاط اقوال الخارجي . وامسكت الحنايا على لهاثها لا تكاد تجود بنسمة . فاي سر رهيب عجيب ، مقعد مقيم ، تعلن شفتا هذا الرجل الدميم الراعب ؟... ان يكن جاداً في قولته فلا ريب ان الاسلام مقبل على ثورة تخبط بعضه ببعض ، فيميد لها المشرق ويبيت منها الرضيع على وعي وشيب

واستيقظ في معاوية طماحه السليط ونفض عنه اوجاعه وصلبت شكيمته . فان ما يحدثه به هذا الخارجي للامنية المختلجة بين اضالعه . لقد نجا من الخطر واضحى لا يبالي وقعه . فان تزل القدم بعلي وابن العاص ، ولا تنبو عنهما الفتكة ، فاي فسحة من الدنيا تتسع لاطماعه الجسام ولبعيد مراميه ؟... فالاسلام ملك يمينه ، بل العالم حتى اقاصيه اضحى منه في قبضته ، من الهند الى الامبراطورية الرومانية ، من المحيط الهندي الى بحر الظلمات . فهو هو وارث الهنود والرومانيين ، سيد المشرق والمغرب معاً

وما لاح لمن حوله هولاً بدا له نعمة . وما تجهمت له الاسارير انبسطت له معارف معاوية وقد اشرقت فيها فخفخة الفتح وبهجة السلطان . فلماذا لا يرث الاسلام مجد اثينا وروما ، فتضرب له القباب تحت ظل معاوية في جنبات الكون اجمع ، ويدوخ كل دولة ، ويذل كل علم ، لينشر لواءه الابيض المنصور على الارض ومن فيها ؟... وانتشى معاوية بلذة الرؤيا النابضة في عينيه ، في عينيه وحده . والتفت الى الخارجي الراسخ في جفوته يقول : هززت قلوبنا يا ابن اخي . ان ارواحنا لعلى اطراف شفتيك . هات ، هات كل ما عندك . فانك لتحمل في صدرك دعائم غد استجلي تباشيره . من انتدبكم للمهمة الخطرة ، ومن تولى منكم انجازها ؟

فجاش التميمي ببغضائه وتفجر فيه حقده . قال بايمان نقي الدخلة ، حريز اليقين : لم ينتدبنا للمهمة يا معـــاوية سوى غيرتنا على الاسلام . نحن الخوارج لا نحيد عن منطوق الكتاب . فمن اختـارته الامة للخـلافة فهو الخليفة . والامة اختارت علياً فجئتَ تسفه رأيها وتعبث بمشيئتهـا . وعلي ساعدك في العبث بالمشيئة وتسفيه الرأي وقـد قبل التحكيم في اذرح . مع ان الحكم لله لا لسواه يا معاوية . والله قد اصطفى علياً ، فانكر العاثر على الله حكمه وسقط في فخ نصبه له دهاؤك ودهاء ابن العاص ، وافضى به الامر الى الخسران وتصديع ركن الاسلام . ولقد عز علينا ان يهون هذا الركن وتآمرنا في الكيد لكم جميعاً لينجو دين الله من وصمة مآربكم الدنيئة. ويهدّ قلبي ان ينبو عنك صارمي فلا اخضب الارض بدمك، واطعم الحشرات لحمك وقد رتعت طويلاً في لحوم المسلمين يا ابن هند !

— وهل مشى صاحباك الى الكوفة ومصر ؟

ولم تتبدل طلعة معاوية والمثالب تلطمها دراكاً . فامتد النظر بخليفـة مؤتمر اذرح الى ما يجاوز الترهات يلوكها غمر انكد. ووثب فوراً الى طلبته. هل شخص الخارجيان الآخران الى الكوفة للقضـاء على علي ، والى مصر للبطش بابن العاص ؟ ... هذا ما ودّ ابن ابي سيفان ان يقع منه على هدية. ولم يكن ليحفل بامر ابن العاص وهو مع شديد دهائه يخشى جـانب هذا الداهية المماذق . فاذا اريق دمه زالت عقبة كأداء من الطريق وخلا الجو للمطامع في متفاقم سورتها . وابن العاص دون علي شأناً وخطراً ، الا ان النجاة منه خطوة موفقة الى الطمأنينة الرحراح . قال الخارجي : مشينا معاً وكلنا يعاهد على ادراك وطره ، والا فالاسلام في حل منـا . سوف تسمع

اخبار صاحبيك يا معاوية ، فلا احسبهما يملكان حظك المنيع !

— وممن انت يا ابن اخي ؟

— من تميم الضامرة لك الويل . ورفيقاي منها . ويا للغضاضة يوم تعلم قبيلة بني تميم ان قد اخطأتك يماي !

فابتسم معاوية على غبطة وارفة وقال : ليفرخ روعك يا ابن اخي . قمت بما عليك ولتميم ان تفاخر بامثالك من ذوي المغامرة الهازئة بالمكاره . ولكن من انت في بني تميم ، ومن رفيقاك ؟

فغاظته الاسئلة تنقض عليه غير مهادنة وقال بجمجمة محمومة : دع عنك الاسماء يا ابن هند . حسبك انك نجوت من صمصامي وساعدي !

— واي شر يا ابن اخي في معرفة اسماء الانجاد المغاوير ؟

ولان حتى كادت تجهله نفسه . وشعر التميمي بانه حيال ند يخاطبه هو منه بمقام العديل والمثيل ، لا تجاه خليفة رهيب الجانب ، شكس البادرة . ووهنت حدة الخارجي وسكن نزقه وقال : ادركت الآن كيف غلبت علياً وجمعت حولك الاعوان يا ابن هند . والله انك لتحمل عدوك على تأييدك حتى وهو يتأجج في كرهك . يكرهك وينصرك . يا للداهية الرجيم ! ... اضرب عنقي . اضرب عنقي . لقد غيرت بدهائك وجه الاسلام واصبحت اخشى ان ادعوك امير المؤمنين !

وغارت عينا الخارجي في ارض الايوان ، وتقلصت قامته كأنه يذوب في نفسه . فتنه معاوية برحابة صدره وعريض حلمه . وساد الخشوع المجلس كأن الالسن شلّت والانفاس تقطعت . وبات القوم بين مكبر دهاء معاوية ومشدوه برواية الخارجي . فاي مأساة فاضحة تمثل في حرز الاسلام ؟

قال معاوية برباطة جأش تثير الدهش حتى في النفوس الصلاب : لا نزال نجهل ابن اخي وصاحبيه !

فاجاب التميمي وقد تلاشى حتى بات يُجرّ بخيط العنكبوت: صارحتكم باسمي ، انا الحجاج بن عبد الله الصريمي ، والبرك لقبي . ندبت نفسي للفتك بك ، وعاهد رفيقي عمرو بن بكر على البطش بابن العاص ، اما رفيقي الآخر عبد الرحمن بن ملجم فتولى قتل علي .هل شفيت باعلان اسمائنا نهم...

وكاد يقول : « نهم امير المؤمنين ؟... » ، ولكنه امسك ، عجلان ، فلته لسانه وقال : « نهم ابن ابي سفيان ؟... » . فقال معاوية : عافاك الله. سوف ترى منا ما يحملك على حسن الظن بنا . عدْ به الى مقره يا يزيد وبالغ في اكرامه. لا تكبل منه اليدين ولا تشده بوثاق . كن بامان ايها الخارجي!

والتفت معاوية الى صحبه يقول : اذا صدقت روايته ، ونجونا من علي، فهو حر . والا فالموت نصيبه !

فانحلت الالسن المعقودة وجرت الانفاس على طلاقة . فقال الضحاك ابن قيس الفهري : ان الاسلام لعلى انقلاب سحيق يا امير المؤمنين !

فقال معاوية : وهل تخشى عليه وقد وهبت له نفسي يا ضحاك ؟... هذه الدولة نحن من بناتها وسنبالغ في توطيدها. وكيف يتهدم الاسلام وقد حملنا رايته من الصحارى الغامرة الى المدن العامرة ؟... سيصول بنا وتعظم شوكته وندق اوتاده في متناهي الآفاق . ان دولة نبغي تشييدها لا بد ان تضم اليها ممالك الروم والهنود كما ضمت مملكة الفرس . صبراً ريثما ترد علينا جلوة الانباء ونحن واياكم على اهبة التبسط في الفتوح !

فتنقل بهم من قمة الى قمة كأنهم اردانه ، يشمر ويرخي حين يشاء .

واطربهم ان يقودوا الجيوش الى افتتاح البلدان وان يضارعوا الروم في شامخ سلطانهم ورفيع مجدهم ، فتدين لهم البحار والامصار ويذل الملوك والاقيال . ولم تبرح سيوفهم المخضبة بالدم ظمأى الى الدم تشتاق ان تنقع منه غلتها . وعاودت الضحاك بن قيس الفهري كلمته الراهبة في معاوية : يا للطّماح !

وواحد فرد في هذا العقد النسيق لم يكن يفكر في معاوية ولا في افتتاح البلدان . هو يزيد بن معاوية . فقد اقلقت نفسه ارينب بنت اسحاق . . .

٤

على انفاس الفجر الالمى تثاءبت دمشق في ضجعتها وتمطت في سريرها الادكن . فالخريف نزع منها ابرادها الخضر وكساها بالصفرة. واوجعها العدوان فاخذت تتعرى من حلة لا ترتضيها تألماً من الهضيمة الغاشية . وتناثرت دموعها ورقة ورقة تكفن بها نفسها وقد آثرت الفناء على البقاء مفجوعة بحقها السليب

وهبّت نسمات باردة تنعش الملتهب الجبين وتتقلص بها بشرة المقيم على ضمرة . وهذه النسمات لقيت في قصر الخضراء من تدغدغه وقد كشف لها يزيد بن معاوية عن اساريره . فهو في شرفة حجرته المطلة على بردى الهانىء المسيل وعلى بساتين دمشق الباكية وضاءتها الهاوية وعزها المهيض .

وما رفرفت عينا يزيد على الغمائم السمر الناشرة على الافق اذيالها ، ولا شعرتا بصيف مضى وخريف اطل . فالدنيا لديهما لا تبرح الدنيا . ومن عري اليوم سوف ينعم غداً بالكساء. وجلّ ما حفلتا به البحث عن دار من دور دمشق البليلة، تكاد تغرق في اسراب من اشجار الحور، الواثبة على ضفاف بردى، المرنح الاعطاف بهينمة لعوب . هناك تقيم ارينب بنت اسحاق شاغلة الفتى الاموي . فمنذ رآها في قصر ابيه وهو يفكر فيها . وبحث عنها ولم يبلغ منها وطراً . فهي اذا رأته يعرض لها اسرعت في الاعراض عنه مثلها في قصر الخضراء يوم اصيب ابوه بطعنة الخارجي

وهالته نفرتها . فكأنها تخشاه .مع ان الحسان يقبلن اليه خفافاً وهو في ريّق العمر وابن خليفة . وكم صدّ عن حسان وغالظ فتيات . فلم يكن مع هيامه بالنساء يكترث لامرهن . فان لديه منهن بقدر ما شاء ساعة يشاء . وما وقف به المطاف عند فتاة غير ارينب . فقد شغلته حتى عن نفسه لبليغ حنينه اليها . وزاده اعراضها شغفاً بها . وكلما انقضى الزمن تفاقم في يزيد الهيام وتضرمت الحرقة على مديد لظى وجامح أوار

ورام ان ينسى فما اسعفه قلبه في النسيان . فهو صريع العين الدعجاء والهدب المستطيل ، الرشيق الرفة . وحاول ان يكاشف اباه سره فخشي ان ينهره ابوه . فقد عانى معاوية من طيش يزيد كل لوعة وخيبة . فالفتى المعشاق كاد يفضح اباه المعتصم بالخلافة على سنن الدين وتعاليم الكتاب . وهدد معاوية وندد ويزيد لا يرعوي . فقد فتنته الخمره والمرأة ، يرشف من تلك وينهل من هذه حتى يبيت لا يطيق وقد ثمل بنشوتين ، نشوة الكأس ونشوة الجمال

وما عفّ عن قصر الخضراء يبيحه لملذاته . فيفتح ابوابه في الليل للندمان والخلان ويلهو بذوب الدن وبفورة الحسن على رحابة وعريض شهوة . وشعر معاوية بالمعصية فثار ، الا ان الابوّة غلبت فيه القسوة فركد يتجاهل الاثم . واذا التمادي يطلق منه الغضبة المكظومة .فدعا اليه يزيد يوءنبه وينهاه عن تدنيس القصر بالفحش . فاطرق يزيد وامتثل ، وبات حيال ابيه ذليل العين ، خاشع اللب .

وكانت الانباء قد وردت بظفر ابن ملجم بعلي ، وبضلة عمرو بن بكر عن ابن العاص .شاء الفتك به فاصاب صاحب شرطته خارجة بن ابي حبيب .

ودعا معاوية بمن سدد اليه الطعنة وخاطبه بقوله : انت حر لوجه الله يا ابن اخي . اذهب ولا تحقد على عمك . لقد كان عمك براً بك !

وخلا الجو للاسرة الاموية . فلم يبق من مزاحم عنيد . وقبضت يمين معاوية على جمع الناصية في الدولة الفتية . فهو الآمر الناهي. وليس الحسن بن علي بمن يرهب له جانب وتخشى فيه صولة

وشفي معاوية من جرحه واتسعت فرحته حتى عمت دنياه . ومع رجحان البشرى ، واخضلال الامنية ، لم يكن يجروء يزيد على التحدث امام ابيه بما يغلي به دمه من هوى بئيس . فقد ادناه منه معاوية وابعده . ادناه منه حتى لم يبق بينهما شعرة ، وابعده عنه كأنهما يقيمان على قطيعة . فان يزيد ابنه ، ومجيره في الرأي والتدبير . فما من مشكل الا ويستشير فيه هذا الفتى الناشىء ، المتقد الذكاء . على ان الخليفة يأبى الا ان يتسربل ابداً بجلال الخلافة . ويزيد فرد من افراد الرعية ، فليس له ان يشذ حيال الخليفة عن الانحناء المفروض على المسلمين

وبدا يزيد في ذلك الصباح الغائم في شرفة قصر الخضراء كاسف البال ، مغموز الامل . فمن له ينقذه من جواه ومن حسرته في جواه ؟ ... واقام في الشرفة على جزع ولهفة . وخطر له ان يبوح دمشق الى اخواله بني كلب الضاربين في تدمر الاطناب . غير انه لم يكن يجد لذة في هجران دمشق وقلبه فيها . فلن ينصرف عنها الا وقد نال المبغى او عثر في الصبوة

ولم يكن يأمن العثرة . فقد قست عليه اريب في صدودها . وهي لو كانت تبادله الميل لوقفت منه موقف المؤنس الرحيب للفتة ، فتشاطره النظرة او بعض النظرة ، وتجاريه حين تراه في سكرة الذهول . ولكن اريب

كانت تمر به مرورها بالاثر العافي، بل كانت تمر به على خشية وقد جاءها عنه انه طلب نساء . وباحت لها عيناه بما ينتفض به خاطره فابت ان يلهو بها ويفضحها ثم يميل عنها كأنها منه قميص خلق نسلت خيوطه فلن يرتديه

واتكأ على الشرفة وتصاعدت زفراته تفصح عن شجوه . ودخل عليه وصيفه رقيق فهالته منه وقفته الساهية وقسوة عينيه . ورقيق ذو دالة على سيده يزيد . يعدّ له مجالس لهوه وشرابه ويدعو اليه الندمان والخلان . واوجعه منذ حين ان يرى ابن الخليفة في كآبة ونزق لم يتعودهما فيه ، فدنا منه يقول بغيرة صادقة اللهفة : سيدي يزيد ، ما للصباح الباكر ينتزعك من رقدتك وكنت حتى نجوم الشمس أليف السرير ؟

فاخرجه وصيفه عن سهوه ، الا انه زاد في ايلامه. فقد وقفت به لوعته عن الاستئناس بمن حوله فودّ ان يحبس عليها نفسه . قال ورنة الحزن تجلجل في صوته : دعني يا رقيق !

وتجلى في ملامحه مضض قولته .فهو على حرقة. وتألم الوصيف لألم سيده فقال : هذه الحال باتت تقلقني في سيدي وابن سيدي . هل لي ان اعلم ما يشجي ابن الخليفة والكون كله في خدمته ؟

فكان الجواب : آه !

وتأوه طويلاً يزيد بن معاوية . فقال الوصيف : عجباً ممن يقيم على حسرة وهو مالك الدنيا !

فلم يطق عند ذاك يزيد وقد وثب سره الى اطراف شفتيه فصاح بحنق : رقيق، من تحسبه يملك الدنيا يعجز عن قلب يستولي عليه. أتعرف القلب؟... هو دون قبضة اليد حجماً، هو نتافة من لحم تثوي بين الضلوع على وحشة .

وهذا الصغير ، الحقير ، لا يقوى من تتوهمه يبسط ظله على العالم ان يقبض عليه !

فجاوز البيان ادراك رقيق . هل يهذي ابن الخليفة ؟ ... ووقف الوصيف ينتظر ايضاحاً . وفارت في يزيد اشجانه فتوالى فيه هديرها . قال : لم يخطر لي في بال ان هذه البسطة من الارض تضم فتاة تصون نفسها مني يا رقيق . على اني بليت بما لم اكن اتوهم ، بليت بمن يطيب لها في هواي الانكفاء . لا تقاطعني . دعني اتكلم . هنا ، هنا في دمشق ، غانية لا يروقها سيدك يزيد !

فصاح رقيق : ومن هي الكافرة البلهاء ؟

— حذار ان تشتمها . هي اسمى من ان تشتم . قد تكون كافرة ، ولكنها ليست بلهاء . فانها لتنعم بذكاء وافر ، وبحسن وافر ، وبنسب ذكي . هي درة دمشق ، ودرتها اليتيمة يا رقيق . والله ما نظرت اليها الا وخيل اليّ اني ارى فيها الدنيا . عيناها لهبتا نار يشتهي الاحتراق بها كل متعبد للجمال والصبابة . هل رأيت من تبدو له النار ويرتمي فيها ؟ ... هي شعلة مضطرمة وليس من يقوى على الامتناع من ان يكون لها حطباً . رقيق ، هل رأيتها ، هل تعرفها ، هل وقع عليها ناظراك وما اكلتك النار ؟ ... نار ولكنها لا تنطفىء . هي تحترق ابداً وفي كبدي منها ضرم وجراح !

— مولاي !

— احترق واتعذب على رضا يا رقيق ، وما العمل وليس بالمستطاع النسيان ؟ ... عينان تحملانك على الايمان بالسحر وهو لفرط غلوها فيه غير حلال . وقامة ، وخطو ، وجلال . آه من الحسن المختلجة فيه روعة السماء !

ـ عرفتها يا مولاي !

ـ عرفتها ؟... اذاً انت تكتوي بنارها ايها الانكد . ومن لا يعرفها عندما يذكر الحسن والجمال وهي منهما في البحبوحة ، وهي الناشرة على دمشق لواء السنى والدلال ؟... عرفتها ولا عجب . وهل يخفى القمر ، وهل تعمى عن الشمس عينان ؟

ـ هي ارينب بنت اسحاق يا ابن معاوية !

ـ هي هي . يا لها من ساحرة. لقد فتنت الدنيا وما فتنها احد .رقيق، حزرت . هذه من اذلني هواها وما كنت قبل ان اهواها ابالي الحب واكترث لوقعه الفتّاك . قتلتْ وابت ان تحيي من تلطخت بدمه يداها . جانية ، جانية !... لها الله في يوم الحساب !

وفار يزيد كأنه السائل الملتهب دبت اليه النار . ونظر اليه رقيق في متأجج ثورته فراعه ان يقيم سيده على غليان يكاد يسلبه النهية . قال : هل خاطب سيدي اباه في امره ؟

فهز يزيد رأسه وقبضت يمناه بعنف على يسراه كمن ينتقم من نفسه وقد خاب في مأمله وسدت عليه ابواب الرجاء.وقال وكلماته تحمل فلذات كبده الحرّى: أأسأل ابي في قلبي وابي في شغل عني ؟... ما عرفتك غبياً يا رقيق. معاوية اقام هوة بينه وبين ابنه . فلا اجرؤ على مخاطبته في اموري ولا على مكاشفته أسراري !

ـ ولكنك عنده بمنزلة الخلافة وامارة المؤمنين !

فقهقه يزيد قهقهة الكفران بما يلقى اليه وقال : إما انك تجهل معاوية او انك تحاول خداعي يا رقيق . وعهدي بك صادق الرأي والمودة . معاوية

يرى الدنيا في نفسه ، في اطماعه الضخام . فان يقف ابنه في طريق امانيه فالويل لابنه منه . وهو الآن يهدم ويبني . فيحاول ان يشيد دينه لدنياه .

لا ، لست اجرؤ على مخاطبته في شؤوني وانا اخشى منه انياب ناظريه !

— لست على رأيك في ابيك يا ابن معاوية !

فعادت القهقهة الى يزيد مولولة راعبة . قال : أتكون تجهل معاوية يا رفيق ؟

— اني منه لعلى معرفة متناهية المدى. وتجسم لي فيه العطف عليك اكثر منه على نفسه . واذا شئت توليت عنك محادثته في شجوك . أتريد ؟

فقلب شفتيه . أيلجأ الى ابيه ويطلب منه ان يعقد له على ارينب ؟... ألا يسخر أبوه منه وقد فكر في نزوات هواه فيما يشيد ابوه دولة تبز دولة القياصرة سادة المشرق والمغرب؟... ولكن قلبه ابى عليه ان يتهيب الموقف . قال : افعل ، افعل يا رفيق !

— أ أقول له يزيد يهيم بارينب بنت اسحاق وقد جاءك خاطباً لها ؟

— قل ما شئت على ان تكفيني اوجاعي !

— وادعوه ليعقد لك عليها ؟

— انت مخيّر في ما تعلن يا رفيق. اريد ارينب بنت اسحاق بجانبي وهذا حسبي !

— اذاً طب قلباً. ظفرت بالطلبة. ارينب لك. لا اريد ان اراك على كمدة!

— وما حيلتك في المصاب بهناءته وصفوه يا رفيق ؟

— انت في الغضّ من العمر . والحياة على مطلق ملذاتها ملك يدك . فلا تبح للالم منفذاً الى كبدك يرضها ويسقمها !

فاطرق ملتاعاً . اذوى نضرته حب وبيل . قال الوصيف : سأدخل الساعة على امير المؤمنين احمل اليه ابريق القهوة. ومن عادته ان يمازحني كلما مثلت بين يديه ، وان يستوضحني شؤون الدولة وما يتحدث به عنه الناس . فكأني له نجيّ امين . وسأفاجئه بأمرك وانا اعلم ما ينطوي لك عليه من ايثار . فانت لديه الحبيب الصفي . العالم في كفة ويزيد في كفة. انك لعلى ضلة وانت تسيء الظن بابيك !

— ولكنه يتجاهلني يا رقيق !

— أيتجاهلك من يدعوك اليه لتشاطره الرأي وتقاسمه التدبير ؟... جاوزت في التجني كل مدى . اني لاشفق منك على امير المؤمنين !

وانصرف عنه الى ابريق القهوة يعده ليدخل به على معاوية . ومعاوية يستطيب القهوة الصبوح تنضح بالمرارة . فحملها اليه رقيق تغلي وتفور . وانحنى بين يديه يقول : السلام على امير المؤمنين !

فابتسم له معاوية وقال ملاطفاً : وعليك سلام الله يا رقيق . ماذا تحمل اليّ في هذه البكرة ؟... هات . ما ترى القوم يمضغون !

فاشرق وجه رقيق ومعاوية، امير المؤمنين، يلقاه بهذا البشر الخميل . قال: دمشق على غبطة وامير المؤمنين يرعاها . وماذا تخشى وقد ابعدت عنها الفجائع وانقذتها من ابن ابي طالب يقتحمها ويستصفيها ، فينزع منها وضاءتها ويرميها بالكلوح !

— ولكن الله انقذها منه يا رقيق . علي قاتل اخي حنظلة يوم بدر، والمحرض على عثمان بن عفان المطلول الدم ، وعدو الامويين الالد . شاء هدمنا فهدمته القدرة . والله لو ادركني بنابه لابقاني رمّة !

وحسا قهوته وابتعد به عن خياله دمشق . فتمثل علياً في معركة صفين وقد ندبه للبراز فارتاع وأدبر. قال الوصيف: على ان هذه الدولة الطالعة لا تستكمل عدتها الا وقد امرعت فيها المسرات . ولقد زان الله امير المؤمنين بالبنين فما يمنع ان يبتهج بالحفدة ؟

فضحك معاوية وقال : وهل رأيتني اقف بيزيد وعبدالله عن الزواج ؟

ـ ولكنك لا تدعوهما اليه ؟

ـ أأدعوهما الى ما ليس لهما فيه شهوة ؟ ... ان يزيد لعلى ارتواء وقد بات قصر الخلافة ميدان لهوه. يأثم ولا يخجل مني. انها لاستطالة لو بدرت من اعز من عندي لهدمت عليه القصر باسافله واعاليه. ولكنه يزيد ، نبضة القلب ومستقر الحشاشة ، فتحمّلت بغيه على مضض. وهو لو جاءني في طلبة الزواج لزففت اليه اروع فتاة في دنيا المسلمين . الا انه على اكتفاء . فالغواني ملء راحتيه !

وانتفض معاوية بغصة الالم . ابنه ومعقد امله يفني ايامه في المعصية وليس يرتد عن حرام . ولم يكن رقيق بالمتواني عن السانحة وقد عرضت له. فانتهزها يقول : أتزف اليه من تشتهي نفسه ولا تحجم عن تلبية ؟

فصاح : أأعاند ابني في من يهوى يا رقيق ؟... ليصارحني باسم من تنغش في خاطره لاعقد له عليها الساعة . على ان يحتشم في الاصطفاء . فلا يهوي عن مكانته وهو ابن سيد وحفيد سادة ملكوا الامر في الجاهلية والاسلام !

ـ لا احسبه يتسفل في الاختيار يا امير المؤمنين !

وابتسم رقيق . وابتسامته اوضحت لمعاوية ان يزيد ورقيقاً على اتفاق في استدراجه الى امر مقدور . فهل يقيم يزيد على هوى نضيج ؟... قال معاوية

وهو يمضي في حسو قهوته ، دون اكتراث ، لئلا يثير الرهبة في نفس رقيق فيمسك عن الايضاح : وعلى من استقر رأي يزيد ؟

فاعلن الوصيف: على من ترى فيها دمشق نور عينيها وموئل سناها ،على ارينب بنت اسحاق !

فسدد معاوية الى الوصيف عينين اتسعتا على استفهام ملحاح .فقال رقيق: يزيد هائم بارينب يا امير المؤمنين . والفتاة من قريش، اصيلة النسب ، كريمة النجار . فاذا رأى مولاي ان يشفي نفس فتاه منها فقد ضمن ليزيد الغد الشهي !

فلم يجب ابن ابي سفيان وقد ضنّ ببيانه . على ان رقيقاً ود جلاء اليقين فقال : ألا تقع ارينب موضع الرضا من امير المؤمنين ؟

— وكيف لا ارضى عنها يا رقيق وهي منا وفينا ؟ ... نسب راسخ المنبت على حسن وازن البشاشة . انها لتليق بنا ، وستكون لنا . يزيد اجاد الاختيار . ابلغه اني مؤيد له في مطلبه . ارينب لن يعقد عليها لسواه !

ونهض معاوية يرتدي ثيابه وقد حرص فيها على الاناقة الوارفة . فتعمد الاقتداء بالقياصرة في فخفخة الملك ورواء السلطان.وخرج رقيق على جناحين الى يزيد المقيم على ذهوله في شرفة حجرته كأنه لا يرجو من ابيه التفاتاً اليه. فعاد رقيق يهزه صائحاً به : يزيد ، ابشر بطيب سلامة . ابوك سيزف اليك ارينب . رقيق لا يعلن الوعد الا ويشفعه بالانجاز !

فانتشله من الوهدة واعاد اليه الامل بعد قنوط . قال والبسمة عرفت طريقها الى محياه الاصفر كتلك الورقات الكئيبة الهاوية عن اغصانها في بساتين دمشق : أصحيح يا رقيق ؟

فانتشى الوصيف بفوزه وقال بصوت يمور بالدعوى: وهل سمعت رقيقاً يحدثك حديث بهتان وزور ؟

– انك لتعيد اليّ الانس ، بل الروح . فماذا كان من ابي ؟

– كان ان اصغى الى روايتي وايدك في ما اصطفيت واثنى على ارينب الثناء المعطار !

– هل رضي عني وعنها ؟

– عاهدني على ان تكون لك ارينب دون سواك .قال : « ليطب قلباً يزيد . لبانته سنقضيها.ارينب ذات محتد اثير.فلن يذهب زفافها اليه بعريض جاهه ورفيع مثواه ! ». ودفعني اليك كي ابلغك مساندته اياك في مبتغاك !

– انك لصديق نقي المودة يا رقيق. لن ينام يزيد بن معاوية عن ثوابك وقد توليت خدمته بهمة نصوح !

واشرقت في عينه الدنيا . ارينب له . لن يلقى منها وقد وعده بها ابوه ذلك الاعراض المقيت.فما اجمل العيش وقد اينعت فيه علالات المنى الصباح!

٥

قضى علي بن ابي طالب بسيف ابن ملجم، غير ان انصار علي وشيعته ابوا ان يقضى على الهاشميين بانهيار الدعامة وزيغان القطب . فاحتشدوا في الكوفة ينادون بالحسن بن علي خليفة عليهم . وبايعوه بنخوة الغيور على استبقاء السلطان ، وحماسة المتعصب للحق الاثيل. مات امير فقام امير . وبلغ النبأ معاوية فعض شفته جزعاً. نجا من ملمة ليقع في ملمة قد تكون ادهى وأمض

ونادى اليه الضحاك بن قيس الفهري يكشف له عن غمته. قال: لا نبوح على اوجاعنا يا ضحاك . ما طربنا حتى اكتأبنا . مات علي فصفق الحسن بجناحيه . كفاني القدر شر الاب فمن لي يكفيني شر الابن ؟

وتكلم برزانة السيد ودهاء الحكيم . ونظر اليه الضحاك يستجلي بريق عينيه ليدرك مرماه فاذا عيناه على جمود لا تبوحان بسره . فقال الضحاك : أتروم فيه امراً ؟

ـ اروم فيه النجاة منه !

ـ النجاة منه بمحوه ؟

فابتسم معاوية. فكأن الضحاك يقرأ منه في قلبه. قال : حزرت يا ابن قيس. قد يكون الحسن دون ابيه رجولة وخطراً ، الا انه عقبة . والخلافة ان لم تقبض عليها بيميني من قرطها حتى خلخالها فلست سيف العرب الضارب في اقفية اعلاج الروم ولا اميراً على المؤمنين !

— أترشقه بابن ملجم آخر ؟

فانطبقت اهداب معاوية حتى كادت تتعاقد في زوايا عينيه. فهو يسأل نفسه عما يفضي به الى الضحاك الرهيب النظرة ، الاثيم الظن . قال بحذر الشفاف البصيرة : ان يدي لتعف عن الغيلة. فلست ارضى بان اجيء عدوي من ظهره وانا الحريص على المجابهة . اذا اصر الحسن على المعاندة في بيعتي وأبى التسليم باحكام مؤتمر اذرح فان بيني وبينه السيف. الخلافة باتت مبرمة المصير . فليس لاحد ان ينازعني حقي فيها !

فقال الضحاك بخبث فاضح : ولماذا تعف عن الغيلة يا معاوية وكنا نجر ذيلها في معركة صفين وننشر لواءها في اذرح ؟... اما جئنا علياً من ظهره ؟... والابن نقضي عليه كما قضينا على الاب . بالحيلة والغيلة . فالحرب خدعة . اذا مانع الحسن بن علي في البيعة فليكن موقفنا منه موقفنا من ابيه. نقتنصه كيفما طالته سيوفنا ، وننصب له من الفخاخ ما يمسي به على خطر التلاشي لدى كل خطوة !

فضحك معاوية وقد ايقن ان لا سبيل الى التقنع واخفاء البراثن في محادثة الضحاك بن قيس الفهري النبيه ، الفطين ، وقال : وكيف ترى ان نأخذه يا ضحاك ؟

— نهدده بالقتال ، فاذا كابر مشينا اليه . واذا اتفق لنا ان نفجأه بمن يزيحه عنا صدمناه بمن يدق عنقه والسلام !

فاطرق معاوية كأنه يفكر في ما يعلن الضحاك . فهو على اتفاق في المذهب وابن قيس الفهري. ولكنه شديد الحذر في الايضاح . وطال فيه اطراق متحرّز . فقال الضحاك : على ماذا عول امير المؤمنين؟

فاجاب : امهلني يا ابن قيس !

— السرعة خير الاحكام يا معاوية . اذا فسحت في ايامه نمـــا وصلب عوده وتعبت في قهره . فبادر الى النزال ، او الى الاغتيال !

قال وهو لا يزال يتردد : دعني افكر في امري !

ونهض يصرف عنه الضحاك ويدعو اليه ابنه يزيد. وكان يلقي اليه بشجوه طمعاً في رأيه المؤنس الهادي. ودلف يزيد الى ابيه وفي معتقده ان الامر تم، وان ارينب اضحت اكلة ميسورة . ووقف بين يدي معاوية وقفة المسود من السيد. فحنا رأسه وهو يقول بخشوع العبد الطائع : السلام على امير المؤمنين !

وهذا الاسراف في العظمة يغرق فيه معاوية انتهى اليه من الروم سادة دمشق قبل المسلمين . فالفخفخة عادة متأصلة في دورهم وبلاطهم . ومعـاوية شاء الاقتداء بمن سبقوه في البذخ والابهة فاقام لنفسه عرشاً . ووقف ببابه الحجاب والخدم . وكان موكبه اذا سار في الارض يحفل بالحرس يمشون امامه ووراءه . وليس لمن يبغي الدخول عليه ان يجلس فوراً اليه . فلا بد من الاستئذان والانتظار قبل المثول بين يدي الخليفة . ولا بد من الانحناء في حضرته دليل الخضوع والاجلال . وما شذ عن النهج المرسوم حتى اخوة الخليفة وبنوه . وتلك الدالة في مجالسة سيد القوم ، خليفة الرسول ، مضى اوانها . فالروم والفرس رموا العرب بدائهم وانسلوا . واول من انتقلت اليه العدوى معاوية بن ابي سفيان

والتفت معاوية الى ابنه يقول : جئت يا يزيد ؟... دعوتك كي استشيرك في امر الحسن بن علي . موقفه يقلقني . بايعه العراق واقامه لي منافساً . فماذا ترى في الخلاص من الملمة الطارئة ؟

فخاب يزيد في الامنية . رقب ان يحدثه ابوه عن اريب فاذا به يحدثه عن الحسن بن علي . بيد انه اخفى مضضه وقال : أيريد امير المؤمنين سحق رأس الافعى ؟

– هذا مبغاي يا يزيد . سحق الرأس لا الاكتفاء بقطع الذنب !

– اذاً على امير المؤمنين ان يمشي الى الكوفة !

– ونقصي عنها الحسن ؟

– لا بد من البطش العاجل بابن علي . وليس لامير المؤمنين ان يخشى الخذلان . فالابن لا يملك منعة الاب . جيشه على اضطراب . ومكانته دون مكانة ابيه . والكوفة ، موئله ، خذلت علياً ، ومن المحال ان تعتصم بامانتها للابن اكثر منها للاب . فلا بد ان تنفض منه يدها وقد جرّته الى المهلكة . اضرب ولا تبال . انت سيد الموقف وفارس الميدان !

– أيقيم يزيد في رأيه على اقتناع ؟

– على اقتناع ورسوخ . فالحسن اشبه بابيه ، في اخبث جند وانكد حال . ولا يغرك من الكوفة عهدها ، فهو خالب ، ولا وعدها وهي منه في مواربة الكاذب . فالكوفيون طوال الالسن ، ولكنهم قصار الايدي . يضرمونها حامية ، ولكن ليشهدوها من بعيد لا ليكتووا بنارها . ميثاقهم مبطن بالغدر . ويمينهم رئاء ومكر . فليرهف امير المؤمنين نصلته وليسددها اليهم ، فانهم لصرعاه قبل ان يرنّ في آذانهم سهمه . ما عرفت كالكوفي مهذاراً ، جباناً . يدعي البطولة وتخونه في مستهل الطريق رجلاه !

– لنضرب اذاً يا بنيّ !

– اضرب والنصر في خدمتك يا امير المؤمنين !

– وما يكون من الحسن ؟

– يكون منه ان يقبل اليك مستجيراً وقد انتثر من حوله اصحابه . ولا بأس عليك ان تجيره . ولكن الى حين !

– أأطلقه وقد بات في قبضتي ؟

– لن يفلت من هذه القبضة . فهو اسيرهـا . وانه ليهب لك نفسه في استسلامه اليك . وعليك ان تبدو حياله في كرم المغيث. فلا تضرب عنقه، بل تكرم وجهه وتميل عليه حادباً رفيقاً . وتمضي الايام على امتداح خلقك السميح وحلمك الندي . ولكن الحسن لن تطول ايامه وعندي لها شفرة باترة تذهب به كشرارة في فضاء !

– أتفتك به ؟

– افتك به وانا منه بريء . فلا ألطخ بدمه يدي ، ولا يبصر لي وجهاً . ولن احرض عليه عدواً وسأجعل عدوه في داره اقرب اليه من اصفى خليل !

– ويحك يا يزيد !... ماذا تقول ؟

– اقول سأقضي عليه بيده !

– وكيف ؟... زدني ايضاحاً . افصح يا مهجة ابيك !

– الافصاح في ذمة الغد. كل ما لي ان اقول اضرب ولا تخش . منافسك دونك . انت الراجح الكفة !

فبلغت الغبطة من معاوية مبلغ الهوس . فنزع منه وقار الخلافة واقبل على يزيد يضمه الى صـدره و يقبله بشره وهو يقول : ذنوبك تلقى مغفرتي حين اصغي الى رأيك ومشورتك . فانت ذو تدبير سويّ . حدثني رقيق عن هواك وسأخطب لك ارينب طلبتك، ولكن بعد الظفر بالحسن بن علي . سأدفع الى

مناوأته جيوشي . فالخلافة لنا ، لبني امية سادة قريش وقادة العرب الاقحاح . وارينب منا . فلن يزحمك فيها احد . كن على صفو ودعة !

ونادى حاجبه : اين قادة جيوشي ؟

فاقبلوا في جلال ونخوة . فوقف فيهم معاوية خطيباً يقول بلهجة ذي السلطان : دعوتكم لامر من الخطورة على قدر . الحسن بن علي يجاذبني الخلافة وقد اقرني عليها المسلمون وبذلت لها وسعي ، فشدوا اليه اعنة خيولكم وانزلوا به عن دعوى الافتراء وصبوة الطماح . اريدكم على كسر شوكته وجرّه الينا على استخذاء . لا ترحموا فيه ضعفاً ولا تسايروا صاحب شفاعة . من ناوأنا في حقنا ليس له عندنا ثواب . منذ غد اعدوا العدة وازحفوا بعد اسبوع الى الكوفة واعتمدوا الله . اني لارقب عودتكم وفي أيمانكم ألوية النصر !

فما عارضوا ، بل انحنوا وايديهم تضغط مقابض السيوف على جذل وارتياح . فقد خافوا ان يعلوهم الصدأ بعد طول سكون . ونظر اليهم معاوية في انحناءتهم الحازمة وخطوهم العارم . وشف محياه عن بسمة تفاخر الزمن بالقدرة . فالحظ خادمه . واستبقى يزيد يبغي ان يستل منه مكنون سره . قال وعيناه ترتدّان الى فتاه : أرأيت كيف يدينون لمشيئتي يا يزيد ؟ ... قلت فأذعنوا . كنت اريدك في طليعتهم تضرب بيدك عدو البيت الاموي . فعلينا ان نتولى امرنا بانفسنا فنكون ابداً السادة ، في الحكم وفي ميدان الكفاح . لقد علونا الناس بحسن تدبيرنا قبل ان نبزهم بسيوفنا . ولكن الزمن مديد ، وانت ذو اقدام ورأي . ألا حدثني بما تضمر للحسن وقد خذلناه . فاني اقرأ في عينيك مكيدة ليلاء !

وادناه منه يلاطفه ويلامس خده . فقال يزيد : الامور مرهونة باوقاتها

يا امير المؤمنين !

فقال معاوية مستدرجاً : لا عليك اذا شفيت فضولي النهيم . سرك يبقى في حرزه . أتخشى عليه من ابيك ؟

فثقلت شفتا يزيد تترددان في الابانة . وخجل الفتى من نفسه كأن ما سيفضي به ذلة. فاستحثه معاوية بضراعة اللهيف: هلا ارويت ظمأي يا يزيد؟

فتصاعدت من فمه الكلمات واجمة مطرقة كأنها تجر ذيل الفضيحة .

قال : اتاني عن امرأة الحسن ، جعدة بنت الاشعث الكندي، حديث !

فتكشف السر لمعاوية وشعت في ناظريه البسمة .وطفحت اساريره اعجاباً بابنه ، بل سرّه ان يقوى على استغلال هذا الابن لمجده وسؤدده كما استغل الاسلام ، وزعامة ابيه في قريش ، ورجولة اخيه يزيد بن ابي سفيان اول من ولي دمشق في فتوح المسلمين . قال والغبطة تنبض في مقاله : ايه يا يزيد ، وماذا اتاك عن جعدة؟

ـ ناشز، فارك، ليست تطيق الحسن وهو في بحبوحة الكهولة وهي في نضرة الفتوة. وقد ذُكرت في مسمعها فتولاها حنين : قالت : « يزيد ريحانة بليلة يملأ عطرها الحياشيم ! »

فامتد بمعاوية الفكر الى آفاق يتناهى بعدها . ونظر الى ابنه نظرة لا تبرح تمور بنزعة الاستغلال وقد عقد على كلمات جعدة في يزيد طرفاً من مكيدة يفتل حبالها . قال : ان يكن هذا رأيها فيك فماذا تنوي فيها؟

فدب النشاط الى صدر يزيد وقال بفورة من حماسة : سأدعوها الى القضاء عليه بان تدس له السم !

فتعاظم اعجاب معاوية بابنه . وما تماسك ان يعود الى ضمه وهو يقول :

يزيد ، انت جدير بخلافة المسلمين بعد ابيك يا قرة عين ابيك . فانك لعلى اصالة رأي وسداد مسعى . صن نبلتك بين اضالعك حتى يأزف الموعد . سنكون بحاجة اليك اذا ابقت حرابنا على ابن علي . فنغري جعدة بدم الحسن . وسوف ترديه !

ومع هيام معاوية بالخدعة ، ورغبته في امتلاك المسلمين بالحيلة، فقد اعتزم المسير الى الكوفة بخيله ورجله . فلم يكن يرهب الحسن مثله علياً . فالحسن غير مجرب في الامور كأبيه . ثم ان هؤلاء الملتفين حوله ينصرونه بمقدار . فاذا لاح لهم منه انه على كبوة ، بل على وهم من كبوة ، اشاحوا عنه وانكروه

وزحف جند معاوية الى الكوفة يروم نشر اللواء الاموي الابيض على عرصاتها ومغانيها . وطنّ النبأ في مسمع الحسن فعقد لقيس بن سعد بن عبادة على اثني عشر الف مقاتل وجبه به الجيش الاموي . ولكن هؤلاء المنطلقين الى مقاتلة جند معاوية لا يكادون يتماسكون هولاً ورعباً . فهم يسيرون الى القتال على كره وسهوم . فان من يقاتلون يرعبهم بحوله وطوله وقد عرفوا كيف اغتصب الخلافة من علي بن ابي طالب، حتى انهم اتهموه باغتيال علي وقد حرض عليه في زعمهم ابن ملجم . فالثقة بالغلبة افلتت منهم وهم يشدون الرحال الى المعترك ، بل قبل ان يشدوا اليه الرحال . وما اصطدموا بجند معاوية وشاع فيهم ان قيساً قائدهم أُصيب فقضى حتى تناثروا على ادبار لا يدرون كيف يطيرون في فرارهم الزريّ

ونهبوا كل ما طالت ايديهم من ارزاق جيشهم واموالهم . وما عفّوا عن الحسن نفسه وهم اعوانه وانصاره . فوثبوا على سرادقه ينهبونه . فاعترض الحسن

فطعنوه بالخنجر في بطنه وجدلوه يتضرج بدمه . فراعت الخزيـــة ابن علي وصاح: ايها الانكاس ، غدركم بي اشد عليّ من غدركم بابي . لو لم اكن خفيف الحلم لاقمت منكم على ريبة . ولكني آمنت باخلاصكم وانتم المنافقون الاثمة . لا بارك الله في اهلي واولادي اذا عدت الى الثقة بامثالكم المهازيل ، بل اذا ملكتني ذرة من الثقة بقوم لا يرسخون في دين ولا يعصمهم يقين !

ودعا بنفر من خلّص اعوانه فرفعوه على جواده وعادوا به الى الكوفة. وقبضت يمين معاوية على ناصية الامر في الدولة الطالعة واورق عود الامويين. كل عقبة زالت وكل صعب هان . فلم يبق في المضمار منافس . ووثب ابو عبد الرحمن الى الكوفة بطلعته الوقور وسماحه الرخيّ . واقبلت الوفود تنحني بين يديه وتسلم عليه بالخلافة . ومشى اليه الحسن بن علي بنفسه يناديه: يا امير المؤمنين !

ومادت الكوفة وابن علي بن ابي طالب يبايع معاوية . واتقد صدر كل من تشيع لعلي بالنقمة الحمراء العين ، البارزة المخلب . أينقض ابن الامام بيعة كتبها له العراق بدمه وانزلها منه في عنقه ؟... ومعاوية هذا مبغاه . فمال على الحسن يعانقه كأنه يلقى يزيد ابنه . وقال من شهد الصفقة: غبن مفضوح. ثعبان ينفث السم في نعجة !

واشرق محيا ابن ابي سفيان . فقد شفي من الغصة وعذبت لياليه المراض. فهو السيد ولا شريك في السؤدد . قال مداجياً : نحن فروع دوحة واحدة يا ابن علي. جمعتنا قريش وضمتنا العلياء في حزمة وزادتنا النبوّة مودة وقربى. والله انك لمن نفسي في منزلة يزيد ابني . وما نحن في الاسلام سوى دعائم نصرته . وهيهات ان ترجح دعامة على دعامة سواء انتهى اليّ الامر او

ملكته يمناك . وهذه الخلافة لك من بعدي . اعاهدك عليها عهد الصادق الحفاظ . فلن اخلعها من جيدي الا لارصع بها نحرك . فعلام الخصومة والعداء؟

وتفنن في المصانعة وهو يملك منها الزمام . وومض دهاؤه فبهر واعمى وطاول السحاب . فركن اليه حتى من اقام منه على كره وقلى . غير انه وهو يعد الحسن بالخلافة نغشت في خاطره مكيدة ابنه يزيد ، فابتسم لها قلبه وافاض بالوعود لا يخشى منها جسامة ولا يقف في اصطناعها عن خطورة. يزيد سيكفيه مشقة البرّ بها

وشاء ان يرى جعدة بنت الاشعث الكندي زوجة الحسن. فهي طريقه الى مأربه . وهشّ لها وبش . والقى بين يديها سني التحف . هذه من عترة الكرام الميامين . وتحدث عن يزيد ابنه بفخر واعجاب . فتى ابيّ رضيّ ، تتقد بالرجولة جوانحه وبالنوال يده . وانسابت منه الى جعدة نظرة خفية وهو يتحدث عن يزيد . فاذا بها تبلع ريقها تشهياً وتطرق في الارض . فسرّه منها هذا الهيام الصامت وايقن ان بوسعه اعتمادها . فقد لقيت الاحبولة وتداً تشد اليه . يزيد صادق في قولته ان لجعدة اليه حنيناً . فتعاظمت في معاوية نزعة الاستغلال . الاستغلال بلا رحمة ولا وجدان. سيدفع ابنه الى جعدة يستهويها وينفخ في لبها الاغراء الاثيم . ولا بأس عليه اذا هدم اسرة ومزق شيعة . فالسيادة لا تستقر في يد من يرعى ذمة ويصغي الى ضمير!

وخاطب جعدة بقوله : كم نأنس بابنة اخي في ارتيادها مغانينا . نسائي وبناتي يفتحن لها القلوب على غبطة ومسرة . حرام عليّ الطعام ان لم تكوني في قصر الخضراء في ضيافة اعمامك يا جعدة !

فتلجلجت وقد راعها بيانه . قالت وفي صوتها رعدة : ان بنا الى دمشق

لشوقاً . سنقوم اذا اسعف الزمن بارتياد رحاب امير المؤمنين !

قال : بل ارتياد رحابك ورحاب زوجك الحسن بن علي يا ابنة اخي . والله لست ارغب في ان امتلك لنفسي شبراً من الارض ولا في ان تقبض يميني على درهم الا وقد ايقنت ان لي في اهلي وفي المسلمين من يشاطرني اياهما. فما الدنيا عندي غير وهم غائم وسراب شائم. تعالوا اليّ وخذوا ما في يدي. فقد كرهت طول الثواء في الارض وتعبت بحملي . وليس احب اليّ من ان ارى حولي اهلي وعشيرتي !

وتأوه حتى اوشك ان يكفن بحسرته . ورقّ حتى كاد لا يبين على عظمته وجلاله . فتناسى كل ما كان منه في علي والحسن بن علي. هذا ليس مغتصب الخلافة من ابن عم الرسول ومن حفيد الرسول ، ولا رافع لواء الجاهلية في الاسلام وقد كانت في الجاهلية السيادة في بيته فاستعادها وللاسلام احكام وسيوف

وآمن بلوعته وزهده في الدنيا الحسن وزوجه . فخدعها ظهوره بجناح كسير وأحبّاه على صفاء طوية . وانسلخ منهما وهما يأسفان على انقضاء فترة التراضي وبث الشجون . وعاد معاوية وهو بباب الحسن يلقي على جعدة نظرته الخفية المبطنة بشهوة الاستغلال . وما تمالك ان قال في نفسه : هذه هي الضالة المنقذة من الشبح الدميم . بها ساستل انفاسه . سادعوها الى لفّ يديها على عنقه حتى لا يبقى فيه خلجة روح !

فاقبل حملًا وانصرف نمراً . ولم يكن يبالي في سبيل اطماعه العبث بكل حلال . فالسير على الاشلاء والرؤوس لاجل امنية يرومها اشبه لديه بالسير على رياحين . واندفعت اليه دمشق وهو يعود اليها غارقاً في ظفره تغنيه اجمل

انشودة صاغها ملهم رهيف الحس . فالسيادة معقودة له من طرفيها . هذا خليفة المسلمين !

وخلا فوراً بابنه يزيد . قال : اراها منك على هوى مستفيض . بلعت ريقها وانا انقدها اسمك . لا عليك اذا لهوت بها ريثما اعقد لك على ارينب. طرْ الى الكوفة واحمل اليها شبابك ومال ابيك. اراها في صبوة الى المال والشباب !

أينأى عن ارينب ؟ ... ان اباه ليريده على ما تهي به الطاقة . وادرك معاوية من تردده علته . قال : ارينب لك . فلن يقيل من ينافسك فيها وانا العهيد . اذا كتب للحسن ان يعيش فمن المحال ان تتم لنا الهناءة ووراءه في العراق مائة الف سيف . قد يجد من يزخرف له الغبن في الميثاق المعقود فينتقض علينا وتطولنا في قهره الصعاب . وربما غلبنا على امرنا . اسرع الى الكوفة وجاهد في سبيل ابيك . فلن يكون ابن علي خليفة لي وانت اولى منه بالمقام المنيف . ساعقد لك على ارينب والخلافة معاً . اين وثبتك الى اقتناص البغيتين ؟

ولم يكن من الطاعة بد . ابوه دعا وعليه ان يجيب . وامتطى جواده يزحف به الى الكوفة وقد ختم على ارينب فؤاده . انه ليبغي جعدة ولكن روحه عند قدمي ارينب تسيل . فيا للسياسة ما اظلمها في حكمها السقيم !... سيخدع ويخادع ويستميل اليه قلباً بخالب الوعد ثم يسلوه ، فهل كان يرضى ان يبلى بمن يمثل حياله هذا الدور الماكر الكذوب ؟

ولكنها مشيئة ابيه الغلاّبة ، ولكنه الوعد بارينب ، ولكنه بنيان دولة أيّدة رحبة . وحط رحاله في الكوفة اشعث اغبر ، تشف طلعته عن الجد

والهمة . فهو عاشق متكلف يتصنع الحب والصبابة . فما حبه سوى خدمة لمصلحة . ولو استطاع الى ارينب سبيلاً لكان موقفه منها موقف الطبع الصادق والحس الامين ، ولانجلت عن اساريره هذه الغمرة وقد اتعبته فيها رصانة مشدودة الاطناب ، مكرهة الاعنة . فكأنه اقبل لعقد ميثاق ببنود وفصول لا لاطلاق عاطفته على مداها ، تغني تارة ، وتتأوه طوراً ، وتنضح بما تذخر من شوق ومرح وشجو وانين

ودرت الكوفة ان يزيد فيها فعلاها استفهام واقلقتها ريبة . ماذا حمل ابن معاوية على هبوط قاعدة الهاشميين ؟ ... وعقدت الحلقات تتبادل الرأي وتستوضح الحافز . وهاج في بعض الصدور حنين الى ابن الخليفة الفتى . وتحدثت نساء الكوفة عن يزيد التبع المعشاق واقاصيصه باتت لحمة مجالسهن وسداها . وشاق المنطويات على فضول ان يبصرن ابن امير المؤمنين ويعرفن الهائم المتفاني غراماً . وسألن عن مقره ومجال غدوته وروحته . فكن يقفن الى النوافذ والكوى وثقوب النوافذ والكوى ينظرن منها اليه في اجتيازه الساحات والازقة . وتناقضت فيه آراؤهن . على ان فتوّته شفعت فيه لدى اشدهن بغضاً له ومقتاً . فهو في عمر الزهر الفوّاح ، الوضاء الجلوة

واقبل على جعدة بنت الاشعث الكندي من يبلغها ان ليزيد هوى فيها . فاستعذبت النبأ وراقها ان تلقي اليه سمعها مستبشرة مستزيدة . ابن امير المؤمنين يهواها . وتولاها دلّ جموح . فهي مشتهى من قال فيه معاوية انه فتى رضيّ ابي . ولم تمانع بعد لأي وتسويف في لقاء تجالس فيه يزيد . قالت : دعاني اليه فلن اخيب له امنية . واي عار على امرأة خليفة في لقاء ابن خليفة ولن تأثم وتهوي الى معصية ؟

وبدا امامها يزيد على شوق لهيف. قال : صدق من حدثنا عنك يا جعدة، فانك لفي قسامة وأرفة تفضح سنا الصبح الابلج . ياقوتة متأججة اللألاء . فما اشهى وما اغلى !

ويزيد شاعر الطبع والفطرة . تنقاد اليه المعاني على رضا ومسالمة . فلا يكدح في استلالها . وخضب الخجل وجنتي جعدة. قالت وهي في اطراقة المرتبك في ما أثقل به من اعباء الاطراء والمديح : بابي انت وامي ، لقد بدا لك مني ما لا اراني في بعضه . ولست ادري أتفزح ام تستهين ؟

فقال منكراً عليها ارتيابها باعجابه بوسامتها : والله لست بالمخاتل ولا الهازل . جاءني عنك انك في عنفوان الروعة فراقني ان اقع على الحسن في متناهي امده . واذا ما يختلج في عيني يكسف ما نبر في اذني . دمية لعوب وغادة طروب . ان الحسن بن علي لفي متعة من دنياه تعصمه في دينه . ليت لي بعض هذه النعمة اتقي بها جفاف حظي المنكود ؟

فصاحت متعجبة : أتنعى نفسك يا ابن معاوية والخلافة في عنق ابيك ، والسيادة في الاسلام معقود لكم لواؤها ، والعالم من اقصاه الى اقصاه يؤدي اليكم جزية الطاعة ؟... ربي، هذا كفر وجشع . رفقاً اللهم بعبادك الطماعين !

فانطلقت منه ضحكة كئيبة وقال بصوت حزين: ما اسرعك في الارتياب بما يطرق اذنيك يا جعدة . والله لست ارائي ولا اداجي. في نفسي من السأم والملل ما لو وقع على جبل لانهار . فلست من دنياي على غبطة وانا فيها غريب كأني في عزلة . أتبصرين بذاك الحشد بباب ابي ، وبتلك النعمة الغارق فيها معاوية ؟... يميناً ، اني من كل ما حولي لفي صحراء جديب . بحثت

فلم اجد ، وامعنت في الطواف فما كنت لاهتدي !

فراعها منه هذا التبرم بالحياة . فتى في مستهل الشباب يزهد في دنيـــاه . ومن هو ؟ ... ابن معاوية بن ابي سفيان سيد البدو والحضر ، القابضة يمناه على دولة طأطأ لها الجبابرة هاماتهم صاغرين . فتى يحسده على نعمته من باتت النعمة قلادة في جيده . وعادت جعدة الى ارتباكها وقد رانت عليها حيرة كابسة . بماذا تسمع؟...يزيد يشكو زمنه وليس في المسلمين من يلهو كيزيد وهو يقضي ايامه في الصيد والقنص ، ويحسو الخمرة ، ويشره الى الحسان . اذاً اين السعادة ؟ ... هذه الضالة من يدركها ويرتع في ظلها الانيس ؟

والتفتت جعدة الى نفسها . ولاح لها مما هي فيه انها تتعـادل ويزيد في جفوة الزمن . فهي مثله لا تقيم من يومها على رضا . وفيما تتعجب من يزيد كيف ينعى نفسه ساورها نعي نفسها . كانت الخلافة في دارها فنأت عنها . ولمع السؤدد في يمين زوجها الحسن بن علي فما لبث ان خبا منه النور . ومشى الناس في طاعة هذا الزوج فاذا بهم يميلون عنه وينـاكرونه . وهي ، هي ، غير راضية عن كهولة الحسن وقد قعدت به الهمة وفارقه الشباب . واستيقظت فيها انوثتها المخصاب فوجمت . ليست من دهرها على نصفة . وارتفعت عيناها الى يزيد تتأملانه فاذا به على نضرة . شباب ذو مضـاء وعين حادة النظر ، سريعة اللفتة . ألا يكون اهتدى اليها وهو يحدثها عن كآبته ووحشته ؟... قال يزيد : أتلومين وانا احسد الحسن فيك ؟ ... والله لو كنت موقناً ان لي منك نصيباً لوقفت عليك شبابي ومقامي ولعدلت بك الدنيـا والآخرة !

فهزها ودفعها الى القول بحدة : أتكفر يا ابن معاوية ؟

ــ لا والله ، ما انا بالكفـور ، الا اني ادركت بك وطري وبلغت

مرجاي . ولكن ... ولكن لا امل لي بك يا جعدة !

ورقب ما تعلن . فلم تتحرك لها شفة . قال · أأستطيع ان اعقد عليك المنى ؟... الشباب عندي ، والمال عندي، والجاه عندي . فما نبا عن الحسن موفور في يزيد . ما قولك اذا ناديتِ بالعصيان وبالهجران ؟

فلم تعترض ولم تؤيد بل اقامت في موقف غلب عليه التفكير . قال يزيد وقد وضح له من صمتها انها راضية عما تسمع : أيقوى الحسن على نفحك بحفنات الذهب؟...لا والله، فهو قاصر عن العطية . واذا استطاع فلن يفعل . اما انا، وقد نزلت من نفسي منزلة الاكبار، فحلال لك مالي وحالي . فماذا تقولين ؟

فغصت بريقها . قال وقد امتدت يده الى جيبه وخرجت بصرّة وارمة: اليك بهذا المال . فهو دون قدرك . على انك اذا اجبتني الى رغبتي فيك نلت مني اضعافه . فما يزيد بالجعد اليد كما تعلمين !

ونهض اليها يلقي بين يديها صرة المال . فتمتمت شفتاها : لا ،لا يا يزيد!

قال : هذا بعض ما ستنالين من يزيد . واليك بهذه الدمالج . فهي دون معصمك اشراقاً . فكل ما سوف يهدي اليك يزيد لا يتكافأ ومكانتك السامقة!

وانتزع من عبه لفة تنطوي على دمالج من الذهب تولى بنفسه تزيين معصمي جعدة بها . فاشتعلت خجلاً كما طفحت نفسها مسرة . وشعرت بيده تلامس يدها فالتهبت جوى ووجداً والقت على يزيد نظرة تسيل حباً . قال: بيت مال الخلافة باجمعه لك ، وفوق بيت المال ابن الخليفة يزيد !

فارتعشت هياماً . لقد ملك قلبها باريحيته وكياسته وشبابه . قال وهو ماضٍ الى هدفه : عليك الآن بالخلاص من الحسن ، بل اريد زوالاً لا يشعر به احد ان لي في سلخك من زوجك يداً !

فارتجف قلبها وهو يحدثها عن هذا الزوال وانقلبت ملامحها . عهد ابيه مليء بالاغتيال الخفي .فكل من نقم عليه معاوية وما استطاع فيه كفاحاً سقاه السم . أيحاول يزيد ان يحثها على قتل زوجها الحسن بسم معاوية؟... قالت بارتياع : ننجو منه ؟... وكيف ؟

— باختطاف انفاسه !

فاعولت : لا !

وكادت ترميه بالمال والدمالج. فابتسم وقال : أتخشين ؟... ولكنك لا تدرين اي علاج نحاول فيه . سندس له السم فيموت دون ان يشعر الناس بانه ضحية !

فعادت الى اعوالها بنبرة امضى : لا ، لا !

فقال يزيد بلهجة الآمر المطاع : لا تعاندي . يزيد يرجح على الحسن في سلطانه ونضرته . واريدك ان تعلمي ان قصر الخضراء بانتظارك ، وان لك من خزانة ابي مائة الف درهم !

فملكها الاضطراب ولم تقو على جواب . هزها يزيد حتى باتت في بحران ارتج به عليها . فهي جاثمة في مقعدها لا تطيق كلاماً ولا حراكا . ولم تكن تطيعها عيناها في لفتة الى يزيد . فهي في ذهول وغفلة وقد غاصت في عرقها البارد كأنها تغتسل في حوض . فقال ابن معاوية: على م َعولت؟

وعلى ماذا عولت وهي حين ترى يزيد تكره الحسن ، وعندما تلوح لها الجريمة تكره يزيد ؟... قال : ألا تكفيك مائة الف درهم تنالينها من هذه اليد ؟... هذا طمع فاضح يا ابنة عمي . لا تنسي ان يزيد مضمون لك . فو في قبضتك قبل تلك البدر المتهادية الى مثواك !

فتمتمت : ولكني لن اقتل الحسن !

فصاح : اقتليه ودمه في عنقي . انت في عنفوان الفتوّة وهو على عتبة الخمسين . وقد يكون اجتازها . وما النفع من ابن خمسين يا جعدة ؟... قولي ، بربك ، ألا تبيعينه بي ؟... لن تكوني مغبونة الصفقة في يزيد !

وابتسم . والموقف يدعوه الى البسمة . فهو في تمثيل دور ذي خطر ووزن اضحى به لا يقوى على الرجعة . فعليه ان يستميل جعدة بكل ما تطول يده ويتسع له بيانه ، والا اخفق على ناحيتين وكتبت له الفضيحة في المسلمين . فتجفوه جعدة ويعيش الحسن ، وقد تذيع سره فتنزع منه ومن ابيه ثقة بني قومه . فلن يجدا من يؤمن بهما في وعد ولا يسايرهما في عهد. ورقب يزيد ان تتفوه ابنة الاشعث الكندي بما ينضو عن خاطرها وتنجلي به شهوتها . وتكلمت بصوت يتعثر بالهمس كأن به تتقطع انفاسها :واذا دروا بي فما يكون ؟

فراقه استيضاحها . ان فيه مسكة من رضا . قال بارتياح : ومن يدري بك ؟ ... انت في منعة من الظنة . يجوز الارتياب بكل من تجمعهم الكوفة وسمعتك في معقل حريز . لا تبالي ولا تخشي. غدك يدعوك الى نعمة ميلاء الكفة . قصر الخضراء بجلاله ينتظر اشراقك فيه . فاي دكنة هنا ، في الكوفة ، تتغلفين بها ؟

فزادها خطواً في زيغانها . الشباب والمال والمجد في خدمتها . فما عليها لو حاولت . فقد تفلح وتنجو من محبس تغيب فيه وكيفما تقلبت فلا تقع على سوى قضبان من حديد . قالت : أينقذني ابوك من الهلكة اذا شعر الحسن بمكيدتي ؟

فايقن انها باتت له . قال : أتكونين من نخوة معاوية على ريبة ؟ ... انت تسددين سهماً ناحراً الى كبد عدوه ، فهل ظهر ممن يتبوأ في دمشق سدة الخلافة انه يتعامى عن النصير ؟ ... لتغرق يمناك في الدم ومعاوية كفيل بان يجلوها لك على بياض وطهر . ليس في من تعرفين كمعاوية حرصاً على الاعوان الامناء الصادقين !

فجمدت عليه باصرتاها كأنها لا تبرح على شك في ما يعالنها . قالت وهي تستزيده توكيداً : مائة الف درهم ؟.. وانت ؟.. ورعاية ابيك ؟

ـ وقصر الخضراء ، والخلافة ، واموال المسلمين !

واغرقها في النعمة حتى اعماها . قالت وقد اطرقت على غبطة تموج بها نفسها : غلبتني على امري يا يزيد . لاحول ولا قوة الا بالله !

قال : هل رضيت وعاهدت على العمل بما تدعو اليه هناءتنا ؟

فجمجمت وهي تبتسم : رضيت !

فقال مجاهداً في اقناعها بشغفه بها : فدتك نفسي ، شفيت نهمة يزيد . بوسعي الان ان ارقد خالي البال . فقد اقلقتني زمناً يا جعدة !

وزاد في محادثتها عن هواه وقال : بقي ان نذلل العقبة ليجمع ربك الشتيتين . فالكوفة ليست مقر من ترتع في هذا البهاء الثريّ !

قالت : سأعجل في الضربة . كن قرير العين !

فقال بابتسامة تغلي بالمنى السمان : يا لساعة تستظلين فيها كنف يزيد ، وتجمعك به على خلوة متعة حلال . فلم اجد اطيب من الحب بعد شقاء ووعورة . فالنفس لا ترضى بالموفور النوال !

وزخرف ونمق . هذا ابن ابيه . وتوارى وهو على بسطة من الاعجاب بموهبته في

الأغراء . لقد وفق حيث لم يكن يرجو فلاحاً . فالحسن بن علي اضحى في ذمة الله . وابتسم يزيد . فاحس بانفاس ارينب بنت اسحاق تهيم في سمعه وتحبوه الدفء . وانطلق في ازقة الكوفة على نشوة سمحة . ابوه سيجيئه بمن اختمرت بها مهجته ونضج فؤاده . فكان يخاطب جعدة وهو يتمثل ارينب . ابنة الاشعث الكندي ليست مبتغاه ، ولكنها طريقه الى ابنة اسحاق . فهي المعبر الى ضالته ومنيته

واعتزم براح الكوفة . لتنظم جعدة مكيدتها وهو عنها بعيد الدار . فالبقاء في قاعدة الهاشميين يفضح زوجة الحسن في خدعتها . ولقيها على خلوة وافضى اليها بما ينتوي . لتضرب ضربتها وهو لها ، وقصر الخضراء مفتوح الباب للترحيب بها . فما ان يغمض الحسن عينيه ويثوي في رمسه حتى يطل يزيد بجاهه وشبابه فيطوي على جيدها ساعديه

وكانت مواعد ووعود . ودس ابن معاوية في يد جعدة السم وانصرف عن الكوفة وقد ذاع في الناس ان اباه يعدّه لولاية الرافدين . فلم يلق في قادته من يثق به كأبنه ، ذوب كبده . وما اطلع على جلوسه الى جعدة غير امرأة من الامويين معقود عليها لسيد من اقطاب الكوفة . فكانت همزة الوصل بين يزيد وجعدة . مهدت الطريق وذللت العقبة . وجهل حتى الخدم انفسهم ما يُنسج في خفية ويحاك في ليل . فتراءى لهم في جعدة امرأة من نساء الكوفة في زيارة الاموية نسيبة يزيد

والاموية نفسها لم تكن تحضر مجالس يزيد وجعدة . فهما ابداً على خلوة . وجل ما رسب في معتقدها ان ابن معاوية يهوى زوج الحسن بن علي ويروم اطلاعها على مكنون حسه . وساعدت يزيد على اقناع زوج الحسن بايثار

ابن معاوية على ابن علي . ولم تكن جعدة بحاجة الى من يحدثها عن الشباب والكهولة وهي منهما على خبره وعبرة ، وهي تستنشق في يزيد الفتوة قبل ان تراه ، وتشعر بصبوة اليه في طائر صيته ، ومستباح هواه

وانكفأ يزيد الى دمشق على بشر وغضارة يرقب من معاوية ان يبر بالوعد. حقق له مشتهاه في جعدة فليحقق له مشتهاه في ارينب . صفقة بصفقة وليس معاوية بالمغبون

وخليفة دمشق اقام بانتظار يزيد . وايقن اليقين كله ان الفتى سيعود من الرحلة على رجحان في النجح . فلن تلمّ به الخيبة . وماذا يقعد به عن الفوز بامرأة وعنده المقام والشباب والمال . وهي جل ما تنهد اليه انثى

وكان لقاء الشوق لقاء يزيد ومعاوية . شوق الاب الى الابن وشوق الفضول القلق الى النبأ الجلي الصفحة . ماذا ؟... واتقد الاستفهام في الاعين الاربع وقد عكسته عليها الحنايا . ماذا كان من معاوية في ارينب . وماذا كان من يزيد في جعدة ؟

ووقف كل من صاحبه يرقب منه الافصاح . وتكلم يزيد فقال بغبطة وارفة : اني انعاه اليك . قليلاً ويلفظ رئتيه . فقد حبكت له كفناً يدرج فيه على سكينة . وجعدة على قدر المهمة . فعاهدتني على الخلاص منه !

فخفق فؤاد معاوية خفقة المسرة التيّاهة . ادرك مبتغاه . وشاقه ان يزداد بياناً واحساساً بالنبأ المترنحة به اعطافه ، قال : وفي مقابل ماذا اوثقتها بالعهد الميمون البنود ؟

— في مقابل مائة الف درهم من اموال المسلمين !

وابتسم يزيد ابتسامة انطبعت اختها على شفتي معاوية . فالرجلان على

وحدة في الغريزة والميل ، ولكن بسيف غير سيفها ، وباموال موقوفة على المؤمنين . قال معاوية وقد سرّه هذا الدهاء في ابنه ومناط مرجاته : ثم في مقابل ماذا يا يزيد ؟

وعلت ضحكتهما . هذا مجال الخداع . وانبسطت الضحكتان على خبث مديد . فقال الابن : في مقابل ما يضمن فوز امير المؤمنين !

— في مقابل شبابك ؟ ... انها لحمقاء زوج الحسن . لن تطول بنك قلامة . أأعقد لك على خائنة ؟ ... ولكنك قد تشابه عندها ابن علي . وابوك ضنين بك . فليس يرضى بان يطرحك بين يدي من تبيعك كالسلعة . عدا ان ارينب بالانتظار !

والى هذه المحجة يطمع في الوصول يزيد . واشرق وجهه وابوه يتلفظ باسم الفتاة الغيداء . ونضر شبابه وترجح عوده ، ووثب قلبه الى شفتيه فقال : وماذا كان من ابي في فتاه ؟

فاجاب معاوية : يجري الامر كما يشتهي يزيد . ارينب في قبضتنا . ما ان تفتك جعدة بالحسن بن علي حتى تحتفل دمشق بزفاف ابنة اسحاق اليك . خذها من ابيك . فان راحتيك منها لعلى جمام . أنبغي امراً في هذه الدولة ونعود منه على خزية؟ ... ثق بحكمة معاوية وطول باعه في تدبير الامور يابهجة قلب ابيك !

ولم يكن ببالي الجمع بين يزيد وارينب مثله النجاة من شبح الحسن البغيض . فهو يتطير فرقاً من كل خصم مزاحم ، وخصوصاً ان يكن هذا الخصم من آل البيت . فالحسن بن علي يقلقه في تحدره من ابنة الرسول . فاطمة امه ، ومحمد بن عبدالله جده ، وعلي ابوه . وهذا النسب الراسخ في

الكرم والنبل يكتب الغلبة للراتع في بهرته ، المخضب بطيبه . ومعاوية وقد ذاق ابوه مرارة الهزيمة في مجاهدة آل البيت يمضه ان يلقى الهزيمة وآل البيت في الذروة الشاهقة من المجد وبعد الصوت . فما اكتفى بان يبايعه الحسن ، بل شدد في ان يتقي الخطر المهدد فينتزع حياة الحسن من جذعها ولا يبقى من ينذر بالداهية ويثير الهلع

وجعدة وحدها تكتب له الفوز . فينطفىء الحسن كشمعة كسفتها نسمة رعناء دون ان يقف على سر انطفائه احد . وجعدة آلة لاتتحرك ان لم يكن يزيد زيتها ووقودها . ولقد ظاهرت دمشق باغراء يزيد لا ببريق اموال معاوية . فالمال كان مهماز لا حافزاً ، فالحافز هيام جعدة بمكانة ابن الخليفة في شبابه وقدره

وبلغ معاوية وطره . وليس يحفل بعد ادراكه المبغى ببذل الهمة في زفاف ارينب الى يزيد . فان يزيد يلهو . وارينب لن تطير . فهي في متناول قبضة الخليفة . ليس لمعاوية الا ان يشير كي تبيت الفتاة في عصمة يزيد . بل هو شاء ان يسكت عن طلبة ابنه ريثما تدس جعدة للحسن السم النقيع . والا ان هي اقامت من الخدعة على وضح فسدت الحيلة ، وكتبت الحياة للحسن بن علي ، وانتقلت اليه بعد معاوية خلافة المسلمين . فيضيع على الامويين كل مجهود في زعامة الدولة الناشئة ، الخضلة . وليس معاوية بالراغب في هذا المصير الكئيب

وانتظر . ودعا يزيد الى التريث وكتمان السر . قال : ارينب منك قلادة في النحر . فلا تقلق . سأجرّها اليك بكلمة ، بنظرة . فلن تفلت منك . الا ان الحكمة تفرض علينا امتلاك العاطفة وكظم الشعور . فلنكن حكماء .

اذا نمي الى جعدة انك مماذق في هواهـا اعرضت عنك وابقت على الحسن انتقاماً منا . وبقاء الحسن حياً يذهب بسلطاننا ويحرمك الخلافة من بعدي. فالحذر ثم الحذر يا يزيد. ارينب ليست نوراً يلمع ثم يخبو، ولا غمامة تتبدد وتذوب!

ودعا ابنه الى الصبر نزولاً على دين المصانعة والمداجاة . فـالحسن غير طويل العمر . وصبر يزيد على سورة هواه وغليان قلبه . فالحنكة في سياسة الناس تقضي بادراع الجلد المنيع . واحرجه الحب الا انه ما انتقض على وصية ابيه مع كل ما عانى من ألم وما ساوره من قلق تهي بهما سعة الحلم . فهو عرضة ابداً لهياج الخاطر وارتباك الضمير . يثور فيه حسه المكدود ويضيق به قصر الخضراء على فسحته ، بل تضيق به دولة ابيه على متنـاهي بسطتها . ويكره دمشق وينفر منها مع قربه ممن تتربع في سويدائه، ولكن اي قرب قصيّ هو هذا الاحتجاب الدميم؟... ليته كان بعداً سحيقاً اذاً للطّف نأيه امتناعه. اما ان يكون يزيد على خطوة ممن يهوى ولا سبيل له اليها فذلك هو المقعد المقيم

وطار به هواه البرم بدنياه الى تدمر يرتمي في حضن اخواله . فما طاب له فيها المقام. وعدل عنها الى حمص يتيه في سهولها في اصطياد الظباء فما خفف القنص من حنق اعصابه . فوثب الى دير موران في الغوطة ينغمس في الخمر وفي النساء فما نجا من طيف ارينب وقد ساد نهيته ولبه . وتلظى فيها كمداده فبدت له الجهمة حتى في اصوات المغنين المتصـاعدة حوله كالتسابيح ، وفي وجوه الحسان على روائها ووسامتها . ودرى رفاقه وصحبه انه في غمة ساهمة. وزادتهم حرقة زفراته يقينـاً بانه ملسوع . فا ستوضحوه فرفّت في شفتيه بسمة باكية وصاح بالمغنين والكأس تشع في يـده : الا اطربوا ، اطربوا ، ما عاش فيها الا الخلي !

وانحدرت في جوفه كؤوس على كؤوس وتفاقم فيه عبوسه . واهاب بالمطربين الى اناشيد الهوى الجامح اليؤوس فاكثروا حتى كادت القلوب تغلّف بالسواد لفرط لهفتها. وما غاب عن احد ان يزيد عاشق غير هنيء . ولكن من يهوى يزيد فامتنع عليه ورماه بالكربة ؟ ... ان النساء ليردن زرافات على ابن معاوية ملتمسات منه نظرة ، فمن استعصت منهن عليه ؟

وسئل يزيد فما اجاب. ونام السمّار في سكرتهم وبقي ابن امير المؤمنين على يقظة وسهاد لا يأذن هواه في غمضة . ووقف على احدى الشرفات يناجي البدر المفتوح الاجفان والنجوم الساهرة ويستجلي انحباسها في ارقها : هل انت عاشقة مثلي؟

وطال مقامه في الغوطة . فهي احب اليه من دمشق الطافحة بطيب ارينب وخيالها . واعتكف على لهوه كي ينسى فلم يكن ينسى . وساءل نفسه مراراً : متى تفتك جعدة بالحسن فادفع عني هذا العناء المجتاح ؟

وصبر مكرهاً . فليس من الصبر بد. ودلف الى دمشق يتقلى بنارها ويتجسس اخبار الكوفة . ماذا وقع فيها من جليل ؟ ... وتواردت عليه الخواطر الدهم تزيد في متناهي الالم ومستعصي القلق. قد تكون جعدة عدلت عن التضحية بالحسن لاجله ، وقد تكون افتضحت في سعيها فدرى بها ابن علي واقتص منها اقتصاصاً زاجراً اضحت به عبرة

وخالجه العود الى الكوفة يستبحث ويستقصي . فقد سدت عليه في هواه الابواب . واذا انباء الكوفة تحمل الخبر المرصود . قضى الحسن ابن علي مسموماً فماج الاسلام ومادت دولته . ابن بنت الرسول يلقى حتفه. ورسخ في الاذهان ان معاوية قاتله فتعالت الاصوات تلعن ابن هند في خداعه وختله . واستدارت الكوفة حول مثوى ابن علي فسمعته يقول وهو يجود

بالحشاشة : والله ما عرفت جرعة من السم رضّتني واسقمتني كهذه الجرعة مع كل جهد بذله اعدائي في تسميمي . فقد لفظت بها كبدي حتى لاح لي منها اني اقلّبها بعود في يميني !

وغفر . فما اتهم احداً وقد حال نبله التليد دون انتقامه من ضعاف اغراهم به التواء في الطبع ونذالة في الفطرة . وتلقى قصر الخضراء في دمشق نبأ الفاجعة بالتكبير . هذه بشرى تملأ الصدور ابتهاجاً وتوطد الامل الرجراج . فالخصم العنيد ذوى واضحى معاوية سيد المسلمين الاوحد . وتمايل يزيد طرباً ودخل على ابيه بلا استئذان يقول وكل ما فيه استبشار وجذل : ادام الله بقاء امير المؤمنين . طالت دوحته وذهبت جذوعها في الارض عمقاً وامتداداً . وصانتها القدرة من كل ريح عاتية تعصف بها وتغمز ساقها . ولم يبق عرضة لمهب الزمهرير سوى فتاك يزيد . فاستر عريه لينعم بالدفء قلبه . ان هو الا صنيعتك من قبل ومن بعد !

فضحك معاوية على مسرة متوعة وقال : ما نسيناك يا يزيد . اربنب على أهبة . غداً سأخاطب لك فيها اباها وتنام هانىء الضمير !

ولكن اربنب ليست في دمشق . فقد برحتها الى العراق يصحبها ابوها . وما حملها على الرحلة ؟ ... واستوضح معاوية فسقط اليه مـــا ملأه كربة وهماً . اربنب زفت الى ابن عم لها هو عبدالله بن سلام . وناح قصر الخضراء بعد البسمة . وتأججت في يزيد غضبة الاخفاق فانزوى في حجرته ناقماً على ابيه . اهمله ابوه لارواء مطامعه واضاع عليه بهجة زمنه وسلوى شبابه . ومعاوية خجل من ابنه وقد فجعه بهواه ، فبات لا يدري كيف يعيد اليه اشراقه وطربه وهو يرى فيه وسادة الامل ، ودعامة الغد . فاذا اكتأب يزيد فقد اكتأبت الدنى وانتحبت الافلاك !

٦

جعدة في الكوفة دامعة العين . تبكي الحسن المسجى امامها وترثيه . فهو في مقولها بسمة الجنة ، الا انه في حناياها عقبة زالت من الطريق

وفيا الدمعة ترتعش في عينها كان خاطرها يحوم على يزيد . هي باكية مستبشرة . قضى الحسن ليفسح لها في نعيم خميل . ستقيم في قصر الخضراء على طلاقة وغضارة ، حولها يزيد وابو يزيد . والمسلمون طوع يمينها ، يؤدون لها الطاعة وينحنون في خدمتها . والمال ملء جيوبها . فانها منه لعلى تلال عارمة . والدر والياقوت في عصابتها وقلادتها ومعصميها وانامليها ومهوى ساقيها . والقوة عنوان لها . نجت من مهبط الغصة وتسنمت ذروة الرفاهة الوسنى . واي فضلة من دعة تمسك بها في عقلة الحسن ؟ ... فانها في داره لعلى نواح وانين . تتشهى وليست تبلغ شهوة ولا علالة من رجاء

ودفنت الحسن غير آسفة على نواه . خاطت له اكفانه وادرجته فيها وطوته في الرمس لا تكترث لنبل اثيل ، ولا لرفعة منتمى . فالنفرة من الحياة الجافية مالت بها الى ابتغاء العيش الرغيد

ورقبت ان ترد عليها من دمشق رسائل التودد والزلفى . انها لحقيقة بالشكر والثناء وقد ازاحت العقبة . بيد ان دمشق وجمت واطرقت حيال جعدة ، فما ذكرتها حتى بمساءة تدل على ان هذه المجاهدة المطواع خطرت في بال . وقلقت جعدة . وساورتها الظنون . هل ضحك منها معاوية ويزيد ؟

واوفدت الى دمشق صديقتها الاموية تدق باب معاوية وتستوضح السلوّ . ماذا جرى ؟ ... ومعاوية رحب بالاموية ، ابنة عمه ، على مدة ذراعيه : مرحباً بالاخلاص المصفّى والوفاء الروي !

وجامل ولاطف . قالت : جئت احدث امير المؤمنين ، دام بقاؤه سنداً للدين والدنيا ، عن امرأة كان لها منه وعد وزين !

فتجاهل معاوية وقال : واية امرأة تعنين يا ابنة عمي ؟ ... والله لم ينضح مقولي بوعد نمت فيه عن الانجاز !

وابتسم ابتسامة حلوة ، من تلك الابتسامات الطافحة بالاغراء ، القاطعة على الراغبين في نفث السم مجال الايلام والنهش . قالت الاموية : هل نسي امير المؤمنين جعدة بنت الاشعث بن قيس الكندي ؟

— جعدة زوج الحسن ؟ ... أتلومني وقد سهـــا عني ان اعزيها بابن فاطمة ؟ ... والله انها على جمـام من الحق في لومي . لست ادري كيف ندّ عني...

فتجرأت على مقاطعته بقولها : ليست تبغي التعزية يا امير المؤمنين !

وهو موقن كل اليقين انها لا تطمع في التعزية بل في ما هو ارجح قدراً . فانها لفي حنين الى قصر الخضراء تتصدره عـلى فخامة عريضة ، والى يزيـد ترتع في قلبه وفي حبه . الا انه ود ان يقيم مما يعلم على جهل اغلف . قال : وما تبغي اذاً ؟

— تبغي انجاز وعد يزيد !

— وعد يزيد يا ابنة عمي ، وما هو ؟ ... لست منه عـلى معرفة . اي وعد عالنها يزيد ؟

– لم توضح جليته . فكل ما ادلت به ان هناك وعداً تصر فيه على الانجاز !

– وهل خاطبت في الامر يزيد ؟... احسبه كأبيه ، لا يقف عن ابرام ما عاهد عليه !

قالت : جئت اليك كي تدعوه الى الوفاء . جعدة لم تطلب مني تذكير يزيد بما وعد ، بل دفعتني اليك لتذكير يزيد !

فنفض يديه مما يقع في اذنه وقال : انك لتحدثينني بالالغاز يا ابنة عمي. اين انا مما في صدر ابني ؟ ... على اني سأدعو يزيد لمساقطته الكلام على مسمعك . فقد يكون افضى بما غاب عن ابيه !

ونادى حاجبه يحثه على دعوة يزيد. قال : ليسرع . ان بي اليه حاجة ملحة . فلا تخطئه . جئني به حيث يكون !

وحدث الاموية عن موقف الكوفة بعد مقتل الحسن . قالت : الناس مفطورون على النسيان يا امير المؤمنين . والدنيا لمن اشرق نجمه لا لمن خبا نوره . ابقاك الله في عز مصون !

فسره ما يسمع منها واستزادها يقول : وهل خرس الناقمون ؟

– خرسوا يا امير المؤمنين. وما يسعهم ان يفعلوا وقد انهار العلم وانطوى اللواء ؟ ... ثم هم ذوو ألسنة نضناضة اكثر منهم ذوي سيوف قاطعة . وهل يرجى ممن خذلوا علياً ان ينصروا ابن علي ؟

فقال ممازحاً : انت تتكلمين كاموية يا ابنة عمي ، واريدك ان تخاطبيني كأنك كوفية خالصة النسب !

فقالت بحماسة تنفي بها عنها المماألأة : لا والله يا امير المؤمنين، ما عرضت لي

المصانعة في بال . القوم هدأت فيهم سورة الكيد . فكل ما يبغون ان يعيشوا آمنين !

واستأذن يزيد . وانحنى في حضرة ابيه يحيي بخشوع المطيع . فقال معاوية وهو يشير الى الاموية الجالسة في اسفل السدة المتربع فيها كأرباب العروش المزهوّين : أتعرف هذه الطلعة الميمونة يا يزيد ؟

فالتفت يزيد . وما لاحت له المرأة حتى هفا اليها يقول : وكيف لا اعرفها يا امير المؤمنين وهي منا وذات يد علينا ، كانت لي في الكوفة خير عون ونصير !

وتجهم وهو يذكر الكوفة . فان في الكوفة جعدة . وجعدة حالت دون ظفره بارينب . فبرح دمشق الى زوج الحسن يغريها بابن علي ، مزاحم ابيه على الخلافة . وفيما ينصب الاحبولة افلتت منه ارينب . ووقف وقد اوشك ان يدنو من الاموية ومرآها كان حافزاً موجعاً لتذكيره بخيبته العضوض . فقال معاوية : ابنة عمنا مقبلة من الكوفة لمحادثتي في وعد صارحنا به جعدة ولم ننجزه ، فاي وعد هو ؟ ... ما سمعتك تحدثني عن وعد ابرمت يا يزيد !

وانكر ما اسمعه اياه يزيد اثر عودته من الكوفة . وماتجرأ يزيد على سوى تأييد ابيه في انكاره مع كل حنقه على ابيه . قال : سها عني ابلاغ امير المؤمنين ان لجعدة من بيت مال المسلمين مائة الف درهم ، نفحتها منها بخمسة وعشرين الفاً ووعدتها بان اوافيها بما بقي فور بلوغي دمشق ، ولست ادري ما عاقني عن الوفاء !

فمال معاوية على نسيبته الاموية يقول بخبث تقمص البراءة : لم يكن

لجعدة ان تكلفك هذه المشقة يا ابنة عمي ، فما دام يزيد وعدها بالمال ،واقام مما وعد على نسيان ،فلم يكن لها الا ان تكتب اليه في ما قعد عنه. اخطأت في ايفادك الينا لمال تبغيه ، واصابت وقد أنسنا بك بعد طول قطيعة . فمرحباً بالشمل يحبو الى التئام وينتظم له عقد كميل !

قالت : ما جئت دمشق وحدي يا امير المؤمنين . فان زوجي لرفيقي اليها وله فيها شؤون . وابصرتني جعدة في القافلة فدلفت اليّ تبغي ان احدثك عنها واحدث يزيد !

فصاح بعتب المشوق : زوجك في دمشق ولا يقبل الينا ؟ ... انها لاساءة لا مغفرة فيها . فاين هو لا يطل على الخضراء فنعوضه من بعض ما له عند يزيد من فضل؟

فقال يزيد : كنت ألقى فيه خير رفيق واكرم خدين . ما ندبته لامر الا لقيته فيه على كفاية. وما حدثته في سري الا كان ذلك الحفيظ الكتوم. وان يده لتسيل ندى ، ووجهه يفيض بشراً ، فاين هو لا يبدو في رحبة امير المؤمنين ؟

قالت :من ينزل دمشق ولا يتبرك فيها براحة ابي عبد الرحمن فقد غابت عنه دمشق ، الا اني انسللت الى الخضراء دون ان يشعر بي احد حرصاً على سر جعدة وقد ألحت عليّ في ان اتحرز في البوح بما تروم استنجازه. فالعذر ناطق جهير !

فقال معاوية باسماً : انك لتزيدينني اقتناعاً بذكاء الامويين يا ابنة عمي . والله ما عرفت في سوانا هذا الدهاء الينيع !

وصفق بيديه . فاقبل حاجبه . قال : اليّ بأمين بيت المال يا سعد . ان

بنا اليه شوقاً !

وما هي الا ثوانٍ حتى كان امين بيت المال يقف كالوتد المضروب في الارض في حضرة الخليفة . فقال معاوية : احمل اليّ على عجل خمسة وسبعين الف درهم !

فدار امين بيت المال على نفسه كاللولب وتوارى بوثبة وعاد بوثبة يحمل المال بين يديه ويلقيه امام معاوية ويعود ادراجه . فقال الخليفة الاموي : لسنا نهضم حقاً يا ابنة عمي . هذا المال سينتهي الى جعدة في اقرب ما يسعف فيه الزمن . سيحمله اليها رسول امين !

وجعدة خشيت ان تحدث الاموية بما وعدها به يزيد وقد هالتها الفضيحة الجائحة . فاكتفت بان تشير الى وعد مبهم غير جلي الحروف . وهو وعد ليس يجهله يزيد . على ان جعدة شددت على الاموية في ان تخاطب به معاوية كي يعلم الخليفة ان جعدة اودت بزوجها الحسن بن علي خدمة لمعاوية نفسه . فانقذته من الخصم العنيد وذللت امامه الحائل المستحكم . ولا بد ان يذكر لها معاوية هذا الصنيع ، فلا يحول دون زفافها الى يزيد ان يكن من مانع فاصل

وجهلت ان وعد يزيد خادع . فقد لها بها ابن معاوية . قادها الى مأربه وسلاها حتى فيما يخلبها براوية شغفه بها . فآمنت وما درت انها ضحية . وانتهى اليها المال فارتجف قلبها . اين يزيد ؟ ... واستوضحت الرسول فلم يكن اعلانه ايضاحاً شافياً . وتبينت لها جوانب من الخدعة ، الا ان الرجاء ما برح سادلاً ستره . وحثت الخطو الى دمشق . ولكن ما تقول فيها الكوفة وهي تراها في وثوبها الى قاعدة معاوية ؟ ... ألا تصدق فيها التهمة الطائرة وقد شاع عنها

انها دست بيدها السم لابن الامام المظلوم ؟

وشاءت الوقوف عن الرحلة . ما عليها اذا صبرت ريثما يجف تراب الحسن ؟ ... ولكنها لم تقو على الصبر والقلق ينفخ فيها ، والخوف من الخيبة انبت لها جناحين تطير بهما الى قصر الخضراء . وشقت الفلوات الى دمشق وهي في دوار من حمى . فلم تكن تبصر ما حولها ومن حولها وقد شخصت عيناها الى مثوى الامويين. وكادت لا تذوق طعاماً قانعة من القوت بما يسعفها في النهوض على رجليها . وكلما طوت ليلة سألت السائق والحادي كم من الفراسخ والاميال تبعدها عن دمشق، وفي اي يوم تبلغ قاعدة الخلافة، وفي اي ساعة من الساعات تصل ، أفي الليل أم في النهار ؟

ويؤلمها من القافلة ان تستريح ، ومن الليل ان يرخي سدوله . ولم يكن الغمض يطرق اهدابها الا لماماً . وتنكرت فما افضت باسمها . فهي احدى نساء الكوفة المنطلقات الى اهلها في مدينة الامويين المالك فيها معاوية على تيه وعز

وها هي حاضنة بردى تلوح للعين مآذن تناطح الجو ، وقباباً مستديرة كصلعة الفلك . واتسعت بسطة البساتين تتناهى على اخضرار ونضارة . شاب الزمان وما وخطها مشيب . فهي ابنة كل عصر ووليدة كل جيل

وانسابت القافلة في الرياض الغناء والماء امامها ووراءها وعن جانبيها . وخرير النهر يعلو في الوادي كالاغنية البحاء ، واشجار الحور تتشامخ على غرور وخفة . ضعيف حسب القوة في ارتفاع القامة وتناسى وهن ساقيه. ورطبت نداوة الخمائل جبين جعدة ، فاحست الارملة المعشاق بانتعاش قواها وبيقظة ذهنها وان تكن لا تبرح على رجرجة . اضحت على خطوات من

هدفها ،فماذا سوف يكون من يزيد فيها ؟... أيدنيها منه ويتزوجها ام يخلف الوعد ويلطمها بالرثاء ؟

ورجحت فيها الخشية على الطمأنينة . يزيد لا يثبت على حال وهو الهائم بالجمال يتبعه حيث يلوح . ربما سلاها بعد عودته من الكوفة وقد خطرت امامه من تفوقها حسناً . غير انهـــا لن تقف موقف الاستخذاء . ستتكلم عالية الصوت ، صارخة النبرة . يزيد دعاها الى قتل الحسن في مقابل وعد اغراها به وهي تطمع في الانجاز . قتلت زوجها في سبيل زوج آخر وانه ليمضها ان تبيت في حرمان . فتفقد ما تملك ولا تطول ما تعلل به النفس

وذكرت دهاء معاوية فاشتد بها الخوف . ربما ذهبت ضحيـة الخداع . وتقاذفتها الامنية والخيبة فما درت اين تستقر . وعادت تندى بعرقها ويستعر صدرها وجبينها . فتناست انها في خمائل ورياض ، وسـاءلت نفسها كيف تخاطب معاوية ويزيد، باي كلام تشدد في الوفاء ولا دليل لديها على الوعد؟... انها من هذا الدليل لملساء الراحتين

وندمت على براحها الكوفة . فما يدفعها الى دمشق وليست تشهر سلاحاً تقاتل به لاحقاق حقها ؟... هل تطيعها شفتاها في الاعلان انها قتلت الحسن لتظفر بيزيد ؟... ان القوم ليضحكون منها وهي تذيع هذا البيان الفاضح، وربما اودى بها جماعة علي بن ابي طالب وقد سجّت ابن فاطمة ،بنت الرسول، على نعش غير حافلة بقدره وخطره . فقوّضت امنية جسيمة ، هدمت شيعة تجاهد في سبيل غد ازهر ، لتتذوق لعقة من هوى زنيم ... وهيهات !

وادركت انها اقبلت في حاجة تمور بالاخفاق . فالفوز شبه محال والخيبة راجحة الكفة . على انها وقد اقدمت ابت ان تتراجع . فلم يبق بينها وبين

قصر الخضراء ما يزيد على بضع دقائق من المسير . وها هو القصر على مرمى من عينيها يصفق بجناحيه كالديك العارم في مبسم الضحى . وارتجف قلبها والقصر يختلج في اغوار حدقتيها . انه لصرح انيق يتماوج فيه الزخرف كأنه قوس قزح . وما غاب عنها انه مقر معاوية وقد ساد عاصمة الامويين بشموخ ابراجه وزاهي ألوانه كأنه معاوية نفسه في المسلمين

ولم يضحك قلبها وهي تدنو من الخضراء . فالاضطراب يجري في عروقها كما تجري روافد بردى في شرايين دمشق . وألقت القافلة عصاها . فقد بلغت مرحلتها الاخيرة . هذا قلب الشام النابض وصدر الاسلام الطري العهد . ووثبت جعدة عن سنام الناقة وانسابت الى الخضراء على استخفاء . لن تبيح لعين تعرفها ان تراها . ودرج حولها سكان دمشق في ذهاب وايابٍ فلم يلفتها احد . فهي شاخصة الى الخضراء في طلب يزيد بن معاوية . ان لها عليه ديناً وهذا موعد التقاضي !

ولكن أتدري اي طريق تشق الى القصر الغضير الطلعة ؟ . . . لم يخذلها حدسها في كون هذا البنيان الفخم ، الضخم ، المعقود اللواء على عاصمة بني أمية ، هو مثوى الخليفة . الا انها ودت ان تعلم كيف تنطلق بها قدماها الى المغنى المنيف . هي في دمشق غريبة ، عاثرة القدم ، لا تهتدي وحدها الى الصعيد القويم ، فعليها ان تستوضح وتستجلي . ووقفت بجانب غلام يبيع الفاكهة على طبق من النحاس تسأله كيف الوصول الى مقر الخليفة . ونفحته بدرهم كاد يهب لها به كل ما يحمل من خوخ ومشمش . قالت : هذا لك ، لا اريد عنه بدلاً ، على ان تسير بي الى قصر معاوية !

فارشدها اليه وهو يقبل الارض بين يديها . هذا السخاء منها دعاه الى

الاعتقاد انها من اسرة امير المؤمنين ، وانها مقبلة من الحجاز او العراق . بل ان مظهرها الانيق ودلالها في خطوها اوهماه انها تتصل بامير المؤمنين بعرق راسخ مكين . قال وقد بلغ بها محجتها : هنا يقيم خليفة المسلمين ايتها الخالة!

واشار الى باب القصر . فاذا جعدة حيال صرح شامخ ، مترامي الظل ، تشرق عليه الشمس وينعكس عليه وجهها ، فتزداد به دمشق وضاءة . هذه دار جمعت بين اعمدة الروم وقناطر العرب . فالمدخل فيها عالي القبة يطاول السحاب ، عريض الفسحة كأنه يتسع لجيش . وعن جانبيه انتصب اسدان من الرخام فتحا اشداقهما كأنهما في زئير . وسال الماء في ثلاثة احواض من المرمر . وتألقت الفسيفساء بدقائقها في الجدران فبات الناظر اليها مثله امام طنافس مزركشة زاخرة بالنقش النفيس . وتعددت الابواب والاروقة . فكل باب يمتد منه رواق الى فناء تتصدره بركة يتكشف وسطها عن رمح من البلور . فالماء يفور فيها ويتصاعد كزفرات العشاق المكتوية قلوبهم بالحرقة ، فلا يجف لها معين ولا يخمد فوران

وجهلت جعدة اي باب تلج . واذا حارس يشهر السيف وينتهرها بقوله: ماذا ترومين ؟

فتعلثمت في الجواب كأن في لسانها شللاً . قال الحارس بجفوة :عودي ادراجك ما دمت لا تبغين حاجة !

ودنا منها وفي نيته ان يطردها . وخشيت ان يؤذيها فحلت عقدة نطقها وتدفقت بالقول : انا من انسباء الخليفة ، جئت امير المؤمنين من الكوفة في امر خطير ، فاين من يستأذن لي عليه ؟

فما اكترث لانتسابها الى امير المؤمنين . هذه حجة كل من يبدو بباب

معاوية . كلهم يزعم انـه يرتبط بالخليفة بصلة القربى . قـال : امير المؤمنين يقيم صلاة العصر ، فتعالي اليه غداً . انه الآن لفي شغل عن الجميع !

فلم تنصرف بل ظلت مكانها تقول بشدة : يجب ان اراه . من الضرورة القصوى ان اراه . فاني احمل اليه النبأ العظيم !

وخيل الى الحارس انها قادمة في مهمة لا تحتمل الارجاء ، فنادى رفيقاً له قائلًا : ابلغ حاجب امير المؤمنين ان بالباب امرأة تاج في المثول في حضرة الخليفة ، ففي مقولها ما ينتفض بالخطورة !

فتوارى رفيق الحارس ثم عاد وشفتاه تسألان : ومن المرأة ؟

فعز عليها الافضاء باسمها . وتضايقت من هذا النظام المحرج بباب ابن هند. لقد اخذ معاوية عن الروم الحسن والقبيح . نقل عنهم فخفختهم واحتجابهم عن الرعية . فهو يسوس بني قومه من اعماق الدهاليز . ولم يكن عن الايضاح غنية والا ظلت جعدة بالباب ليس من يحفل بها ، بل لقيت الطرد والحارس لن يأذن لها في البقاء . وتمتمت وهي تحس بضيق في حنـاياهـــا ، وبتقطع في انفاسها : أبلغ امير المؤمنين ان جعدة تلتمس منه ان يفسح لها اليه !

جعدة ! ... ما هذا الاقتضاب الجعد الايضاح ؟ ... فكأنها تنطق بالدر فتأبى فيه سماحاً ، كأنها من النباهة وبعد الصوت ما يكفي به التلميح . نفحة من الطيب تدل على الطيب . على ان هذه الشهرة الذائعة وقعت كالاحجية على الحارس ورفيقه الساخرين بحمق الاغلف البصيرة . فقال رفيق الحارس بتهكم المستهين : جعدة ؟ ... واية جعدة يا ابنة عمي ؟ ... هل غار فيك اللقب ؟

فتبرمت بتماديه في الجرأة عليها وصاحت بحدة جلجلت فيها نقمتها : اراك على فضول وقلة حياء ايها الغرّ الغمر . اذهب وابلغ سيدك ما سمعت !

فارتاع الحارس ورفيقه وتولاهما الكسوف . هذه الناطقة بالنبرة الجازمة ، الغضبى ، ليست ممن يجوز فيهم الهزء . لا ريب انها من بنات اعمام الخليفة ، وانكفأ الرسول الى سعد ، حاجب امير المؤمنين ، يقول والغصة تهشم بيانه : صارحتني بانها جعدة ولم تزد . هذا كل ما عندها في اعلان نفسها . ولقد نهرتني وانا استزيدها افصاحاً !

فجمدت اسارير الحاجب على ذهول وقال وهو لا يكاد يؤمن بما ينقل اليه الجندي من كلم : عالنتك بانها جعدة ؟

— نعم يا سعد ، ولم تزد !

على ان الجندي ادرك من انقلاب ملامح سعد ، ومن رعدته ، ان النكرة معرفة تغني عن الايضاح . فالاسم بعيد المدلول ، مستطيل الرنة . وخاف على نفسه وعلى رفيقه وقد طاب لهما السخر المرّ . ربما كانت جعدة هذه بمقام الخليفة واسمها هال حاجب امير المؤمنين ، فكيف به اذا رآها ؟

وجنح الجندي الى الفرار . لعب بدمه . فخشي ان تشكوه جعدة الى الخليفة . ولن يرحمه معاوية في استرضائها وهي في هذه المكانة . قال سعد : ابح لها الدخول ريثما اطلع على امرها امير المؤمنين !

وامير المؤمنين لم يكن يقيم صلاة العصر كما زعم الحارس . فهو الى مائدته يلتهم المآكل اللذ ويستمرىء الاقاويه . فان معاوية لبطين اكول . شرهٌ الى الطعام ومتأفف من كل شره . فليس يرضى عن ضيف ينافسه في المضغ والازدراد . كل ما حوت المائدة من طيبات فهو له . وكان يؤثر الجلوس الى المائدة وحيداً لينعم بالاكلات الشهية بلا مزاحم . ومن العجيب ان يكره هذا السخي اليد ، المجاوز بجوده تخوم الجود ، اكيله المقتدي به

في النهمة والاعتكاف على الطيبات

وما انسل الى اذنيه ان جعدة بالباب تبغي المثول امامه حتى جمدت اللقمة في يده ، ووقفت طواحنه عن اللوك ، ومبلعه عن الالتهام . والتفت الى حاجبه والارتباك في نظراته ، والخوف في ملامحه ، واستوضح : جعدة زوج الحسن بن علي ؟

ـ هي بعينها يا امير المؤمنين !

فاندثرت فيه شهوة الاكل ، ونهض عن المائدة عجلان وقد سقطت اللقمة من اصابعه . ومسح هذه الاصابع بمنشفة بجانبه ومسّد لحيته وشاربيه ومشى الى ايوانه وهو يقول : لتقبل الشقية ، فما جاء بها الينا تهدم فينا طلالة الانس ؟

وفكر في ما يخاطبها به . سيكون منها ليناً قاسياً . انه لواقف على سر مجيئها . فما اكتفت بالمال تتقاضاه وفي نفسها ينهر حب يزيد . وابتسم معاوية ابتسامة الهزء . هل آمنت جعدة بانها ستزف الى يزيد ؟ ... انها لتجهل الاحابيل مع اجادتها دس السم . غابنة ومغبونة . وتفانى معاوية ترحيباً بها وهي تقف في حضرته بعينين منددتين وخطوة مضطربة . ودنا منها يقول والبشر ينطق في هيكله المنتفخ : ابنة اخي هنا ؟... عندنا؟... ألا مرحباً بالحسن اليتيم ! ... رأفة بقلوب الدمشقيين يا جعدة . اني لاخشى عليهم فورة السحر المندلعة منك !

واستطاع ان يضحك وان يخفي مضضه. فأدار لسانه على هواه دون ان يتعثر. وحجب نفسه بقناع المواربة والتضليل لا تخونه نبرة متكلفة. فرحب بجعدة كأنه يرقب طلعتها بشوق . عاشق ولهان حظي في مستحكم الجفوة

بالحبيب النفور . واطمأنت جعدة وهو يبدو لها في هذا المظهر الطليق وليس فيه ما يدل على اعراض وخشونة . قالت والبسمة تتهادى في سيمائها: رغبتي في التبرك براحة امير المؤمنين دفعتني اليه . فما انا الا نبتة تستظل جوده وتحتاج الى غيثه . عطشتُ فهفوت الى المورد النمير انقع منه غلتي!

فتعاظمت بها حفاوته: انت منا في سواد العين ياجعدة . ما نفد الى رضانا امرؤ بلغ منزلتك فينا . وهل ننسى يدك البيضاء علينا ؟ ... ضربتِ ضربة حققت منانا على سعتها . واننا لنقر لك بالفضل ولسنا بمن يتجاهلون حسن الصنيع ؟

فشاقتها هذه الزخرفة في ابداء عرفان الجميل . معاوية ليس بالناسي . قالت وقد فسح لها في عرض ظلامتها : اني لشاكرة لامير المؤمنين عطفه على امرأة مكسورة الجناح مثلي . فلم اكن يائسة من حدبه عليّ وليس من عون لي سواه ارتجي منه الغوث والرحمة . انتم موئل نعمتي وركن غدي!

قال : وبوسعك ان تعتمدي علينا . فان معاوية لذكور !

ورقبت منه ان يحدثها عن يزيد ، فاين يزيد ؟... ودت ان تراه في قصر الخضراء ، ان يلوح لها خياله فتنعم بنظرة منه . قالت : ضحيت في سبيلكم باغلى واعز ما عندي . فجردت نفسي من عاصمي ، من ابن بنت النبي ، في مقابل وعد لا ابرح اتعلل بانجازه !

واعربت عن مرماها . فاستفهم معاوية مدهوشاً : وهل نمنا عن الانجاز يا ابنة اخي ؟... يزيد نقدك خمسة وعشرين الف درهم وانا طيوت اليك خمسة وسبعين الفاً ، فهل قصرّنا عنك ؟

فاجابت بنضاضة من حياء : ولكن المال ليس جميع المنشود يا معاوية !

فلجّ في تجاهله : وما هو المنشود يا ابنة اخي؟ هل من حاجة لك نقضيها؟

فحارت في هذا السكوت عن الوعد بيزيد . قالت : حاجتي لا تزال ترقب ان يجود عليها امير المؤمنين براجح حلمه . فما نلت منها الا شطراً . وما كنت ادري ان معاوية يهب جزءاً ويمسك عن جزء . فاني لاعرفه يسخو بالعطية على فيض واطلاق !

فتظاهر بانه يتعجب مما يسمع من تبكيت . اين وهي في العطاء ؟ ... قال : وهل استزدناك لتستزيدينا يا جعدة ؟... وعدناك بمائة الف فنقدناك مائة الف . لست ارى اننا وقفنا عما عاهدنا عليه !

فصعقها . أما اطلعه يزيد على العهد بنصوصه وبنوده ؟... اذن خدعها يزيد . وسددت الى معاوية نظراً حاولت به ان تمزق الغشاوة عن عينيه وتثب الى اعماق قلبه تنضو عنها الغطاء . شاءت ان تدرك الحقيقة سافرة، عريانة ، لا يلفها جلباب . ولكن معاوية بدا كالصخرة الصماء ، كالليل الاسفع . فما من نجمة تنبض في حدقتيه برعشة من نور . وجنقت جعدة على نفسها وعلى زمنها . اقدمت على امر جليل شيدت به بنيان دولة ونسفت دولة فكانت المكافأة نتافة من ريش . مع انها علت النفس بالرويّ السنيّ . أتكون ضحية مكيدة دبرها يزيد وابو يزيد ؟... ان من يدفعها الى طبخ السم للحسن بن علي ، زوجها ، ويقنعها بانها الرابحة في اعتمادها الجريمة الفاضحة ، لا يتورع عن الكيد لها والقضاء عليها . قالت وهي ترتجف : اين يزيد يا معاوية ؟

— وما حاجتك بيزيد وانت في حضرة ابيه يا جعدة ؟

— حاجتي به انه قطع لي عهداً ، ومن حقي ان اطالبه بالوفاء !

— سأدعوه اليك . يزيد لا يحجم عن تحقيق عهد ابرم . ولكن حدثيني عن هذا العهد يا ابنة اخي ، فهل يضيرك ان اكون لك عوناً على يزيد ؟

فلم تكن تدري ما تقول . انها لتخشى دهاء معاوية فوق ما تخشى خيانة يزيد. فالصل انجب الثعبان . قالت وقد اعتزمت الافضاء بكل ما تجيش به اضالعها : يزيد حملني على استئصال الحسن بن علي زوجي ففعلت . ووعدني في مقابل هذا الصنيع بمائة الف درهم وبالاقتران بي . وقبضت يميني على المال، اما يزيد فلا يبرح دون متناولي !

فتراجع معاوية كالملسوع . فكأن في منطق جعدة حمة عقرب . قال وقد تعتع وازبد : يزيد وعدك بالزواج يا ابنة اخي ؟... انه لغبي . على اني لا اصدق انه امضى هذا العهد . أفلا يخشى الشقي على نفسه منك ؟

فلم تفهم . قالت وهي تترجح في حيرتها ولا تجد سنداً تتكىء عليه في نصرتها : وما يخيفه مني يا امير المؤمنين ؟

فاجاب معاوية بصلف ، بشماتة : من لا تعفّ عن الحسن بن علي ابن بنت الرسول لا تمسك على يزيد بن معاوية بن ابي سفيان . جازفت لاجلك بمال المسلمين يا جعدة ، فاستبقي لي يزيد وهو بهجة ايامي !

فكأنه دمغها . فبحثت عن مقعد تستند اليه لئلا تسقط في الارض . معاوية دفعها الى الجريمة واقام يعيرها اقدامها على ارتكابها الجريمة . اغراها بالحسن وها هو يندد بها وقد انقذته منه ؟... أتجري في طاعته فيحتقرها وقد خدمت مأربه وحققت مشتهاه ؟

لا ، ليست تملك القوة على درء هذا الكيد . فهي دون المكر الطاغي عليها . وخابت في الاهتداء الى متكأ تصون به نفسها من السقوط فمالت على الجدار يرد عنها الكبوة . الا ان عزيمتها خانتها قبل ادراكه فتدحرجت في عرض الايوان ومعاوية ينظر اليها مثله الى ورقة رمت بها عن غصنها نسمة ريح

فتلقتها الارض. انه ليزدري هؤلاء المرتزقة مع بحثه عنهم وسخائه عليهم . فهم لقضاء الحاجة ، حتى اذا ما نال بهم الطلبة ادار لهم ظهره وهم لمن يؤدي البدل الاغلى . وما جعدة الا من هذا العجين . غدرت بالحسن لهوى اثيم ولن تبخل بيزيد على هوى اثيم تضطرم به جوانحها . قاتلة الحسن بن علي لا تحقن دم يزيد ابن معاوية. ونادى الخليفة الاموي حاجبه قائلًا : الي بنفر من الخدم ياسعد!

فامتثل الحاجب في خلجة جفن . قال معاوية يومىء الى جعدة المغمى عليها: احملوها الى جناح النساء ولتنعم فيه بوافي العناية !

واغتبط باطلاع جعدة على نيته . لا امل لها بابن الخليفة . فما تقاضت من مال يعادل بدل الجريمة . واستفاقت جعدة في دار النساء فاخفت وجهها بيديها وقد ابصرت نفسها في حلقة من الاناث شاخصات اليها . اين هي ؟... وفطنت فوراً الى حالتها وادركت انها في قصر معاوية ، وانها اصيبت في ايوان الخليفة بالاغماء، فحملها رجاله الى نسائه ليتوفرن على درء النازلة . واستبشرت النساء خيراً وهن يبصرنها تنفض عنها الغشيان وتغنم وعيها . وهنأنها بالنجاة من الصدمة . على انها لم تجب وقد ذكرت كلمات معاوية . قذف بها ابن ابي سفيان وابنه يزيد نصلة جائحة في كبد الحسن بن علي زوجها فمات الحسن ولقيت الهضيمة . مع انها قتلته لتظفر بحياة رغدة وعيش بسيم. كذبت الرؤيا. فالخيبة اودت بروعة الحلم

ونهضت على عجل كالاعصار المفاجىء . فصاحت بها النساء : الى اين ، الى اين ؟... صبراً ريثما تسعفك العزيمة في الوثبة !

ولكنها لم تسمع . هي تطمع في الفرار ، في النجاة من القصر المطبق جوه عليها وقد اوشكت ان تختنق فيه . وجنحت الى الخلاص من بيئة تمور

بالمكر وتتناهى في المراوغة . وتاهت في باحات القصر على غـــير هدى . ستعود الى الكوفة دون ان تبصر يزيد . فالذئب لا يلد غير ذئب يضاهيه . بيد ان املها بيزيد لم ينقطع . فما يمنع ان تراه وتحاول تذكيره ؟... ربما صيغ الابن من معدن يختلف عن معدن الاب . ولكن أتلقاه في القصر ؟... لا ، هذا قصر يزخر بالمداهنة والخبث ، فلن تحادث فيه يزيد . واين تحادثه ؟... لا تدري . وانسلت من باب القصر وهي تتنفس طويلًا على ما بها من موجدة وخذلان . وانطلقت الى حيث يتقاذفها القدر غير حافلة بالمهاوي . فليدفعها حظها الى المهلكة وهي راضية بالمكتوب عليها . واحترقت ندماً على قتل الحسن ابن علي . بماذا اساء اليها ابن بنت الرسول ، ريحانة الجنة ؟... فيا لفضيحتها غداً ، يوم تمثل امام ربها ليحاسبها عما انغمست فيه من موبقات !

٧

هذه الكأس المسرفة في الطفاح والنضوب في دير موران ، في الغوطة، كانت تهمس بسر شاربها وهي تندى بزفراته وترتوي من شفتيـــه . تروي وترتوي ، فيا للآخذة المعطاء !

وشاربها يزيد بن معاوية . فما ان يذيبها فتبيت هزيلة ، عجراء ، تشكو الظمأ ، حتى يحييها فتتوهج كالدينار وتغري كالدينـار . قبيحة في عريهـا ، مليحة في تبرجها . على ان يزيد لم يكن يلتفت الى الحسن والقبيح فيها ، فلم يجرعها الا لينسى ، ليدفع بها عنه شبح تلك المستقرة في العراق

وبجانب من تقيم في العراق ؟... بجانب عبدالله بن سلام ، احد عمال الدولة الاموية في ولاية الرافدين . ظفر بها من هو دون يزيد في الحسب والسلطان . فكيف نام معاوية عن رجاوة ابنه ، فاباح ارينب لعامل من عمـاله وحجبها عن يزيد ، يزيد وهج البغية ووثبة الطماح ؟

وعادل يزيد بينه وبين عبدالله وابتسم ابتسامة اصطكت لها اسنانه مرارة ومضضاً . هو ابن الخليفة ، وسوف يكون خليفة ، وذاك من رجال المناصب في الدولة ، من هؤلاء الساجدين في اليوم الف سجدة امام حاكمه . غير ان هذا المنحني في كل آن بين يدي ابن ابي سفيان ، الممتثل لسيده كالعبـد الرق ، بلغ من بهجة زمنه ما لم يبلغ ابن سيده . هما من نبعة واحدة ، من قريش ، اجل ، على ان هذه النبعة الواحدة لا تقيم المساواة بين جميع ما يتدفق منها وثمـة ما

ينتهي الى ساق زهرة وما يغور في الرمل بلا جداء

والتهب يزيد . وتمايل رأسه في قنوط . وامسك بيمين الاخطل الجالس بجانبه الى الخوان واطلق الكلام مهشماً ، فائراً : ألا حدثني يا شاعر الدنيا عن غرائب الدهر . عرفتك تتنزل المعاني وتنظمها اسماطاً من مرجان ، فهل بلغت من القدرة ما تتوفر به على حل الالغاز والانسلال الى بواطن الزمن الحقود ؟

وصاح في لهجة يائسة وقد ماع في جلسته : والله ما ادري كيف حيك هذا الكون . فما من كأس صافية الا وفي قرارتها نفثة من حثالة . وما من سماء نقية الا وفي مدرج نيراتها كدرة . ألا حدثني عن سر هذا التشابك ايها الاخطل ، لا وردة بلا شوك ، لا فرحة بلا كدرة ، لا راحة حتى في برج من العاج !

على ان الاخطل رحمه الله . فالخمرة ذهبت برشده ولم يكن يميل عنها . فهو لها لا ليزيد واشجان يزيد . وارتخت اساريره في ابتسامة بلهاء . وارتجفت يده وهو يحمل الكأس الى مرشفيه ليعيدها الى الخوان وقد استصفاها . وبعدت به السن عن يزيد وان جمع بينهما خوان واحد . فهو يحبو الى الشيخوخة وابن معاوية في صباحة الاقمار . ان كأساً لتتعتعه ويزيد لا تلويه خابية طفحى . صلابة الالواح وهت في الاخطل ولا تبرح على مناعة في يزيد . قال شاعر بني امية وابتسامته تتسع في بلاهتها مع اجتهاده في ان يفيض بالحكمة والمجال للافاضة بها فسيح : الاستخفاف بالزمن خير دواء في قهر الزمن يا يزيد . أتدري ما حملني على ادمان الخمرة ؟... والله ما عشقتها عن هيام بطعمها ، بل شغفاً باثرها الخميل . فهي تقصيك عن بؤرة الهموم . فلا تحس وانت تشربها

بانك تشقى وتتعذب ، ولا بان دهرك وترك حقك ، فانك فيها لفي نجوة من الكربة وفي عز مستطيل . تحسب نفسك معاوية في عرشه وانت على خشبة نخرة . ألا فاستعن بها على الكيد للدهر الظلوم . انت في لألاء المجد وتئن ، فكيف بمن هم دونك ؟... ما عرفت الزمن يصفو لمخلوق يا ابن امي !

ورفع كأسه يقرع بها كأس يزيد. وكان الليل المتلفع بعباءته السوداء يشمر اردانه على اهبة الرحيل . فالغوطة نامت بعصافيرها وغياضها حتى بجداولها. فما ظل على انتباهة فيها سوى فوح العبير . ولكن الباب يطرق في دير موران . فمن المقبل في الظلمة كالعسس ؟... واصغى يزيد بن معاوية. فمن عادة ابيه ان يقيم عليه العيون ويتجسس اخباره ، فهل بلغ به الاحراج مبلغ التضييق على ابنه حتى في دير موران ؟

وغضب يزيد . ونهض الى الباب يفتحه بنفسه وفي عينيه وعيد . سيشتم رجال ابيه ويعيدهم الى دمشق نادمين . ولكن من يبصر بالباب ؟... هذه امرأة لا عسس . ومن هي ؟... أتكون ممن تعوّدن ارتياد دير موران لاشباع شهوة ابن معاوية ؟... متعددات هن المتقلبات في هذا المكان على فحش واثم ، أتكون احداهن هذه الطائرة على جناح العتمة ؟... وعرض يزيد محياها على ضوء المصباح . وعرفها من ذل في وقفتها وعتب في عينيها . هي احدى المطالبات بقلبه . سحقاً لهذا القلب كم من غانية تطالب به وهو العاجز عن نيل مشتهاه !

وعبس يزيد وقد عرف الزائرة . وكاد يلويها عنه ويغلق دونها الباب . فهي ليست امنيته. بيد انه استعدى عليها الصبر ولم يكن يملك منه غير قشور رقاق . قال ورائحة الخمر تندلع منه طاغية شروداً : أأنت يا جعدة ؟... من

ارشدك الينا في هذا المكان ، بل من قادك الينا في مثل هذه الساعة، أما كان بوسعك الانتظار حتى الصباح ؟

وكانت جعدة نفسها ، ارملة الحسن بن علي . قالت وهي تتأوه : بابي انت وامي، اني ابحث منذ ثلاث عنك ولا اهتدي اليك . وحدثتني احداهن انك في خلوتك في دير موران فشققت اليك الليل متوكئة على دليلين . ما جئت لازعاجك ، بل لتذكيرك باني لا ازال على العهد ، فهل لك ان ترحم قلباً يصبو اليك ؟

فزفر . انها لمفاجأة تلهب الجراح . وسدد الى جعدة ناظرين اعتلج فيهما الكره والارتباك . وهز برأسه وقال بصوت يهدر فيه الغضب فتمسكه بقية من طول أناة : مرحباً بك يا جعدة . لسنا نقلوك . على اني وددت انا راك في دمشق، فما كنت على اضطرار الى ركوب هذه المشقة . هل ظفرت برؤية معاوية بن ابي سفيان ؟

ولم يشأ ان يبيح لها الدخول . هي في الباب وستظل في الباب لا تجاوزه الى صدر المكان . وسألها هل شاهدت معاوية كي يصرفها فوراً اليه ان تكن لم تبصره . فليس كمعاوية في الارضاء. فانه ليملك سر معرفة الناس ومدى طموحهم كأنه يزنهم بالميزان . ولما اجابت انها كانت في حضرة ابيه ادرك يزيد ان سهم معاوية طاش عنها فقال : وماذا اسمعك معاوية ؟

فهالها منه هذا التدقيق . أيحتاج المحب الى استطلاع وقد بوغت برأى الحبيب ؟... غير انها صبرت على استقصائه واجابت بمداورة تبغي بها درء الخيبة : معاوية صارحني بانك لا تحجم عن انجاز ما ابرمت . اما وعدتني بان تتزوجني فور موت الحسن ؟... عليك بتحقيق الوعد !

فاصطكت اسنانه بعضها ببعض حتى كادت تطحن. واطبق فمه دون الشتيمة. ليست هذه من يريد. مجنونة به وما يخفق فيه اليها حنين. قال وهو لا يدري كيف ادرع الصبر الجميل: هـذا ليس اوان الزيارة يا جعدة، هبطت علينا في ليل مقيت. ان ما بنا ليشغلنا عنك. سنسير اليك يوم يصفو لنا الزمن. فما انا بالتائه ولا انت بالضائعة المقيل!

فارتعشت فيها الوهلة. حديث هذا حديث ذاك. صد وجفاء. الا ان هذا اعذب منطقاً. قالت وفي حدقتيها غصات دموع: أتسير اليّ يوم يصفو لك الزمن؟... وفي اي صفاء تطمع بعد هذا العز الرويّ؟... السيادة باتت باجمعها لكم تتجاذبون وحدكم اطرافها بلا شريك. لقد مات من كان ينافسكم فيها وانا القاضية عليه باغراء منـك. أتكون خدعتني وانت تحثني على الفتك به لتخلو لكم الساحة؟... اغرقتني يومذاك في فيض من السناء، فهل لوّحت لي بالسراب تغرورق فيه عيني حتى اذا ما جئت اتقاضاك الدين انكرتني؟

فقال وقد احس بجفاف نضاضة الصبر فيه: اخـذت بمقدار ما اعطيت يا جعدة، فلم يبق للمطالبة بالدين متسع. أمـا نعمت بالبدل العريض؟... لست اراك على قسمة ضئزى في ما طـالت يمينك عن قطرات قـلائل من السم. انصرفي. سأدعوك الي يوم يلج بي الهوى. فانا الساعة منه خليّ!

فصاحت: ثكلتك امك. أتطردني كالسائل الخزيان وكنت ترتمي على قدمي كي انيلك المبغى؟... أتنسى كيف تهاديت امامي كالخنفساء تسترحمني في الرفق بقلبك وبغدك؟... والله لو لم اكن ساقطة بنت لاقطة لتحاميت الوقوع في شركك. على اني حثالة الناس استنمت الى اكذب الناس فلقيت

من غدره ما يجب في فاحشة مثلي . انا قتلت بيدي حفيـــد الرسول ، يا كافر ، كي امهد لك السبيل الى سيادة المسلمين ، أفتكافئني باللطمة ترضّ بها امسي وحاضري وغدي وتنـام رخيّ الضمير كـأنك لا ارقت دماً ولا ادميت كبداً ؟... لا والله ، هذا كيد لن تخرج منه على رفاء . اني لاحرقن قلبـك واشوهن غـدك كما احرقت قلـبي وشوهت غـدي . ولكن من انت ؟... ابن معاوية . فالغدر من معدنه . معاوية ما كان في المسلمين غير سافل خسيس !

وايقنت ان الاب والابن متواطئان عليهـا . فهي كبش المحرقة . نحرا بها الحسن بن علي ثم نحراها وهما يضحكان . فلم تكن لديها غير وقود لاشعال النار ثم حفنة من رماد تبددها الريح . فاكتفى يزيد بان يغلق دونها الباب ويعود ادراجـه الى الخوان لا يجيب . فزاد في حشرجة املهـا المقهور وهو يدير لها ظهره ويكنسها بصفحة الباب كأنها الحشارة ، كأنها لقيطة موبوءة . وما تمالكت حيال المهانة الناخعة ان صاحت وفي قلبهـا جمر وفي مدمعهـا شرر يسيل حقداً وغيظاً : لينتقم الله لي منك كما انتقم للحسن مني . قتلته وهو في نصاعة الوليد ، ما جنى ولا تجنى ، كي اعقـد لك راية السؤدد ، فتمسي في الاسلام القلب الخفاق ، فاذا بك تقابل صنيعي بطعنة في صدري . لا ، لا وفقك الله في عمرك ولا ابتسم لك زمنك . لتغرق في غمرة التعس ، فما تنجو في اسعد دقائقك من مضض الكبوة . سلكت بي طريق الضـلالة فلا عرفت الهدى . ليقهرك ربي كما قهرتني ولتكن ايامك سلسلة من لوعات وويلات !

وعادت تتعثر بالليل الى دمشق وهي تشرق بدمعها . حطم يزيد جناحيها

واطعمها الحرقة مكرهاً اياها على احتمال الالم دون ان يوسع لها في شكوى. لمن تتظلم وبم تتظلم؟... رماها ابن معاوية في الاحبولة واجاد حبك وثاقها . فهي مقيدة ابد الدهر بالكتمان وبالصبر على الضيم . فاذا افاضت باشجانها فانها لتتهم نفسها . قتلت الحسن بن علي زوجها لاشباع سفاسف لذائذها

ونفرت من دمشق . لن تقيم في عاصمة ابن ابي سفيان وقد عانت فيها روغان الثعلب وفتكة الذئب . فان بها منها ما حرمها الغفوة . وعادت الى الكوفة تدفن فيها خزيتها . اذا اباحت لها الليالي الانتقام فلن تحجم عن صولة . وعضت جرحها وهي تتحرق مستنزلة على يزيد وابي يزيد ودولة الامويين اللعنة . غير ان يزيد لم يكن اسعد حظاً منها . فالغاشية العابثة بلبها تنكأ جراحه . على انهما مختلفان في المتجه . فان يزيد ليتشهى ارينب ويلتاع حسرة عليها

ابن خليفة تسجد بين يديه آلوف الالوف ويعجز عن امنية ، عن امرأة. واي قدر لامرأة في هذا المضطرب المتفسخ بالمخلوقات ، في هذا الجيش الرداح من المعفرين جباههم في غبار نعلي معاوية ؟... على ان تلك الضعيفة المقتدرة ، تلك الهباءة المالئة الدنيا، اذلت ابن الخليفة ونهشت كبده ، فاضحى منها في ثورة المخنوق الشهوة، الذبيح التعلة . اضحى كالظامىء حيال المورد العذب ، يحاول الابتراد برسيل الماء ولا تسعفه قواه في نجعة

وطفر الى دمشق ، الى معاوية . انه ليحترق في حبه العاقر. ودخل بلا استئذان. ليقل معاوية ما يشاء. ليطرده، ليقتله. فلماذا اطلقه الى النور وقد ادركه في النور الظلام؟.. وانحنى وسلم. ولكنها انحناء موتور وسلام مفؤود.

وانتفضت في معاوية هامته ، واستدارت عيناه على حنق ، الا انه كظم غيظه . فاستشم في يزيد الغليان . واشرقت فيه البسمة كالايماضة . فالموقف يحتم المماكرة . وسبق يزيد في الكلام فقال وهو يميل الى هدم النزق الفائر في ابنه : مرحباً بقرة العين . اطلت الغيبة فاوحشت يا يزيد . اين هذا التنائي عن ابيك المشتاق ؟

فما خفف اللقاء الحفيّ من لهيب الحرقة . قال يزيد بخشونة في اللسان وبحة في الصوت تشفان عن متفاقم الضغن : دهمتني جعدة تستنجزني وعدي لها فألقمتها السبة . فانهالت عليّ بالدعوات ، فهلا كفيتني شرها وابعدتني عن حديد مقولها ؟

فماع معاوية في ابتسامة رخيّة وقال : انها لتستميت فيك حباً ، فاتلها الله . لو لم اكن اخشى عليك منها لزففتها اليك . ولكني اخاف ان تمثل فيك دورها في الحسن بن علي . ولقد جاءتني تتنصف بعد قبض المال . واستشفعتني لديك فقلت لها : « أما يزيد فاستبقيه لنا ، اني اضن به على السم تطبخينه له !... » . فسقطت في الارض مغشياً عليها . فلم تكن ترقب هذه الصدمة . على انها لم تقطع منك الامل فهفت اليك تسألك فيها ، فكانت اشبه بمن ينطح صخرة ، فاستفاضت في الدعوات الداعرة ، لتحرقها النار !

واذا الباسم يشتعل سخطاً ، واذا السحنة الهادئة ، الرضية ، تعتكر كبحيرة اقلقت سكونها الزوبعة . وزمجر معاوية كالرعد في عنيف ارتجاله : أتدعو عليك الفاجرة فتتشهى كسوف بهجة زمني وانتثار درة نعمتي ؟... والله لاغيضن بشرها واصوّحن عودها . لخناء ، لكعة ، لا يستنام اليها في ذمة ولا يؤمن جانبها في حفاظ . لو سمعتها تطلق فيك المقال الوجيع

لاستأصلت لسانها من مبلعها ولفقأت عينها . فمن يتجرأ على ريحانة عمري فقد تجرأ علي . من يطعن على ابن معاوية فقد طعن على معاوية . ان يزيد لنضرة ايامي ومكان الروح مني . تعال الي يا مرجاة ابيك !

وفتح له صدره وطوقه بذراعيه . ومبغاه ان يتقي في هذا الابن فورته الجموح . فداوره ليخفت فيه غضبته ويسلم من تنديده به . حقق يزيد مطمع معاوية ومعاوية لم يتوفر على ارضاء يزيد . وهذا القعود عن الاجابة اخجل معاوية واذله حيال ابنه فبات لا يدري كيف يستعتبه ويخطب وده . فالحاجة الى هذا الابن ماسة وهو صاحب رأي وفطنة ، ثم هو وارث المجد فلن يقيمه ابوه على غضاضة . قال يعانقه : وقعتُ على تدبير يعيد اليك اريب . فطب قلباً واسكن الى ابيك . عبدالله بن سلام لن يتمتع بها طويلاً !

وسبقه الى الضالة . ولقد ادرك معاوية بدهائه ما يهيب بيزيد الى هذه القحة الجائحة . حبه لاريب طغى عليه فساقه الى ابيه ناقماً يتململ ، وقد يكون دفعه غاضباً يتوعد . فتلاعب به معاوية وكبح فيه الجماح . فرفعه وحطه ، وتنقل به من اليمين الى اليسار ، ومن اليسار الى اليمين ، حتى ضعضعه في نفرته واخمد غليانه . فهو الآن بين يديه عصفور في قفص يرجو الغوث والعون . وود يزيد معرفة هذا التدبير المهتدي اليه ابوه في استعادة اريب . فما هو ؟... ان معاوية لخصب الحيلة ، فماذا اعدّ للفصل بين عبدالله بن سلام واريب بنت اسحاق ؟... قال يزيد : ابي يعلم ان ليس لي عن ابنة اسحاق مصطبر . فهي تأكل من قلبي ومن هناءة ايامي . وامير المؤمنين ، ايده الله ، وعدني بان ينصفني منها فاسترسلت اليه وكان ان فاتتنا النهزة . لهونا بجعدة ريثما تطوي الحسن فاذا بابن سلام ينتزع اللقمة من الفم . وهذه الخيبة زادتني

في ارينب هوى وجوى . ولا احسب امير المؤمنين يرضى لابنه بالارق والغمة . فان بي من الترحة ما يسقم الجبار !

فزمّ معاوية بن ابي سفيان عينيه كأنه يهم بالدمع . ابنه يشكو اليه تبريح الوجد . ان يزيد ليشقى شقاء الدهماء ، فما انقذه جاه ابيه من النكد. وما تماسك معاوية ان عاد الى ضم هذا الابن وهو يقول برعشة من ألم : رفقاً بابيك.لا تتبسط في عرض ظلامتك ، فانك لتسحق بها كبدي.ما حسبت اننا سنهون في قلوبنا وقد بلغنا من الرفعة منتهاها . ارينب لك . ساخادع فيها عبدالله بن سلام حتى ينبذها وتستولي منها على ينبع الحسن . من كايد وناكد، وخالب وخاتل، ليتم له الامر في المسلمين ، لن يعصيه عبدالله بن سلام الصافي الدخلة ، النقي السريرة . ان هو الا لعقة في فمي ، فصبراً . تقصيري في امرك ساعوضك منه الظفر بالارب ، فاكتم سرك بوسيع حلمك واستعن بالله على غلبة هواك !

وما تمهل . فكتب على الفور الى عبدالله بن سلام يدعوه اليه من العراق : « اقبل حين تنظر في كتابي هذا لامر حظك فيه كامل . لا تتأخر . اعتزمت ان ارفع من قدرك وان اجعل لك نصيباً وارفاً من افياء المسلمين . السرعة خير مطية . فلا تنم عن الزمن المؤاتي والسعد لا يبسم مرتين ! »

٨

نام الحبيبان على شغف وفرحة جاهلين ما يحاك لهما من مكيدة. فهما في العراق مخموران بما يتأرج فيهما من مخالصة ومودة . فقد رنحت اعطافهما نشوة الحب المتفتقة عن كؤوس ابكار يتساقيانها بغبطة وشوق . ارينب سكرى وعبدالله ولهان متيم . يشم العطر الفواح ويستزيده فوحاً . نهيم لا يشبع ، وظامىء لا يرتوي . وكيف الارتواء وارينب سلافة طافحة باللذة ، امتزج فيها رائع الحسن بفاتن البيان فباتت ينبوع سحر تلهم الهوى وتقتعد النهية؟

هي وعبدالله في الذروة من الفتوّة . وعبدالله ثريّ المال وارينب على يسر فجمعا الدنيا من اطرافها اللدان . ولم يكن عبدالله فاسد النية ولا لئيم الفطرة . ففي حوانيه تعبد للخالق، وطأطأة لولي الامر ، وولاء للخدين . ولقد اكتفى من دنياه بالطيبين ، بالمنصب تعلو به منزلته ، وبارينب تثلج صدره . ولما ورد عليه كتاب امير المؤمنين ، معاوية بن ابي سفيان ، ووقف على منطوقه تولته البهجة . ولكن الغموض المغلف به الكتاب اثار فضوله. فاي نعمة يحبسها عليه الخليفة ؟

وتلا الكتاب على ارينب فما بدا منها انها طائرة المسرة . قال عبدالله : وما يلوح لك فيه يا ارينب ؟

فاجابت وفي عينيها سهوم: انا اخشى كيد معاوية يا عبدالله. قد يكون يبطن لك المهلكة فيما يسخو عليك بالعطية . فما هذه الدعوة اليه على اجنحة

ولسنا ندري الحافز اليها ؟... ان في الكتاب للغزاً اعيذك منه ، بابي انت وامي !

وظهر منها انها تحاول ايضاحاً وتتردد كأن الكلام لا يطيعها . فقال عبدالله ضاحكاً : واين المهلكة يا ارينب ؟... ليس بيني وبين معاوية حفيظة. انا وانت من ابناء اعمامه ، من قريش ، أتحسبينه يغدر بابناء اعمامه ؟... ستحدثينني عن موقفه من علي بن ابي طالب وهو بمكاننا منه ، ولكن علياً نازعه في سيادة المسلمين ، وانا في اي سيادة انازعه وحسبي منه هذا المنصب. لا ، لست ممن يحجبون عن معاوية امنية، ولا ممن يثيرهم عليه مطمع . وجلّ ما يشف عنه كتابه اليّ ان يعدّني لاحدى الولايات في الدولة ، فيزيد في رفعتي وانعم واياك بغد سمين !

فاكتفت بان تطيل اليه النظر دون ان تفيض بمقال . فازعجه موقفها القلق ، الخشيان ، وصاح بها : ولكن افصحي. اكشفي عن جبينك وصارحيني بما تتخوفين منه . ماذا ينضّ من كتاب ابن ابي سفيان ؟

فاعلنت باكمداد في الصوت : ادعوك الى الحذر من ابن ابي سفيان . انت حياله طفل يُجرّ بخيط . فلست منه في بعيد حيلته ولا في رهيب مكره. قد يزين لك السعادة في الاكتواء بالنار . فيدفعك الى الموت بطلاقة من يريدك على الحياة . ابن ابي سفيان ياعبدالله يطعنك في صدرك فيما يقبلك في جبينك . يسحقك بنعليه فيما يسمعك المنطق الواعد . انه ليحلك منه محل ابنه يزيد في بارع ختله وخداعه ، فتغفو على ريش النعام وتستفيق على دبابيس. ثم اني رأيت ...

فرمت في قلبه الرعب وقال متشائماً ، متهيباً : وماذا رأيت ؟

فتأوهت كأن ما تراءى لها يدمي حشاشتها. وودت كتمان الرؤيا وليس في ما طاف بها من اخيلة ما يمسك على الطمأنينة . ولكن عيني عبدالله أسلحتا في الاستطلاع وما عوّدتهما ارينب اصطباراً . فقالت بعد لأي : رأيت هوة تفصل بيني وبينك . فصحت مستنجدة بك فاذا شبح كريه يرفل في الارجوان والبرفير كالملوك البيزنطيين يثب اليّ من احشاء الهوة ويطوقني بساعديه فيستطير لبي فرقاً . وتتعاظم استغاثتي بك فتتوارى عني كأنك نسيتني واستأثر بك سواي . ويجرني الشبح الى الهوة وانا على صياح واستجارة. واستفقت من نومي وبي من الوهم ان رأسي تحطم على نواتىء الصخور !

فضحك عبد الله بن سلام ضحكة المستهين بالرؤى وقال ممازحاً : ربما وقعت من نفس معاوية موقعاً حسناً يا ارينب، فاهابت به صبوته الى اكراهي على طلاقك مني !

وتمادى في ضحكة المستأنس بالمداعبة ، فحردت ارينب وقالت : وهل يرضيك ان يفصل بيننا معاوية ؟

فآلمته غضبتها وضمها اليه وهو يقول : لا والله يا ابنة عمي ، اني لاكفر بدولة معاوية على بكرة ابيها لاجل بسمة تضيء في شفتيك . انت ثم المنصب . فان يخطر لمعاوية ان يباعد بيننا تخليت له عن الولاية ونعمت في قربك بالعيش الخضل دون جاه السلطان . فما المعالي عندي على سمو رفعتها بما يعادل ساعة تغشانا على جفوة . مباركة لمعاوية الرتب وحسبي الفوز برضاتك . دنيا الحب اشهى من وسعة المجد على متمادي رحبتها !

فرشحت عينها بدمعة سمحة . فصاح عبد الله وقد انحنى عليها بهلع : أتبكين ؟... ما بال عينك تسخو بالالم ؟

قالت في لوعة وطفاء : لا تذهب الى معاوية . إبق هنا . ابن ابي سفيان يريد بنا شراً . ان في عطائه لمنة ، وفي عطفه لاذى . اخلع عنك منصباً اولاك اياه ولنعد الى مكة نقيم فيها على سكينة . ففي ايدينا من المال ما لا تفنيه السنون !

فهاله ما تدعوه اليه من تضحية . أيخلع عنه المنصب وفي المنصب عز مستطيل وشموخ مديد ؟ ... انها لتكلفه ما ترزح به الطاقة . وما يخيفها من معاوية؟ ... معاوية ليس تبع نساء ولا حفيلًا بشؤون النساء . هذه ترهات قد ينصرف اليها يزيد . اما ابوه، ابن هند، فانه لساعٍ لنصرة دولة شيد اسها . والدولة لا تقوم على وسامة كاعب غيداء . قال عبد الله بكياسة البصير الرفيق : ولماذا نجبه معاوية بالنفرة ونحن على جهل بما يريد منا ؟... علينا ان نسمع مقاله وان نكيل له بكيله . فهل جاءك عن معاوية انه فصل بين زوجين ليستأثر بالمرأة وينبذ البعل ؟ ... معاوية ابعد مرمى من الوقوف عند حسناء !

فذكرت يزيد . وكادت تفشو ما كان من ابن معاوية فيها . حاول استدراجها فتوارت عنه . بيد انها نكصت عن الافصاح . اجل ، معاوية ليس يزيد . وقد يكون يزيد تناسى . فما تعوّد ان يصفو لامرأة وان يطيل الشغف بها . فهي لديه اشبه بالكأس ، ما ان يرتوي منها حتى ينساها . فاذا عزت عليه مال عنها الى سواها . فلن يقضي ايامه في البحث عن خمرة اشتاق مذاقها وضاق عليه مجالها . فهو لساعته لا لغده . ومعاوية في شغل عن حب يزيد وكلفه . اما اقصاه عن الخضراء وقد اباح القصر للهوه ومجونه ؟

وشاءت اريب ان تطمئن مع اضطراب السكون فيها . قالت وهي تجاهد في ابداء الارتياح : اذهب واتكل على ربك واعتمد في اريب الوفاء .

ارينب تصون عهدك فلا تخفر ذمتها !

والقت رأسها الى صدره . هـــذه الدعوة الى قصر الخضراء ليست مما يستعذب خاطرها . فهي منها على رمض . اما وعبدالله لا يرى من ندحة عن اجابة امير المؤمنين فلا عليها اذا صبرت على الشدة . ومال عبد الله فيها على المبسم الريان في ضيق مدى يخمد فيه الا ّنة . فزقها قبلة تنتفض بلاعج الهوى المحموم الضرم وتمتم عاتباً : ألمثلي يقال لا تخفر الذمـة يا ارينب ؟... والله ما انا منك غير هدب في جفن ، اذا شئت استبقيته والا نزعته منك نزع الشوكة الواخزة . فلا يتحرك ولا يحيا بسوى مشيئتك . وانت مني نضاضة الروح ، اذا اعتراك في حبي جفاف فقد ذبلت روحي . أتريدينني على الامـانة وانا مرآتها الصافية ومثالها الاوفى ؟... كوني حسنة الظن بابن عمك وهو الواهب لك غضارة الليالي والواقف عليك مختلج الانفاس !

وركب فرسه الى معاوية يزمّ الفدافد وفي نفسه فضول وطماح . ان هذه الدعوة الى الخضراء لميمونة المطلع ، مشرقة الديباجة . معاوية يريده على سرعة حثيثة لينفحه بالحظ الاسنى . فاي سلطة سيجود بهـــا عليه هذا الشحيح بالسلطان ؟... وسبح به جواده في الفلوات الفساح . ولم تشغله الصحراء في منبسط رمالها ولا في يتيم نخيلها عما يتلظى به ذهنـه من حدس وظن . أيكون والياً على الحجاز ام يعهد اليه معاوية في منصب في الخضراء ، كأن يلقي بين يديه زمام بيت المال او قيادة من قيادات المسلمين ؟

وطال تفكيره دون ان ينفذ الى صميم اللغز . فما برح فيه على حومان . ولم يكن السهم المرنان اشد منه انطلاقاً في خاوي المفـاوز الرحـــاب . امير المؤمنين يبغيه . واتسعت اساريره ببشاشة مندلعة البسمة . هو من دنياه

في روض اريض . وانتعش وقد اطل على بردى يستقي منه ويسقي جواده. بات في حاضرة ابن ابي سفيان . وعلت به هامته وقد اشرف على دمشق . لا ريب ان معاوية يجهزه لمقام نضير . واذا كوكبة من الفرسان تشق اليه الادغال والهضاب . هؤلاء رجال معاوية يقبلون الى لقاء ابن سلام . انها لنعمة وارفة الظل ، غضة الجلباب . قال كبير القوم : اوفدنا اليك معاوية امير المؤمنين للترحيب بمقدمك . فانت بيننا على سعة ميلاء !

فاجاب والبشر يفعمه فيكاد يفحمه : روحي فداء امير المؤمنين . سخا علينا من لألاء هذه الدولة بما رفع قدرنا واثلج صدرنا . زاد الله في بهجة ايامه واخضلال راياته . لا تصلح الاحكام لسوى السيد ابن السادة في الجاهلية والاسلام !

ومشى في موكب حفيّ وهو يقول : ومتى يأذن لي امير المؤمنين في المثول بين يديه ؟

فاعلن مخاطبه : مكانك فور بلوغك دمشق دار فخمة على خطوة من قصر الخضراء . ستنزل فيها محفوفاً برعاية معاوية ريثما يدعوك الخليفة الى القصر !

فتفاقمت فيه المسرة . معاوية اعدّ له داراً بجانب قصره يقيم فيها عزيزاً مكرماً . انه لعطف لا يتقلب في نعيمه غير الامراء والملوك . فاي مهمة استدعاه اليها معاوية ؟... فهو يجعل منه نديداً يكاد يساويه في العظمة والجلال . ورحب به اصفياء الدولة وهو يبلغ الدار الموقوفة عليه في عاصمة معاوية . هذا اكبار يعز فيه النظير . أذن سيقيمه ابن ابي سفيان اميراً على شطر من هذه الدولة المترامية الاطراف . فبسمت له الآمال في الشام اكثر منها في العراق . فالمجد في حاضرة معاوية يلقاه على فيضان . ورقد ليلته تتجاذبه

المنى الجسام . ما اهنأ وسادة العزة وارفع عماد السؤدد . فشعر ابن سلام بانه يجر ذيل الخيلاء والتيه . فهو يملك اعنة الدولة بعد معاوية . لا سيد يطاوله ولا جبار يصاوله . فالدولة هو وابن ابي سفيان

واصيب بغشيان الرفعة . واهتز طرباً في بحبوحة الفخار . وتراءت له الدولة الاموية تنحني خشوعاً في حضرته فوثبت به نفسه الى ولاية العهد . فما ينبو به عن بلوغ المرتبة الجاثم فيها معاوية والامر في الاسلام شورى ، يبلغه الضعيف الجاه كما يبلغه الداهية الهمام ؟ ... انه لمن قريش ، واضالعه تلتف على ادب ودين ، فاذا ما مشت اليه الخلافة تبغيه فليس في حبوها عجب عجاب

وفيما يتقلب على الاماني النضرات حفل قصر الخضراء بمشاهد بطر فيها الدهاء فاستفحل كأنه في وثبة النمر الشرس وجشع الذئب الجوعان . ففرك معاوية يديه في سكرة الحبور ودعا اليه شيخين من الصحابة ، ممن آكلوا رسول الله وجالسوه ، وحادثوه واصغوا اليه في سديد آرائه ، وشاطروه النعمى والبؤسى . فدلفا الى ابن هند وقد احتضنت كلًا منهما عباءة من الوبر ، واستظلت كل هامة بعمامة منتفخة كأنها الدنيا . فنهض اليهما معاوية مسلماً ومرحباً . هذان من اتباع الرسول . وقادهما برفق الى قربه حتى لم يبق بينه وبينهما مجال لاصبع . ومال على كل منهما يقول : السلام على نبي الله وعليكما ايها الصفيان !

ولم يكن من هذه المقدمة بد لتمهيد السبيل الى الارب . وانحنى معاوية مرتين تقديراً واجلالا . فهو بين اكرم الصحب واصدق الخلان . واوهم جليسيه انهما من تلك الصفوة المعدودة من الاحباء ، من النخبة في ذوي

المشورة والرأي الحافل بهم الاسلام . ورانت على الشيخين المعتمّين البهجة . فانهما لفي كنف من يقدر قدرهما ويرفعهما الى الجلالة الخليقة بهما . وانبسطا في قعودهما . فهما اشبه بمعاوية في الشأن والمقام . قال ابن ابي سفيان وقد دعا لهما بالطيبات ليقينه ان بهما اليها حنين المستهام : لست املك من بليغ البيان ما يسعفني في الاحتفاء بمن وقعت في مسامعهما آيات النبي صلى الله عليه وسلم . فان نزولكما داري لمن رضا الرحمن عني . واني لفي جذل واستبشار . ولولا يقيني انكما من زهرة الاوفياء واصحاب التدبير الحكيم لملت الى سواكما استشيره في امري . على ان ثقتي وقعت موقعها والحمد لله . فاذا افضيت اليكما بسري فاني افضي به الى الحليم الفهيم ، واللبيب الصدوق !

فاتسعت فيهما الفرحة وباتا على وشك افتداء امير المؤمنين بالروح اذا التمس الفداء . قال ابو الدرداء : كل ما نملك من مال وروح في يد امير المؤمنين . نحن نرى فيه خليفة الرسول الامين . وليس له الا ان يبدي لنتوفر على الطاعة !

فقال معاوية وقد ادرك انه نفذ منهما الى اللب ، وانهما باتا له اطوع من خاتم الخلافة في بنصره : ما انا الا منكما ، وما الدولة الا نبتة تسقيانها بيانع رأيكما . معاوية يجري في نهج ترسمان خطوطه وتحكمان معالمه . ساعالنكما بقضية من الخطورة على جمام . فهل تعاهدانني فيها على نصحي والاخذ بيدي ؟

فقال ابو هريرة ولحيته البيضاء تجلل صدره ، وراحته تغوص في الافاويق الى المعصم وقد استطاب توابل معاوية وموالحه : بابي انت وامي يا ابن ابي سفيان ، أتكون خليفة الله فينا ولا نصوغ لك ابلغ حكمة في انصع

مشورة ؟ ... هات . كان نبي الله يستفتينا فنصارحه بما نعلم . وانت كاتب النبي فلست تجهل مقامنا من مستنزل الآيات !

فابتسم معاوية ابتسامة التأييد . انه ليدري من امرهما فوق ما يدريان . قال وهو ينظر بخبث فياض الى هذين الشيخين الغارقين في الاكلات المريئة، المبتلة شواربهما ولحيتاهما بالمرق الراشحة به اصابعهما الضخمة العقد، المزمومة البشرة : دعوت اليّ عبد الله بن سلام من العراق لاعجابي بنضيد خلقه ونظيم دينه. فهو ممن اوتوا ملكة الايمان وموهبة الحفاظ. وان سمو فرعه ليحثني على تزويجه صفية ابنتي . فاذا باعلها فقد جمع بين سماحة المنتمى وذروة المجد . على اني اخشى اذا اوضحت له بنفسي ما يمور به صدري ان يستخف بطلبتي . على حين اذا خاطبتماه في المبغى دوني فانكما لتحفظان مكانتي ويجد في ما تعرضان عليه شهوة يصبو الى ادراكها والاستواء فيها على متعة . هو ينزل في دار بجانب داري ، فهل يبدو لكما ان تسيرا اليه وتزخرفا له هذه الامنية الجموح فيشتاق بلوغها ؟

فقال ابو الدرداء وقد اعجب بوداعة معاوية وخفض جناحه : امير المؤمنين من هذه الامة ندي اللب، حليم الصدر. فلا يقيم عليها نفسه سيداً بل يدرج اليها اخاً رفيقاً . و في مايعرض على ابن سلام صفقة يعاني فيها امير المؤمنين الغبن. ولكن رجاحة الخلق و كرم الطبع يأبيان عليه الا ان يسلك في المستظلين لواءه مسلك العطف والحدب . ان ابن سلام لمن ارباب الحظوظ . فقد بسمت له النعمة وحالفه السعد . هذه الهبة بعض الجنة يا امير المؤمنين!

وقال ابو هريرة :هذا ممن صلت لهم امهاتهم في ليالي القدر يا معاوية . ما رأيت ابن انثى يدرك المجد والرغد وهو عنهما في غفلة !

فاستوضح معاوية : أيبدو لكما اني احسنت ؟... ألا اكون هويت عن ذروة اتسنمها في عقد هذه الصلة ؟

فترددا في الجواب . ماذا يقولان ؟... كل ما يجيدان ان يوافقا على رغبة السيد المطلق . اما وقد لاح منه انه يريد الوقوف على رأيهما اللباب فليسا يدريان بما يعلنان . ان التلذذ بالطيبات خير من هذا الاحراج . والتفت بعضها الى بعض كأن هذا يستعين بذاك للنجاة من مأزق ضيق طرحهما فيه امير المؤمنين . ولو كانا ملمين بنيات معاوية لايداها عفواً ، لا ينكصان . وشعر معاوية بحيرتهما فضحك وقال : لا عليكما . اعتزمت ان ازف ابنتي صفية الى عبدالله وهو من بني اعمامها . فلا تجهدا الخاطر في ابداء رأي قد يرشح باللومة . جلّ ما عليكما ان تنصرفا الى عبدالله وتدليا اليه برغبتي . صفية له اذا شاء . ويجب ان يشاء . والا عاتبتكما عتاباً قاسياً . ما تعوّد معاوية الترحيب بالصدمة والاخفاق !

فصاح ابو الدرداء وقد تنفس طويلاً لنجاته من غصة الاستفتاء الخانقة : أيتم لابن سلام ان يباعل ابنة معاوية بن ابي سفيان ويتدلل ؟... انه والله ليقتعد عين الشمس على رخيّ بال وهين مسعى . لا نكير انه رجل دين وادب ومروءة ، ولكن حظه كسف فضائله . فلو لم يكن حبيباً الى قلب امير المؤمنين لزلت به قدمه دون المطلب الوعر . ليشمخ عبد الله بانفه ، فقد بسم له الزمن بسمة التصافي والامان !

فقال معاوية : ألا اسرعا اليه وابلغاه مشيئتي . اني اراه لابنتي صفية كفؤاً كفياً ، وارجو ألا تخرج صفية من رأيي وقد جعلت لها من نفسها شورى . فمن احبت اختارت على ان يكون من القدر والمنزلة على رجحان!

فمالا على الافاويه ميلة الوداع يغرفان منها بما ملأ الشدقين وانتثر على الصدرين والعباءتين . ومسح كلاهما شفتيه بسبابته ، ونهضا بتثاقل همة ، وبطء خطو ، يرددان الآيات ومعاوية ينظر اليهما باسماً والمكر يفيض من نظراته فيخضب وجهه . انه ليدفعهما الى الختل والمراوغة مكبلين بسلطانه ومهابته وهما يجهلان ما يريد وما ينوي . وانى لهما النفاذ الى ما يغلي به صدره من كيد وكل ما يحسنان التحدث عن الرسول والتغني بآيات الكتاب ؟

وما ان تواريا حتى صفق معاوية بيده مرنح الاعطاف ، جذلاً . فاطل من وراء الستار ولداه يزيد وصفية . فمال بيزيد على قلبه وهو يقول : دعني اشم فيك رائحة جدك وعمك وولي عهدي . انت ريحانة نفسي وعنوان غدي . فما تعب ابوك باطلاً في تشييد هذه الدولة الشاسعة الآماد . لقد وطدت ركنها وبذلت في سبيل نهضتها وسموقها اصدق مجهود وامضى عزيمة . ولست اريد ان يطل بعدي من ينازعك فيها اللواء ويسلبك الصولجان . هذه دولة بني امية اصحاب السيادة في الجاهلية وفي الاسلام . ينتقل فيها الامر من سيد اموي الى سيد اموي . فمن الجد ، الى الاب ، الى الابن ، الى الحفيد . وقد عالنتك ان من حبك روعة السؤدد يا يزيد يضمن لك بهجة القلب . ارينب باتت منذ الساعة في عصمتك ومتناول يديك . فما دهمنا فيه الزمن سنبلغه بالحيلة وانف الزمن راغم . فكن على ثقة وازنة بابيك الحابس جنى دهره عليك !

وعانقه بصفاء وغيرة . لن يشقى ابنه لاجل امرأة وسيجود في مرضاته بكل ما تنتفض به نفسه من دهاء . فما بذل من جهد في اقتناص الخلافة من علي سيسخو بمثله في انتزاع ارينب من عبدالله . واستحلّ لبلوغ الارب

كل حرام شأنه في جميع مناحيه الصعاب . فلا حرج عليه في تسخير الضمير لادراك الامنية . فالحيلة والخدعة انجع سلاح في الظفر بالمراد . قال يزيد وقد شاقه من ابيه هذا الحدب الصادق عليه : وماذا اعدّ ابي لفصل ارينب عن عبدالله ابن سلام ؟

فضحك معاوية المعجب بالاحبولة المنصوبة وقال : هل رأيت لابيك نديداً في تدبير المكيدة والاستئثار بالامر حتى لينكر ذو الحق حقه يا يزيد ؟... ألا كن قويم الرأي في ابيك . لاكرهنّ عبدالله على استئصال ارينب من وكره استئصاله الشوكة الغارزة في خصره . سينبذها فتغنمها وتدفأ بنارها ، فانك لتبدو لي ترتعش كالمقرور !

فشُده يزيد . أيقوى ابوه على هذه الاعجوبة ؟... فمن اي معدن هو اذاً ابوه وقد طاول الخوارق ؟... قال يزيد بلجلجة : أيطلقها عبدالله ؟

ـ سيطلقها . بشراك . وسنزف اليه صفية اختك . فلا بأس علينا اذا عوّضناه من الزمردة ياقوتة . أترانا خاسرين في الصفقة ؟

ونظر اليه ليرى ما يكون منه . أترضيه المساومة ؟... فاطرق يزيد . انه ليكلف اباه ما يجاوز الطاقة . ولكنه الهوى الخانق الانفاس . فقال معاوية وقد لمس في ابنه الحيرة : لا ترهب . ارينب حلال لك . ولا تقلق على صفية . عندي لها رقى وتعاويذ . فلست بمن يطرحها لقمة سائغة للمزدردين . اني اضن بها على اشداق الافاعي . ابوك لا يجازف بخطوة . حسبك ان تظفر بطماحك وعلى معاوية رتق الفتوق !

وتناهى في ضحكته . انه لطروب . وما استطاع يزيد استيضاحاً . فكل ما يشتهي ان يحس بانفاس ارينب تغشى وجهه وتهيم في مسمعه وتختلط

بانفاسه . له قرص الحلوى وعلى ابيه التدبير . وقف على هذا الاب المجهود الشاق فلن يضير هذا الاب ان يبادله التفاني . تضحية بتضحية . وامسك معاوية بيد رفيقة بكتف ابنته صفية وقال : ان ما ندعوك اليه لعلى مشقة يا صفية ، ولكنه هناء يزيد . فانت لا ترضين عن تعس اخيك . يزيد يهيم بارينب بنت اسحاق، زوج عبدالله بن سلام، وعليك انالته المبتغى!

فاجابت صفية بنبرة سمحة ، دسمة : انا على ما تطيب به نفس ابي ويصفو له زمن يزيد !

ولاح فيها الذكاء والاقدام والصباحة . فهي على هيف ووثبة قوام. ينطق فيها الجمال الانوف المتلألىء فيه نبل السلطان . فكأنها زفت الى الاقمطة ابنة خليفة ، فالوقار نجيّها منذ اطلقت صرختها البكر . وهي في اساريرها اقرب الى يزيد منها الى معاوية ،على ان وجهها رتع في نصوع الندى. قال ابوها : شخص ابو الدرداء وابو هريرة الساعة الى عبدالله بن سلام يخاطبانه فيك . ومن الراهن عندي انه سيجيب النداء. على اني مبلغه اني اطلقت في امرك يدك . فانت تكتبين بنفسك مصيرك . واذا ما استطلعك عبدالله رأيك فيه عالنيه بانك لا تبيتين له على جفوة . فانك لراضية بان يباعلك على ان يطلق ارينب بنت اسحاق !

فابتسمت صفية . انه لشرك سوف تتحطم فيه اضالع عبدالله . قالت : سأردد على مسمعه ما شاء ابي !

قال : يكفي ان يعلم الآن انك لا تمانعين به زوجاً ، وان فرض المباعلة هجران ارينب . ولك ان تصوغي الطلب في اعذب بيان واصدق اداء !

فاتسعت ابتسامتها اعجاباً بدهاء ابيها . فانه ليقيس ويفصل على هواه .

هذه العباءة لهاتين الكتفين ، وهذا الفرس لذاك الفارس . قالت صفية : سأخاطبه بما تطمئن اليه نفسه ويوقن به ان الخلافة تجرر اليه اذيالها !

وضحك الثلاثة معاً . وضم معاوية اليه يزيد وصفية وهو في بهجة السعيد وقال : الشكر لمن جمع فوعى . ما اشتهيت من زمني الا ان يزينني بالمعرفة في سياسة الناس ، وبالسؤدد الجليل المدى ، وبالبنين الاذكياء . ولقد وهب لي ما جنحت بي اليه الصبابة ، فالحمد لله ثم الحمد لله !

وشاقه هذا المثلث المستوي الزوايا . دهاء ، على دهاء ، على دهاء !

٩

ابو هريرة وابو الدرداء يتهاديان على شيخوختهما الرضية الى مقر عبد الله ابن سلام. وما برح عبدالله يسائل نفسه عن هذه الحفاوة البالغة به . فقد اغرقه معاوية في فيض من الاكرام المترامي الحظوة . وهو ازدلاف لا يعتمده ابن ابي سفيان في سوى من يرتجي منهم الغوث والنصرة ، ففيم يتفق لعبد الله ان يغيث به امير المؤمنين ؟

وبنى ابن سلام التخمين على التخمين وهدم تخميناً على تخمين . لقد حيّره معاوية وأثار فيه الفضول اللبيك . على مَ يريده في هذه الدعوة المظلمة العين؟...وتنفس وقد قيل له ان الشيخين ببابه. قال: ليدخل صاحبا الرسول!

لا ريب انهما يحملان اليه مطلب معاوية منه . ففي صدريهما نفثات ابن ابي سفيان . ورحب وجامل . وشكر وتفانى في الاطراء . ان في هاتين الشيخوختين الصالحتين لنفحات من نبي المسلمين

وفسح للشيخين صدر المكان . مجيئها اليه فضلٌ ومنة . وتكلم ابو هريرة بمنطق رجل الدين الهادىء الموزون فقال : من الاجحاف ان يرتاد عبدالله ابن سلام قاعدة معاوية ولا يكون له فيها الملقى الاثير والمهد الوثير . انهو الا غصن من اغصان هذه الدوحة النامية . ابناء قريش في طليعة الصفوف وقد كانوا رسل الجهاد . وامير المؤمنين انتهج النصفة في استقبال ابن عمه بتقدير السميح ورحابة المشتاق !

فلم يكن يدرك عبدالله ما يلقى في سمعه. ماهذه الفاتحة الخميلة الديباج؟... أيكون في معتقد معاوية بهذا المقام الوزين وهو يجهل نفسه ؟... انه لايثار حقيق بالفاتحين والاقيال . وكاد زوج ارينب يضيع في هـذا الايناس . ما يدعو الى الاحتفاء به باجلال وعظمة وما اقدم على جليل عظيم . فهو عامل من عمال هذه الدولة يقوم بما يشير به عليه معاوية صاحب المكانة العليـا في المطمئن العربي . فما اهاب بابن ابي سفيان الى رفعه الى حيث يكاد يرتاب بكونه هو اياه ؟

وارتج عليه فما اطاعه لسانه في جواب . بل هو لما حضره الرد على ابي هريرة كان قد سبقه ابو الدرداء في الشوط فقال : من نعم الله على امير المؤمنين ، معاوية ابن ابي سفيان ، انه دعمه برجال المروءة والوفاء ، والعقل والدين . فالتوفيق يطوّقه من جميع الجنبات . ولقد سمعنـا من ثنائه على عامله في العراق، عبدالله بن سلام، ما ملأ القلوب استبشاراً. ان امير المؤمنين ليرى فيك علماً من اعلام هذه الدولة ووجهاً من وجوهها الكرام !

فشرق ابن سلام بريقه واستعاذ بالله من هذا المديح الطافح المكيال . أيريد له معاوية شراً فطبخ له السم في الدسم ؟... وواثبته مخاوف امرأته ارينب : « أدعوك الى الحذر من ابن ابي سفيان . انت حياله طفل يجرّ بخيط . فلست منه في بعيد حيلته ولا في رهيب مكره . يطعنك في صدرك فيما يقبلك في جبينك. يهدهدك على ريش النعام ليوقظك على دبابيس !...». تذكر مقال ارينب ولكن ... لقد ضاع . قال : روحي فدى امير المؤمنين. نحن زغب في خوافيه، فما شأننا في بنيان هذا الصرح الركين وقد شيد الخليفة السمح دعائمه بيديه ؟... إنا لقوم نؤمر فنطيع . وان نكن نقوى في خدمة

معاوية على مأثرة فاننا لنقدم عليها بنافذ رأيه وماضي قدرته . ولولا حسن تدبيره لزلت بنا القدم وادركتنا الظلمة المدجان !

فقال ابو هريرة : ان له فيك للرأي الخطر . فهو يؤثرك على جميع من يضمهم الاسلام . وما دعاك اليه لسوى مشاطرتك فلذة كبده . فان منزلتك السامقة منه مالت به الى وقف ابنته صفية عليك. فليس يجد سواك جديراً بمصاهرة امير المؤمنين !

فارتاع وقد انجلى له السر . معاوية يريده على الاقتران بصفية ابنة الخليفة . وعاد يتذكر وساوس ارينب وهواجسها . خافت من معاوية على نفسها وهي في خوفها على حق . ابن ابي سفيان يحاول ان يجبهها بضرّة تقاسمها قلباً ترتع فيه وحدها

وارتبك . هذا الالطاف من معاوية ذهب بروع عبد الله. على م تنطوي مصاهرة البيت المالك في الاسلام ؟ . . . وألمّت بعبد الله بن سلام الغصص الشوائك . هذا احراج . وخشي على ارينب . فكأن دعوة معاوية تنعاها. لم تكذب ظنونها ولا طاشت رؤياها . ذلك الشبح الفاصل بينها وبين زوجها ان هو الا معاوية بن ابي سفيان . ولقد استفاقت من الرؤيا وهي تحسب هامتها محطمة على نواتىء الصخور. وستتحطم هذه الهامة باقتران عبد الله بابنة الخليفة . ولكن أيعقد لعبد الله على صفية ويحفل منزله بضرّتين ؟

تردد ابن سلام في اقرار امره . ان الكفتين لراجحتان ، فليس يدري الى اي كفة يميل . ارينب ذات يسر وبهاء ، وبنات معاوية الثلاث على بهاء ويسر . هؤلاء من قريش وتلك من قريش . ارينب تتوكأ على طلالة خلت منها حسان المسلمين ، وبنات معاوية يرفلن في جاه يعز فيه النظير .

فالتفوّق مرموق في الناحيتين . غير ان عبد الله يهوى ارينب . وللهوى حكم وسلطان . فالقلب لا يخفق خفقتين متساويتين . وشفع في ارينب حب عبد الله لها فتجرأ ابن سلام على القولة : امير المؤمنين ينفحني بما لست به خليقاً في تزويجي احدى بناته . يكفيني من الشرف ان اكون خطرت له في بال . على ان لي زوجة هي ارينب بنت اسحاق . وانا من قوم يخافون ألا يعدلوا فامسكوا على واحدة . ولا اراني استطيع ان اكون لاثنتين . مدّ الله عمر امير المؤمنين وابقاه لنا حامياً نلوذ به ، وهادياً نستضيء بنبراسه . انه ليكلفني رفعة انوء باعبائها !

فنظر اليه الشيخان المخضرمان بعته وبله . أتنزل عليه نعمة امير المؤمنين ويعرض عنها ؟... هـذه قحة لا تبدر من ذكي فطين . قال ابو الدرداء : أيكابر عبدالله بن سلام وما سيطوق هامته من نبل يشتهيه اكابر اهل الارض ؟... خليفة الرسول يعرض عليك ابنته فتمانع ؟... ربي ، ان هذا لكفر . انت تلعب بدمك يا عبدالله . معاوية لن يصبر على الخزية . فاني لاخشى اذا عاندته في المطلب ان يحفظها عليك فتـدور بك الدائرة . لا ارغب لك في المصير الانكد يا ابن اخي . إن يصاهرك معاوية فقد شق امامك طريق الجنة !

فتلجلج عبـدالله في النطق . لا ، ليس من حسن الصنيع الاحجام عن قبول عطيـة الخليفة . معاوية اعلن فكأنه ابرم . وقال ابو هريرة بلهجة الايمان : انك لتسيء الى نبي الله في نكوصك عن اجابة النداء . فان معاوية خليفة سيد المسلمين ، فاذا عصيناه فقـد عصينا الرسول . وماذا يتكافأ من دنياك وهذه الهبة ؟... ليس من اليسير ان تصاهر ابن ابي سفيان ، فتهب ريحك ، ويكتنز عودك ، وتبيت الدولة النامية الجـذع ملك يمينك . انت

ويزيد في بسطة العديل ومرتبة المثيل . وما يدريك اي غـد مورق ستتقلب فيه ؟... فالخلافة قد تحوم عليك وفي بردتيك من الفضل والدين ما عطل منه يزيد ، أفلا تبيع ارينب بخلافة المسلمين ؟

فسال لعابه حيال المنصب الاسمى . وتراءت له أعنة الدولة في يمينـه ، فيسوس بحكمته وينيع رأيه هذا الملك الضخم . وقابل بين الحب والجـاه فاذا الجاه اطيب واشهى . ولكن اين عهده لارينب ، أينكث العهد ؟

وظل على اضطراب . بسمة ابنة اسحاق لا تزال تطغى على جنانه . فهو بها مقيد الساعدين . قال ابو الدرداء : دع عنك ميول الفتوّة ، فأنت من صفوة رجال المسلمين علماً ونخوة . وخليفة المسلمين وقـد عجم عودك شعر بقصيّ جلالك فشاء ان يستند اليك في رعاية بني قومـه . فان تتلكأ عن الاجابة حرمت اخوانك العرب سديد نهجك ونضيج علمك . وهي اساءة لا يغتفرها لك ارحم الراحمين !

واستعدى عليه الدين ليقينه انه من المتعبدين . فلا يهادن في صلاة ولا يعابث في سجدة . فالتُقى فيه طبع حصين . قال وهو في بحران ضاق بـه عليه مجال التفكير : وارينب ، ماذا يكون من ارينب ؟... لهـا عهدي وقلبي ، أيعيش المؤمن في دنياه بوجهين وقلبين ؟

فضحك ابو الدرداء ضحكة ساخرة وقال : أتكتب لارينب الرجحان على ابنة الخليفة ؟... ان ارينب لفي ذروة الحسن والخلق ، ولكن المعادن لا تستوي في القدر . فالذهب اغلى من الفضة ، والفضة اسمى من النحاس شأناً . والحجارة الكريمة باجمعها في اشراق النجوم وندرة الحظوظ ، بيد ان الماس زينتها . والماس نفسه على مراتب . وابنة الخليفة مهما وهت دون

ارينب نضارة وسناء فانها لاوفى مكانة واكرم محتداً !

فتاه عبد الله في ما يجهز له معاوية وجمجم بحذر الخشيان : لو كنت اعلم ان امير المؤمنين يدعوني الى الزواج لرغبت اليه ان يعفيني من مشقة الرحلة . والله ليست تجد نفسي في السؤدد مشتهاها . ضمة من ارينب تكسف عندي البدور !

فتصاعدت ضحكتان خبيثتان اطلقهما شيخان لا يحسان بلهيب الشوق وضرم الجوى . فقد تناسيا لاعج الحب والسن قعدت بهما عن نشوة الهيام. قال ابو هريرة : كنا في مثل ما انت فيه من نداوة العمر ومواهته ياعبدالله، نبيع الحياة بفم رويّ ، وناظر وريّ ، فماذا لقينا ؟... طارت عنا السكرة ووقفنا ازاء الحقيقة واجمين . المرء لربه ولحاكمه. وانت وقد اجدت التعبد لربك فعليك الاخلاص لحاكمك. معاوية اراد ولا بد من اجابته الى مشيئته!

فكاد يجن . على انه اعاد النظر في المعروض ، بل المفروض ، فما ملك همة المغالبة . سلطان معاوية قهر الاخلاص لارينب . فسقطت ابنة اسحاق في الميدان محطمة ، مهشمة . فالفوز لابن ابي سفيان . والتصقت عينا ابن سلام بالارض لا يبدي ولا يعيد . فهو صنم كئيب . قال ابو الدرداء وقد شعر باستسلام زوج ارينب الى رغبة معاوية : على م عولنا يا عبدالله ؟

فغمغم بخجل : على ما شئتما ، غير اني ارى ان ابقى على ديني في هواي !

وواثبه الخجل من تلك المقيمة في العراق . قال ابو الدرداء وقد ايقن بالظفر : أنبلغ معاوية انك راض عن المصاهرة ؟

فاطلق عبدالله زفرة سالت بها عزيمته وقال بصوت كسير وهي به امتناعه : ابلغاه ما يشوقكما . عزيز عليّ ان اعود الى ارينب بضرّة تلطم فيها شموخ

الحب والوفاء . ارينب ليست ترضى بمن تزاحمها على عبدالله بن سلام !

فامضيها هـذا الميعان . أيتفق له ان يتزوج ابنة معاوية ويسخر بالحـظ المواتيء ؟ ... وغـادراه الى الخليفة ضاحكين من حمقه الدهاق . واغتبط معـاوية واستبشر وهو يبصرهما بين يديه عـلى طلاقة . قال : اراكما عـلى اشراق ، فماذا تحملان من طريف ؟

وادرك من الاعـين الجواب . نال ما اشتهى . ابن سلام وطن النفس على مباعلة ابنة الخليفة . فقال ابو الدرداء وهو من بهجته في نشوة السعيد : أيكلفنا معاوية امراً ولا نكون فيه في توفيق ثريّ ؟ .

فقال معاوية وابتسامته الماكرة تطغى عـلى وجهه فتطلق من حدقتيه نظرات حادة ، واعية ، تتبطن الصلب فيما تتستر بطراوة المخمل : وهل اجابكما الى المبغى ؟

فقصفا ضحكات صاخبة ، ندّية ، تطاير منها الى معاوية رشاش حفيل . وترنح ابو هريرة بقولة يقطر منها الزهو المصانع : أيتحامق حتى يركل عطية السماء يا امير المؤمنين ؟

وقال ابو الدرداء باعجاب المفاخر بسمو القدرة وراجح الفطنة : هززناه حتى لم نبق فيه على ارينب اثراً من عطف يا امير المؤمنين . لقد سلاها وبات لصفية ابنتك قلباً خافقاً وعيناً مشتاقة !

فقال معاوية وقد سرّه هـذا النجاح الوشيك : احسنتما ايها الصاحبان الوفيان . والله ان فيكما لدهاء اللبيب وحكمة البصير . معاوية لم يعتمدكما عفواً . فان يقينه بسعة علمكما ونفاذ صولتكما حمله على انتدابكما للامر الجُسام . هذه الاسارير الحفية لا تزال تضيء بما انعكس عليها من وهج النبوءة . الصلاة

والسلام على ابن آمنة الرشيد !

واجزل لهما العطاء . وبهذا العطاء خطب مودات القلوب . فزادهما له اجلالاً وبه اعجاباً . قال : ومتى يقبل عبدالله الينا خاطباً صفية ؟ .

فاجاب ابو الدرداء : عندما يشاء امير المؤمنين !

– ليقبل الينا غداً . خير البر عاجله . فما انتفضت في خاطري هذه الامنية حتى شمرت اليها على وثّاب سبوح . عبدالله زهرة من يزدان بهم قصري وتستضيء مملكتي . فمرحباً بالطلعة الصبحاء ترصع داري بلمعانها السني !

فعاد الشيخان الى ابن سلام يبلغانه ان الموعد ضُرب غداً . امير المؤمنين بالانتظار . فقال ابن سلام : نحن طوع مشيئة معاوية حامينا وهادينا . سأكون صباح غد بين يديه !

ووقف من غده وقفة الحائر . ويله على ارينب وويله من معاوية . ولم يكن يتشوق الى صفية يتزود منها البسمات وينهل اللذائذ وقد ساوره فيها حب المجد فكسف لظى الهيام . فذهبت به مطامعه الى احتلاب الضرع واقتعاد ذروة السلطان وما صفية غير سلم للارتقاء . ولم ينم ليلته وقد بدت له طويلة قلقة يغالبها بالنعاس فلا تنعقد له اجفان . وكلما انطوى حجاب من الليل توهم عبدالله انه في برقع الفجر . ولكن الالوان استوت في تلك الليلة المبصرة الحلك . فالغسق والبكور تشابها . وما ان يتراءى لابن سلام من نافذة حجرته ان المؤذن على وشك تحية الصباح حتى يغرق الليل في ضجعة المكسال .

وكاد ينكر اذنيه فيما تحملان اليه صيحة : « لا إله الا الله ! » تتايل بها

اعطاف دمشق خشوعاً وتحناناً . فهل تخدعه اذناه ؟ ... وسجد سجدة الصبح يناجي بها الغفور الرحيم ، خالق الارض ومن عليها . وماج في عينيه قصر الخضراء ينفض عنه الغبش وينجلي عن مبسم ريان . فاستطاب سكنى هذه الدار الرخيّة ، القريرة ، المشدودة الاطناب في منبسط مديد من الارض والطامعة في مصاولة السماء !

١٠

معاوية في ايوانه يرصد وثبة الزمن . فما عانده هذا الناشز العاصي ولن يعانده . فانه ليقبض منه على خطامه ويديره انى شاء . فالزمن عبده. لقد اذله في الصعب فلن يحرن في الهين اليسير .

واقامت صفية وراء ستار . قال معاوية : اصغي الينا في ما سوف نتخاطب به . وعندما ادعوك اجيبي بما حرصت على تلقينك اياه، فلا تزيدي كلمة ولا تنقضي حرفاً ! .

وجلس بجانبها اخوها يزيد يشهد المأساة بقلب ضاق بالغبطة . اما زينب اضحت له وسيخلعها عنه عبدالله بن سلام كالعبء المضني. وانتصب بالباب سعد، حاجب معاوية، يعلن بصوته الجهير: عبدالله بن سلام يستأذن على امير المؤمنين !

فقال معاوية بابتسامته الخادعة: مرحباً بفتى قريش يا سعد. صدر المكان له.. فليدخل بامان !

فظهر عبدالله في اروع حلة يتأرج فيه عطر الشباب وتخضبه الاناقة الجليلة المبسم . وانحنى بين يدي معاوية وهو يقول برهبة المتقين : السلام على امير المؤمنين خليفة الرسول العربي !

فانتشى ابن ابي سفيان بصولة النمر المتهادية اليه الغنيمة . ليس له الا ان يضربها بمخالبه لتبيت في حلقه . قال : والسلام عليك يا ابن الميامين ويا اخا يزيد ابني !

ونهض يستدرجه اليه . وما امسى بجانبه حتى جنح اليه يعانقه قائلاً بشجو المشوق: كم يهزني اليكم الحنين انتم ابناء عشيرتي . فاجاهد في ان اجمعكم حولي واضمكم الى صدري . اني لافاخر بمن طُبع مثلك يا عبد الله على فضل وحمية . فان ذوي المروءات لقليل . اجلس هنا على مقربة مني . فمن المسرة لعمك ان يساقطك الحديث !

وفسح له حتى كاد يكون لزيزه. قال ابن ابي سفيان متناهياً في الرقة : ماذا ابقيت بعدك في العراق؟... أمطمئن انت الى طاعة القوم لنا ورضاهم عن نهجنا ؟

فراقه هذا الاستفسار الحشيم من معاوية . فكأنه يلقيه على ندّ كفؤ . قال عبد الله : عاش امير المؤمنين دعامة هذه الدولة وهامتها . فالامر لا يصلح الا به . ان القوم ليجدون فيه السيد الحازم والاب الحكيم . ولقد لوت المكايد من عنانها ، واطفأت الاحقاد من نيرانها . وان يكن هناك موتور فليس يجد من يلتف عليه وينجده وقد ايقن الجميع ان الركن الاموي أيّد منيع !

— اطربتني في مقالك يا عبد الله . انه ليشوق عمك ان ينعم برضا الامة وما يكافح لسوى نصرتها. فوالله لن يغمض لي جفن الا وقد ضمنت الحق لطالبه ومنعت الاذى عن البريء . فلست اطيق ان اتذوق اللقمة والعدل منكوب بما يقلقه قيد شعرة !

فنظرت صفية الى اخيها يزيد نظرة الاعجاب بابيها وكأنها تقول: ما ادهاه!

وعض يزيد شفته لئلا يقهقه ضحكاً . فالحيلة محكمة النسج . قال عبدالله ابن سلام : جهد امير المؤمنين في رفاهة الرعية مرموق محسوس . فما للاسلام بعد سادته الذاهبين غير معاوية ينشر ألويته ويوطد جنباته !

فقال ابن ابي سفيان : ولكني لست في النضال وحدي يا عبدالله . انكم حولي تعضدونني وتسعفونني في خطوي . هـذه الدولة ليست صنع معـاوية وحده وله فيها شركاء مصابيح !

والقى يده الى كتف عبدالله وقال : أيجوز ان انكر فضل عبد الله بن سلام في حميته وشممه ؟ ... ان له على هذه الدولة لليد البيضاء بما ينفحها به من الخدمة النصوح والسعي الامين . جاءني عنك ما صفا له خاطري يا ابن اخي وابهج كبدي . انت في هذه الدولة من اركانها الندباء !

فشاعت في عبدالله البهجة . ان مايسمع لنديّ فتيق . معاوية يرفعه الى الشامخ الشاهق في دولة الامويين . قال وهو لا يكاد يتماسك : نحن في خدمة امير المؤمنين وفي طاعته كيفما دار بنا الزمن . فاذا ما بدت منه الرغبـة في العمل الجادّ الحازم فاننا لنقتفي خطواته في الصعيـد القويم . ان معاوية لنبراسنا وهادينا ، به نجلو الحلكة ونتبين النهج السديد !

فقال ابن ابي سفيان وقد اطربه ان يرقد عبد الله بن سلام على امان وطمأنينة : عبد الله ، لست اغالي في معالنتك انك بمقام ابنائي . وان تكن تبغي الدليل على كونك من فلذات الاكباد فان في ما حمل اليك ابو الدرداء وابو هريرة من نبأ صادع للحجة القاطعة . اعجبني ما ترتع فيه من محامد فاعتزمت ان اعقد لك على صفية ابنتي !

فما كان من عبدالله الا ان هزته الغبطة . صدق الشيخان المعممان المتبرنسان . قال : هذه منة عليّ لامير المؤمنـين لا اراني لها اهـلًا . فان مباعلتي ابنته لترفعني الى حيث لا يحق لمثلي ان يرتقي . فالنور الوهاج يعمي من لم يتعوّد مرآه يا امير المؤمنين !

فقال معاوية وقد تمثل ابنه يزيد في فرحة المتهادية اليه الامنية الضالة:
انت اهل للخلافة نفسها يا عبد الله . فلو لم تكن على قدر راجح من الكفاية لتحامى معاوية مخاطبتك في لباب شؤونه وعميق دخائله. فما حملني على هذه المصارحة غير الثقة بكونك من الصفوة الغيارى على احدوثتنا ومكانتنا . فليس بالامر الضئيل ان يفاوضك خليفة المسلمين بامر زفاف ابنته اليك وانت تعلم ان العيون ترمق بناتي ، وان اكابر رجال الدولة يطمعون فيهن وانا امسك بهن يدي !

فانحنى عبد الله وغمغم : هذا اسراف في الجميل يا معاوية . واني لاحل ابنتك مني المحل الارفع والاروع . فهي عقد المجد في جيدي ، وياقوتة العز في صدري . اعجابي بامير المؤمنين واخلاصي له يدفعاني الى النزول على مشيئته بطاعة واجلال !

فعاد معاوية يلقي يده الى كتف ابن سلام وهو يقول ببشر يطغى على اساريره النابض فيها الختل والرثاء : بارك الله فيك يا عديل يزيد وقرين صفية . انه ليسرّ معاوية ان يلمس فيك صدق الاجابة وسرعة الامتثال للنداء . وسأدعو ابنتي فتسمع منها رأيها فيك ، وانه للرأي العالي ان شاء الله !

وانتفخ صدره وتمايلت اعطافه . اطعم عبد الله بن سلام لعقة من عسل فامتلك منه الجنان. وراقه فيه سلطان الدهاء . فانه ليجر اليه الجبل بايماءة اذا شاء . وصفق بيديه وهو ينادي : صفية ، ابنتي صفية !

فاجاب من وراء الستار المضروب في جانب من الديوان صوت مرنّ كالوتر الاغن قائلًا : ها انا يا امير المؤمنين !

قال بارتياح : انت يا ابنتي ؟... رضي الله عنك . ابن عمك عبدالله بن

سلام يجالسني . واني لمحدثه عما يزينك من حشمة ووسامة فرغب في مباعلتك. فما رأيك في ما يبدي صفيّنا الحميّ ؟

فرددت الامثولة وقد حفظتها واجادت تمثيل دورها : الرأي رأي امير المؤمنين !

— ولكن امير المؤمنين يضيمه احراجك يا ابنتي ، فالكلمة كلمتك في ابن عمك . وليس يخفى عليك ان عبد الله من مفاخرنا ومن قادة الفضل فينا . فاذا عقد له عليك فقد ازداد النبل وهجاً والخلق الرضي سمواً . فماذا تقولين في هذا الكريم النجد ؟

فاعلنت بصوت يحفل بالتأني : ان يكن امير المؤمنين يرى في ابن عمه ذلك الحقيق بابنته فمن يعرض له في بال ان يعاند امير المؤمنين ؟

فتظاهر معاوية بالمسرة . قال : اذاً انت راضية عن استئثار عبدالله بك؟

قالت : كيف لا ارضى وقد رضي امير المؤمنين ؟ ... . غير اني اعلم ان عبدالله يباعل ارينب بنت اسحاق ، والجمع بيني وبين ارينب مما لا تشتهي نفسي !

فارتجف عبدالله وكاد يثب من مقعده . فالتفت اليه معاوية وقال بلهجة المستوضح الجادّ : أتسمع يا عبدالله ؟... صفية لا تبخل عليك بنفسها ، غير انها لا تطيق ان تصطدم بضرّة . فهل لك ان تنصفها من ارينب يا ابن اخي؟

فكاد عبدالله يختنق . ما هذه المهواة يحفرها تحت قدميه معاوية ؟... وخاف وحاول الابتعاد كأنه يخشى السقوط في البؤرة . ولمس فيه معاوية الفزع والجزع فقال يخفف من اضطرابه : صفية لا تدفعك الى ما تهون فيه يا عبدالله . فهي تجنح الى المسالمة . ولا مسالمة وصفية وارينب في عنقك.

فعليك ان تمسك على واحدة مخافة ألا تعدل بين الاثنتين . اما طرقت اذنيك الآية ، آية ربك مالك يوم الدين ؟... ان رغبتي في ان اعقد لك على ابنتي لا تفرض عليك الاستسلام على كره منك الى مطلبي . فانت حر في ان ترفض او ترضى . هذه صفية امامك وتلك ارينب في منزلك . فكن لمن شئت منهما ولا ضير عليك !

فزاد في احراجه وقد اطلق له يده في الخيار . أميل عن ارينب ؟... انها لطعنة في صميم الوفاء . أيشيح عن صفية ؟... انه ليدمي حشاشة معاوية . وهو اذا ادماها فقد انقلب سعده الى ويل . ان معاوية لينتقم منه بما لا يبقي فيه على نفثة . ووضحت حيرته . فهو أشلّ الارادة ، مهدود الرأي . وابى الخليفة الداهية الا ان يستغل هذا التردد المنتفضة به جوانح عبدالله بن سلام فقال بمكر حاطم : لا عليك يا عبدالله . ان تكن صفية تحرجك في قلبك فدعها . لست اريد لك الاذى يا ابن اخي . كن لارينب ولا تحفل بابنة عمك معاوية ... انها لتغالي في مطلب عزيز !

فامعن في اقلاقه . أيرفض وفي الرفض محوه ؟... أيقبل وفي القبول خسة ؟... وكاد يصيح : ما هذه الاحبولة المحكمة يا معاوية ؟

واستبطأ ابن ابي سفيان الجواب فقال في شبه همس : أأبلغ صفية ان لا نصيب لها منك ؟... لا حرج عليك في الاعراض عنها . انت لارينب وهي لديك اسمى قدراً !

فاعلن في حشرجة : صبراً ، صبراً ، دعني في استشارة ضميري !

وعاد الى القول متعتعاً وقد هاله طلاق ابنة اسحاق : ألا يجوز الجمع بين الاثنتين يا معاوية ؟.. اني لضنين بارينب . احببتها حتى وهبت لها النهية والروح .

وخشيت وانت تدعوني اليك ان اسلوها فتشاءمت وبكت . ان الرحمة لمفروضة في المحبين !

وزفر زفرة كاوية اطلق مثلها يزيد من وراء الستار المضروب . وتراءى لمعاوية ان الفريسة تكاد تفلت منه فقال بعذوبته المأثورة : لسنا نميل الى ايلامك يا ابن اخي . ان تكن ترى من الصعب هجران ارينب فابق لها . قد تكون ابنة معاوية لا تساوي ابنة اسحاق وانت تأبى ان تعدل صفية بارينب ؟

فاطرق . ان في ما يرشقه به معاوية لسخراً خادشاً ، ولكنه يهوى امرأته ، تلك . وشهده الخليفة تعباً مكدوداً . فهو يتلوى بين حبه المكين وشهوة المجد . ارينب قلبه ، الا ان صفية غده . وامسك يزيد بصدره لئلا تهي جوانحه وقد ضاق بها الصبر . أيكفر عبدالله بن سلام بحبه لارينب ام يحرص عليه وينبذ ما يعرض عليه معاوية ؟... وساد القلق الديوان ، حتى صفية تولتها الوهلة . فان يصد عنها عبدالله فقد خذلها واخزاها ولاكت سمعتها الافواه

ورقب الثلاثة من عبد الله ان يتكلم . فان مصيرهم بين شفتيه . هو في هذه الدقائق الحرجة ، الحافلة بالرعدة ، ارفع قدراً من معاوية وانفذ سلطاناً . هو رب قصر الخضراء وسيد الدولة الاموية . ونظر اليه ابن ابي سفيان بابتسامته الخالبة ، الا انها ابتسامة تبطن الحيرة ويرين عليها الوجل . فان يرفض عبد الله يهدم مكانة معاوية في المسلمين ويحطم قلب يزيد ، ويثلم مناعة صفية ، مما جاهد في ان يتحاماه ابن هند براجح دهائه . قال : هلا تكلمت يا عبدالله ؟

فالتفت ابن سلام الى الستار المضروب وقال بحرقة : صفية ، صفية ، ألا رفقاً بارينب !

فاجابت بصوتها الاغن : ابنة معاوية لا ترتضي الضرائر يا عبدالله !

– حتى ولا ارينب !

– حتى ولا ارينب بنت اسحاق !

فكاد يصرعه ارتباكه . فهو غادر اذا خلع عنه زوجته في سبيل الجاه . وغاب في وجومه . فامسك بذراعه معاوية وهزه وهو يقول : عبد الله ، ستكون شريك عمك في ملكه العريض . ستقبض على اعنة هذه الدولة من اطراف بلاد الروم حتى اقصى بلاد فارس . كلمتك كلمتي ورأيك رأيي . معاوية ما اصطفاك لابنته ليبقيك عاملاً زريّاً في العراق ، بل ليعدّك لغد ابهى وهو الموقن انك اهل للمعالي يا ابن اخي . لا ، لم اختر لك صفية حباً لصفية ، بل كي تدنو مني وتصبح من اهل بيتي . شريكي في الاحكام يجب ان يكون من اقرباء معاوية الادنين ، من ابنائه او من اصهاره . وهو ما دفعني الى مخاطبتك في امر ابنتي . اني القي في كفك المجد والسيادة ، فقابل بين ما اسخو به عليك وما يلتمع في ارينب من رونق ، واحكم بنفسك لنفسك . انك لخير الحاكمين !

فاندلعت فورة المجد العريض والسلطان الطليق في نفس عبد الله وحجبت بسناها لألاء ارينب . فتلاشت ابنة اسحاق في عين عبد الله رويداً رويداً كأن غمامة تلفّها وتغيّبها في مطاويها . وامتدت باصرتا ابن سلام الى ما ينشده له معاوية من امل ، وما ينشره امامه من فتون ، وما تمالك ان قال : انك لتغريني بدمي يا امير المؤمنين !

وانفرجت شفتاه عن بسمة بليلة . فضحك معاوية . حلت العقدة . قال الخليفة بمجهود من يستعجل الاستهواء واستلال المطلب : واخيراً يا عبدالله ،

على مَ اتفقنا يا ابن اخي ؟ ... افصح . عمك يشتهي ان يبيت على نور !

فكان الجواب وجيزاً، كومضة البرق في العتمة الفاحمة : رضيت يا امير المؤمنين !

فنزلت كلماته على الثلاثة كالبلسم، كالندى على الازهار العطاش . وتنفست الصدور بهناءة وارتياح . قال معاوية وهو يبغي النفاذ الى الاعماق: أتطلق اريب ؟

— هي طالق مني ثلاثاً يا ابا عبد الرحمن !

فجمجم ابن هند وقد فاز ، وعيناه تجاولان الستار المضروب : هداك من نعبد ومن نستعين . الا اوفد على عجل الى ابنة اسحاق من يبلغها انك في حل منها ، وقد طلقتها ، وتعال الى صفية فاعقد لك عليها . انت منذ الساعة ساعد امير المؤمنين الايّد وسيفه الصقيل !

الجزء الثاني

خيبة . . . فابتهاج !

١

— ابطأ سيدك يا رسيلة !

وتأوهت وهي تزجي قولتها . فان بها من مضض هذا الابطاء ما قعد بها عن شؤون نفسها . فجفاها الرقاد وفترت فيها شهوة المأكل والزينة . فلم تكن تجد الراحة وهي القلقة في جلوسها ووقفتها ، لا تطمئن الى ليل ولا تطرب في صباح . فان ذلك النائي عنها احرجها في غبطتها فأحست بانها تموج في دوار من الحمى . وادركت رسيلة الزنجية ما يلمّ بسيدتها فلم تبتعد عنها . هي ابداً بجانب هذه الروعاء المتدفق فيها الحسن على لظى كأنه دائم الغليان .

ورسيلة جارية يمنية سوداء كالمصيبة ، الا انها عطوف كالغمامة الوطفاء في القيظ اللاذع . نشأت في هـذا البيت على امانة مخصاب وما برحت تفيض بامانتها واخلاصها كالام الرؤوم . فتشعر بشعور سادتها في الفرحة والترحة . تطرب كأن المسرة تغمرها اذا طربوا ، وتتألم كأن لهفتهم لهفتها في الجزع الغاشي . وهذا الصدق في المودة اقامها من السادة مفزع ثقة وموئل ركون .

فيفضي اليها بالدخائل كأنها معقل الاسرار .

وهال رسيلة القتوم الناشب في سيدتها فمالت عليها تؤاسيها : سيعود يا مولاتي ، فالرحلة بعيدة شاقة . ليست تدرك دمشق من العراق بوثبة !

فقالت ربة الدار وقد بدت في اشراق الريحان مع نفورها من التجمل وليس بها اليه في خلاجها هوى : كنت اوثر ان يصدف عن هذه الرحلة، فلا اراني فيها على سكون. ان قلبي ليحدثني بوقوع خطب جلل. والقلوب تصدق في تخمينها يا رسيلة !

واطلقت كلماتها بنواح . فهي على هلع يذيب منها مسكة الصبر. قالت الزنجية تحاول ان تمنع عن سيدتها انهيار الرجاء : لا خوف عليه يا مولاتي . غادرنا في صولة الاسد وسيرجع الينا في بسمة الامير المنصور !

ـ انا اخشى عليه من ذاك يا رسيلة ، من ابن عمه خليفة دمشق . فهو ممن لا يستنام اليهم في مروءة والغدر ديدنه . فيخلع القلوب من نوطها فيما يعانق حامليها عناق الاب لبنيه . يعنف في عناقه حتى يخنق ويزهق . هذه هي محبته لمن حوله ، محبة الطامع في الابادة والتنكيل !

فصاحت الزنجية : أينطوي لمولاي عبد الله على حقد ؟

فضربت سيدة المنزل ركبتيها بيديها وهي تقول في انتحاب يائس : هل من يدري يا رسيلة ؟ ... هو في موقف يبعث على الحيرة. فليس في الناس من يدرك امره . قد يكون صديقاً فينقلب الى عدو . وقد يكون عدواً فيبدو في توب صديق . دعوة عبد الله الى دمشق تثير ظنوني !

فما استطاعت الزنجية الا ان تشاطر سيدتها لوعتها. ومن هي سيدتها؟... ارينب بنت اسحاق شاغلة معاوية ومالئة قلب يزيد . فلم تكن تهدأ وعبدالله

في غيبة وقد نُفث في خاطرها ان معاوية سيباعد بينها وبين ابن سلام فيرميها بفاجعة يجول فيها مكره جولة الثعبان الارقط . وغامت ملامحها وملامح جاريتها بالاكمداد اللهفان فوجمتا في شجو كاسف. ذاك الصفو الطريّ الوجنة ، السائد المنزل ، ينذر بالرحيل الوشيك

وجاهدت ارينب في امتلاك روعها ففتّ في ساعدها . انها لفي وهن العاجز عن الاسترسال الى الطمأنينة. واقامت ترقب عودة عبد الله يوماً فيوماً ، بل ساعة فساعة . وكلما اقبل ركب من دمشق اوفدت جاريتها رسيلة للوقوف على اخبار الهاجر النائي . فتعود اليها الزنجية مرتخية اليدين ، ساقطة الهمة ، وتغص الاعين بالدموع كأن انقطاع اخبار عبد الله ينعى عبد الله الى من تنتظر طلته بحرقه المشتاق

وفي ليلة طويلة البساط غفل عن ارينب الارق فنامت . اغفت والفجر يتواثب . ودهمتها فور نومتها رؤيا هزتها في رقادها الصفيق . ابصرت بنفسها تمشي على حبل واذا الحبل ينقطع بها فتسقط الى الارض محطمة الاضلاع . واستفاقت وهي في شهيق . هدّتها الرؤيا. ونادت اليها على عجل رسيلة الزنجية قائلة لها: طيري الى حيث تقبل القوافل من دمشق واستوضحي امر عبد الله . انا موقنة ان لنا منه اليوم خبراً !

وكان قد انقضى على رحيل عبد الله الشهران وبدأ الثالث . واسرعت الجارية الى مضرب القوافل وعادت مثلها في كل استيضاح منحنية الظهر ، مخلوعة الجناح. فالتفتت ارينب الى السماء مستشفعة ، متسائلة : الى متى يطول يا رب هذا العذاب ؟

ولكن الباب يُقرع . هذا فارس يقبل في متنفس الاشعة . من ؟ ...

عبد الله ؟... واندفعت بنفسها الى الباب تفتحه . يا صباح الخير !... على ان الباب ، وهو ينشق ، نضّ بالخيبة . هذا ليس عبد الله بن سلام . انه لفارس مجهول . واستطلعت ارينب : من الرجل ؟

لا ريب انه يحمل اليها خبراً عن عبدالله. ففي اساريره ما ينطق بما في صدره . هو يحمل نبأ خطيراً يريد ان يلقي عنه اعباءه . فاعادت الاستفهام : من الرجل؟

فتعتعه سناها ووقف منها على شده . ما هذا الحسن الصاعق ؟... وكاد يضيع عما جاء يعلن . فالصباحة المتألقة شغلته عن المهمة العجلى . وشعرت أرينب بوقع جهارتها عليه فانقذته من خبله بقولها : ايها الرجل ، من انت ؟... أتكون رسول عبدالله بن سلام الينا ؟

فتذكر وهي تلفظ في مسمعه اسم عبدالله وقال : عبدالله بن سلام ؟... هو ما تقولين ، انا رسوله ، جئت ابلغك عنه انك ... ولكن من انت يا اخت الشمس ؟... اريد زوجة عبدالله !

فصاحت بشغف بالسماع ، وبالحاح في استلال الرسالة من فم المؤتمن على البلاغ : انا هي زوجته ، هات ما تحمل . كيف حال عبدالله ؟

فزادته احجاماً عن الافضاء بما تزخر به حناياه . جاء يعالنها انها طالق ، ولكن أيجوز طلاق مالكة هذه الوسامة المنزلة ؟... وراعها بطئه في البيان فعلت منها صيحة اشد : ولكن تكلم ، ما بك لا تصارحني بما في صدرك ؟... ماذا تحمل من عبدالله ، هل اصيب بمكروه ؟

فتعاظم بهاؤها في قلقها . وخشي الرسول الاحراج فاوجعه ان يكون دعي الى ابلاغ رسالة الطلاق . واطرق لا يبين . فهو في اشفاق على هذا الحسن الموّار بالفتنة ، بل اشفق على من خلع عنه هذا الاشراق اليتيم . كيف

قسا قلب عبدالله بن سلام ومال عن هـذه القسامة المعطار ؟... فما كان من ارينب ، وقد احرقها سكوته، الا ان قبضت عليه تهزه وهي في رهبة خرجت بها عن اعتدالها . وزعقت بارتجاف : ايها الممعن في ايلامنا ، هلا اوضحت لنا ما يحملك الينا ؟

فاعلن والكلمات تفرّ من ذاكرته فلا يهتدي اليها لسانه : انا مقبل من دمشق . ولقد كلفني ابن سلام ان امرّ بك لابلاغك تحيته . فهو بخير !

— وماذا بعد ؟... ماذا ؟

فما خفي عليهـا ان الرسالة لا تزال بتراء . قال وهو لا يدري كيف يؤدي النبأ : ثم ان اقامته في دمشق سوف تطول !

— تطول ؟... وما يدعو الى الاطالة ؟

قال والمضض يساوره ، والكلمات تتصاعد من حنجرته كأنها اشواك : وربما لن يعود !

فاعولت كمن نزلت به مصيبة : لن يعود ؟... ألا افصح . افصح . انك لتحمل اليّ ما هو انكد وادهى . هل اصيب عبدالله بشر فبات لا يقوى على العودة الينا ؟

— لا . هو في عافية . غير انه يميل الى الهجران . فلن يرجع الى دار تقيمين فيها !

فاذهلها عن نفسها . أيهذي ؟... ماذا يقول ؟... وجمجمت مستفهمة من ثم تراخت اعصابه : لن يرجع الى دار اقيم فيها ؟

— لا . فهو يبلغك انك طالق منه !

ونطق بما دعي الى بيانه . عبدالله بن سلام يبغي الطلاق . فلم تصدق .

هذا خداع وزور. غير انها اختلجت بسوء الظن. قد تكون صرفته عنها دمشق. واستندت ارينب الى الباب لئلا تقع. ونظرت الى الرسول بحقد وخجل. أيطلقها عبدالله ؟

ودخل الرسول. فلم يجد من الصواب ان يفضي وهو بالباب بكل ما عنده. وحدجته ارينب بناظريها وهي تود ان تشق صدره وتطلع دفعة واحدة على كل ما يموج في هذا الصدر من فوادح. وظهرت فوراً لعينيها يد معاوية. معاوية اكره عبدالله على الطلاق. بيد انها ما برحت ترتاب. من المحال ان يكون عبدالله بن سلام طلقها منه وهو المستعر بها هياماً. ومشت الى صدر المنزل يلحق بها الرسول والزنجية رسيلة. ونطق رسول عبدالله بما استودع: الطلاق، الطلاق !

فما بكت ارينب، غير انها اطرقت بوهلة كمن تفاجئه الصدمة فيسهو بوقعها عن الشعور بألمها. وطال السكوت. هو سكوت اللوعة اثر البادرة الحاطمة. ورأت ابنة اسحاق ان تتماسك حيال النبأ اليقين فقالت بهدوء عجيب بعد قلقها الفائر: أبلغ عبدالله اننا سمعنا فاطعنا. ليكن ما يشاء !

ونهضت لا يختلج فيها عرق بهول. وانتصب الرسول يستأذن في الانصراف فما شيعته بنظرة بل دخلت حجرتها تنزوي فيها ولا تجيز حتى لرسيلة ان تجالسها. وذكرت مخاوفها. كانت على حق في منع عبدالله من اجابة دعوة معاوية. قالت له: « انه ليتلاعب بك كما يتلاعب بالمخصرة القابضة عليها يمينه وانت لا تدري. فيرفعك ويحطك، ويتجاذبك ذات اليمين وذات اليسار، وانت تحسب نفسك لا تزال حيث انت! ». وما توقعت وقع. نجحت الخدعة. ولكن ... في سبيل من طلقها عبدالله، ولماذا طلقها ؟... أهذا هو الحب في شرع المغرمين ؟

واعتزمت الصبر على المحنة . الا ان ما ودت النفاذ الى لبه هو الباعث على القطيعة . فما ذنبها وما عذر عبدالله ؟... بمَ اغراه معاوية واستلبه ؟... واقرّت بعجزها عن مناهضة معاوية . فهي دونه دهاء وسلطاناً . دولة السياسة الماكرة امضى شفرة من دولة الحسن . ولما برحت حجرتها كان المساء يدق اتاده. فهرعت اليها رسيلة بذعر في اساريرها تقول بنواح: مولاتي، مولاتي !

فاشارت اليها ان اسكتي . وجالت في حديقة المنزل ، لا لتأنس بظل الشجر ، ولا لتشم الزهر ، بل لتغيب في الفضاء الطلق في تفكير غضيض . وما برحت تسائل نفسها : بمَ اغرى معاوية عبدالله فاقنعه بالطلاق ؟...هل اختار له من هي أروع حسناً ، هل اسند اليه احد المناصب الرفيعة في الدولة ؟

وخشيت ان يكون حدثه عنها بما يسيء الى السمعة والكرامة . وليس يحجم معاوية في سبيل هدفه عن التهشيم والتحطيم . والا بمَ اقنع عبدالله وفصله عنها ، وما هدفه من التفريق بين زوجين صفيين ؟

واحتقرت الحياة . وبدت لها الدنيا هزيلة بشعة فازدرتها . غير انها لم تقوَ على نبذ عبدالله . فهي لا تبرح على دين هذا الهاجر المتلاف . انها لتهواه حتى في التجني . وانحدرت من عينيها دمعة في متوهج الجمر ، ساخنة ، محرقة . ومشت في الحديقة والليل قد لفّ بكفنه الاسود تلك الارجاء فحجب فيها الاخيلة والاشباح . فلم تكن العين لتتبين أثراً كأنها فحمة منطفئة . على ان ارينب سمعت وقع خطوات في العتمة المنشورة . فارتعشت وصاحت بخشية : من ؟

فعلا الجواب يبعث على الطمأنينة : انا يا سيدتي ، عبدتك رسيلة !

فجلت عنها الرعدة وتراءى لها ان رسيلة وحدها بقيت لها من دنياها . فالجميع غدروا بها ما عدا هذه الزنجية السوداء. قالت : وما حملك على اللحاق بي في الظلمة ؟... اذهبي ونامي . دعي السهر للمتعبين المهجورين !

فادمت قلبها كلمات سيدتها . قالت : وهل هجر عبد الله بن سلام ؟

– هجر يا رسيلة . هجر بلا لفتة وداع . آه من ذلك الحب الصائر في انتفاضة الى رماد . كنت احسب عبدالله ابعد اخلاصاً !

ولكنها على نفورها منه لم تكن تدري كيف تلومه. فان له عذراً. وهو عذر تريد ان تقف على مطاويه . لماذا هجر عبد الله ؟... وبرى شفتيها السؤال لفرط ترديده دون ان تقع فيه على جواب. ودهمتها ازمة نواح فارتمت بين يدي الزنجية تغمغم : عبد الله اذاقني الويل يا رسيلة . رحلته الى دمشق ضربة فأس محكمة في جذع هنائي . دعوته الى الامساك عن الاجابة فضحك مني. معاوية هو الهادم، فلا صفت له ايام ولا طال له بقاء . ان دولة تقوم على الكفر لتنهار في ايماضة . ربي ، انتقم لي من ممزق الاكباد !

٢

معاوية ويزيد وصفية ، مثلث الدهاء العاتي ، على بهجة مترامية . فما اشتهوه اقبل طافح المكيال ، واعد الجنى . عبد الله بن سلام خلع عنه اريب واعتقها . فهي حرة . ولم يبق ليزيد بن معاوية الا ان يرطب شفتيه بذوب السحر وينقع الغلة . اريب اضحت سهلة الارتشاف

وقهقه معاوية ضاحكاً ، وضحكته ذات صخب وهدير . وقال وهو لا يكاد يتمالك وقد ماع في البهجة : اصطدناه اعمى النهية والقلب . وسنضحك منه طويلاً ونمعن في تحطيمه . اوفد اليوم الى اريب من يبلغها انها طالق منه . لك البشرى يا يزيد . فما ان يرجع رسوله قاطعاً حتى نوفد اليها رسولنا خاطباً ، فنسرّ بعد اكتئاب . ينفض منها عبد الله يده فيتلقاها يزيد بحرص . وستحقد على عبد الله حقداً يودي به . فلا تطيق ان تراه ولا ان تسمع به . وهو اقصى المنى . فاغتبط يا رجاء ابيك !

وضمه اليه راضياً عن نفسه . افلح دهاؤه العريض حيث لا تنجح حيلة . فلن يرقد ابنه على حسرة . ان غبطة يزيد لتعادل سرير الخلافة . وانتشى يزيد حتى كاد لا يثبت على حالة . بسمت له النعمة . فما ولاية العهد لديه بارجح قدراً من اريب . هذه منتهى الامل ومبتغى الضمير !

واقام يعدّ الايام والليالي في صمود الرسول الى اريب وعودته الى دمشق . ان العراق لقطر بعيد الشقة ودّ يزيد ان يكون اقرب امداً . واندفع الى

الخمرة يذيب فيها اوقات الانتظار . والانتظار ممض طويل يعاني فيه المرتجي الضيق والغصة . على ان النفس راضية . فلن تفلت ارينب من القبضة المحكمة

والتفت معاوية الى ابنته صفية يقول : وانت عليك بالمضي في اجادة تمثيل الدور يا ابنتي . احسنت في البدء وعليك ان تجيدي في الختام . وانك لتعرفين الامثولة فاتقنيها . عبد الله بن سلام يجب ان يتدحرج من شرك الى شرك حتى يمحى !

فجاولت شفتيها الابتسامة . هي في دهاء ابيها فلا يخف معاوية . قالت: ليكن ابي على اغتباط . صفية ابنته!

وتعالت الضحكات . فالثلاثة في متعة . وما برح عبد الله بن سلام ذلك الضيف المفدى . فالاكرام يؤدى له بسخاء واسراف . فابى معاوية الا ان يطوقه بالاجلال . هذا رب قصر الخضراء وسيد دمشق ، حفيد الميامين وابن المساعير . وفرض ابن هند على جلسائه مجاملة عبد الله ومصانعته . ان كلمته للكلمة العليا في الدولة . فهو صهر الخليفة

وتعجب اصفياء معاوية من هذه الحفاوة البليغة بعبد الله . ولمس ذوو الرأي فيها مداورة وروغاناً . أيزف معاوية ابنته الى ابن سلام ؟ ... انه ليسخر به . ولكن الحيلة خفيت بهذا الطلاق . فلو لم يكن عبد الله ذا حظ في ابنة معاوية لبات بغنى عن سلخ ارينب منه . فليس مضطراً الى الهجران لولا وعد معاوية القاطع بصفية . وحيال هذا التعليل وقفت الالسن عن التجريح والتقويل . وقليل من درى ان الحافز الى الطلاق حب يزيد لارينب

وعبدالله آمن بصدق معاوية . ليس ما يدعو الى الخداع . فما ثمة خلافة يفرض اغتصابها النفاق . ان هناك الا ابنة اختار لها ابوها زوجاً . غير ان

عبد الله كلما خلا بنفسه خاف من نفسه . فاي اساءة اليه بدرت من ارينب ، ومن في النساء كارينب ، أيبيعها بالجاه والسلطان ؟

ويبدو له طيفها في الليل فيؤرقه . فينهض من سريره جاحظ العينين ، مرتعش اللب . ويحاول الفرار من حجرته . ان هذا الطيف لينذد به . ويتفق له ان يغادر الحجرة مغلوباً على امره ، مضطرباً ، مهدود الحيل . فان ارينب لتنتصب امامه بغيظ ونقمة وتصيح به : يا غادر ، أتقع في فخ معاوية ؟ ... حذرتك منه فما احترزت . انت حقير تطمع في المعالي ، لا عرفت الشبع ، ولاجل المعالي ضحيت بحب لو نزل على ميت لعاش !

وآله الغدر ، ولكنه اتاه . وهاضت الخيانة عظمه ، غير انه اقدم عليها . فما تحامى ولا ارتدع . واقام يرصد رسوله . ماذا كان من ارينب وقد ابلغها الرسول انها طالق ؟ ... وتمثلها عبدالله في لهفتها وجزعها ، بل تمثلها تشتمه وتهينه . ولم يكن عزاؤه الاوحد في سوى كونه سيرتقي في سلالم الدولة الى حيث يعز على من يطوله . فيثب من السفح الى القمة معانداً الطفرة . وفي هذا التسامي سعد كميل لن يتوافر بجانب ارينب . ومن يدري ، فقد يركب مقعد الخلافة ، فما يزيد بمن يصلح للمنصب الاثير !

ويهادى على بسطة من الآمال . وشابه يزيد في عد الايام المنقضية على الرسول . كم طوى من الزمن وكم سوف يطوي . وشاء ان يتناسى ارينب . فالمجد يحجبها عنه . واحس بعطش الى المجد لم يكن فيه . فمن العظمة والشموخ ان يقبض بيمينه على الارواح فيديرها على ما يستطيب . فان ما تعب معاوية السنوات الطوال في تشييده سينتقل اليه في عقد قران ، في مباعلة . سيكون له مهراً ، وما اغلى هذا المهر . سيأخذ ارفع ما عند معاوية في مقابل

ماذا ؟ ... في مقابل لا شيء . بل في مقابل طلاق . فما ارخص الثمن !

واطل الرسول . اطل وفي ملامحه موجات اضغان . انه ليلقي على عبدالله نظرات عابسة تنفث الامتهان . فالحسن المختلجة به في العراق عيناه ، الممتلئة به اجفانه ، المطبق عليه الاهداب لئلا يتوارى فلا يتمثله كلما خطر له ان يتذكر الروعة والصباحة ، مال به الى ازدراء المتجرىء على الاشاحة عن ذلك البهاء السني وهو يكاد يعدل دنياه . قال ابن سلام وقد تغافل عن نظرات الرسول الاليمة ، الحافلة بالتعريض والاحتقار : ماذا فعلت في الكوفة ، هل احسنت اداء الرسالة ؟

فاجاب بصلابة تجنح الى الخشونة : تم الامر كما يشتهي سيدي . ابلغت ارينب مشيئتك فيها . انت منها بعد اليوم براء !

فاستوضح بوجل : وماذا قالت وانت تطلعها على رغبتي ، ماذا بدر منها ؟

فطاب للرسول ان يدمي حشاشة هذا الساخر بالروعة المليئة ، المستخف بجبارة يتضاءل حيالها التاج والصولجان ، قال وعيناه القاسيتان تخدشان عيني ابن سلام القلقتين : كل ما قالت انها تدعوك الى العمل بما تشتهي !

ـ أما اضطربت ؟... اما اذابت دمعة ؟

ـ وقفت موقف السماح . فما انتفض فيها عرق بدهش كأنها تتوقع المفاجأة . خافت في البدء عليك وقد خيل اليها ان شراً دهمك ، فكادت تجن . اما ولباب المهمة تكشف لها فجمدت كأن الامر لا يعنيها . افعل ما يطيب لك !

وانجلى بيان الرسول عن الاستهانة بعبدالله . ليس لمن يملك ذرة من الرشد ان يشيح عن ذلك الحسن المصفى . ولهجة الرسول ، وموقف ارينب

من النبأ ، لطما عبدالله في انفته فاذلاّها . ارينب لم تكترث لطلاقها منه . جزعت وهي تحسبه في اذى ، اما وقد علمت ما يدفع الرسول اليها فتولتها الاستهانة . هو الخاسر في هذا الطلاق لا هي ولن تعدم امثال ابن سلام فتزف اليه ، ولكن هل لابن سلام ان يظفر بمن تضاهيها في مغرورق الحسن ومستفيض الانوثة ؟

واكمد عبدالله وانحنت كتفاه . شعر بغدره . كان يعتقد ان ارينب ستعول وتضج ، فاذا وقع النبأ عليها جليد على جليد . ربما تألمت لانقصاف زهرة اكثر منها لهذا الهجران السخيف . وخجل عبدالله من الرسول فصرفه عنه مكتفياً انتهى اليه منه . فما تجرأ على الالحاح في الاستقصاء لئلا تتساقط السهام على السهام ، حسبه ان الطلاق تم وانه نجا من عبئه بسلام .

على ان الغضاضة دهمته . فحبا الى معاوية اعرج المشية ، كاسف الجبين . فالنطق يكاد يغور في شدقيه وقد ارتخى فكاه . ما باله يعصي قلبه ؟... أيمحو عمراً راجحاً من الحب والاخلاص بمنصب غير مضمون ؟... باع لذة ايامه بلذة لا تبرح مترجرجة ، مشكوكاً فيها . وخذلته ركبتاه وهو يدنو من قصر الخضراء ، كمن يقبل على المعركة اعزل . وتضايقت في صدره انفاسه ، ونهكه التفكير المضني . ألا يحتقره معاوية وقد رآه يزهد في ارينب ، سيدة الحسن الاتم ، لرفعة ربما كانت موقوتة ؟

وخشي نظرات ابن هند ، ابن هند الحاطم الهادم ، المجهول اللون ، المبهم المطلب . فقد يساوم على شعرة وهو يريد الرأس ، قد يتحدث عن الماء وهو يبغي النار . فليس حتى لمن يعرفه ان يدرك دخلته . واستأذن عبدالله على ابن هند هذا بلجلجة تسودهـــا الحيرة . ومثل بين يدي الخليفة

بابتسامة طعينة مغتصبة . شاء اعلان انتبأ وخاف . على ان بشاشة معاوية حبته همة الافصاح فقال : زاد الله ايام امير المؤمنين وضاءة واخضلالاً .عاد الىّ رسول ارينب بالنبأ السارّ . فلم يبق بيني وبين ابنة اسحاق نضاضة من مسالمة . فهي في ضفة وانا في ضفة لا يجمعنا دثار !

فانتشى معاوية وانتفش في سريره وقد تراءى له انه جبل شامخ يملأ الدنيا. قال والفرحة تهزه من القمة حتى السفح : هل انتهى ما بينكما يا عبدالله ؟

— انتهى يا امير المؤمنين !

— ان الحظ ليواكبك يا ابن اخي ، فاهنأ بما كتب لك دهرك من نعيم. هذا انت وهذه صفية . اريد ان تنتهيا الى اتفاق !

على ان قصر الخضراء درى بعودة الرسول ووقف على النبأ قبل ابن سلام . فما الرسول الا من رجال يزيد . ولقد عرج على ابن معاوية يحدثه بما كان من ارينب ثم مال على ابن سلام يقص عليه كيف ادى الرسالة وماذا لقي من المطلقة المجهورة . وماج قصر الخضراء بالغبطة . افلتت يدٌ ارينب لتمسكها يد . قال معاوية وضحكة الخبث تتطاير من مرشفيه على اجنحة طلاق : البشرى لنا جميعاً . نلنا الارب . احمد الله يا يزيد وقد وهب لابيك القدرة على انالتك مناك . ضربنا ضربتنا الاولى فعلينا بضربة الاجهاز. كوني على قدر المهمة يا صفية . ان في مقولك للكلمة القاضية. اعتقد انك ملكت من ابيك سر التلاعب بالالفاظ !

وانتظر معاوية ان يأتي اليه عبدالله. فلا بد من طلته للافضاء بما صارحه به الرسول العائد من العراق . وهـا هو بين يدي الخليفة لعقد الصفقة . فالمساومة وقعت ولم يبق غير العقد . ونادى معاوية ابنته صفية لتبرم ما

عاهدت عليه . فارتفع من وراء الستار المضروب ابداً في زاوية الايوان صوت صافي النغمة ، جازم النبرة ، يقول : ها انا في حضرة امير المؤمنين!

قال معاوية : بجانبي ابن عمك عبد الله بن سلام يا صفية . ولقد جاء ينبئك انه حقق المطلب . فالطلاق وقع بينه وبين ارينب بنت اسحاق . فلم يبق من صلة تشد بعضها الى بعض . وهو ما ابتغيتِ يا ابنتي . فمتى يروقك ان يعقد عليك لعبد الله ؟

فاجابت وهي تتظاهر بالارتباك : هل لامير المؤمنين ان يعفيني من وعدي ، وهل اجد عند عبدالله عن نكولي سماحاً ، فلا يجفوني لديه العذر ؟

فاعترى الانقلاب اسارير ابيها . واستدارت عيناه وجحظتا كأنهما روّعتا بالفاضح المخوف . قال بما يشبه العواء : اعفيك من وعدك ؟ ... أغبية انت ؟ ... أتجهلين ما بدر منك في عبد الله من عهد قاطع ، ام يطيب لك ان امسي هزأة في المسلمين ؟

وتضعضع عبدالله بن سلام ووهت عزيمته . ماهذه النكبات المتألبة عليه؟... وتلظى جبينه بالحمى الناهشة ، وجفّت حنجرته كأنها صخرة صلداء . قالت صفية بصوتها الحازم : وعدت ثم ايقنت اني لست قادرة على الانجاز . قد يكون عبد الله ممن يعز عليّ الظفر بهم ، الا اني لا اريد ان اشقيه . فلا مودة بيننا ولا ملاطفة تجمعنا . فاني منه وساظل في موقف الغريبة من الغريب !

فنظر معاوية الى ابن سلام كأنه يقول له : « أتسمع ؟ ... » . ونظر ابن سلام الى معاوية كمن يقول : « أتروقك هذه الخدعة ؟... دفعتني الى الهلكة وابيت علي النجاة !... » . قال معاوية يخاطب ابنته : صفية ، انا ابوك ولي عليك حق الطاعة . لست ارضى هذا التغرير بابن اخي . وعدناه فلننجز :

انت له بحكم ما عاهدت عليه !

فما رهبت اباها . قالت بعزم لا يلاين ولا يهون : لا احسب ابي يريد لعبد الله بن سلام الشقاء في المعاشرة . فان اقامتي بجانبه تظلمه كما تظلمني . فلا انا استطيبها ولا هو يطمئن اليها . ان عبد الله لمن اجنحة امير المؤمنين ، ولا يشوقني ان يبدو جناح امير المؤمنين منتوف الريش !

ـ منتوف الريش يا صفية ؟ ... ما هذا البيان المقيت ؟

ـ زواجه بي نذير بالمضض والخيبة ، فلن يشعر بسوى العذاب والالم . صنه من الاوجاع يا امير المؤمنين !

ـ ووعدنا له يا ابنتي ؟ ... ألا تعلمين اني دعوته بنفسي الى مباعلتك ، وانك ايدتني في الطلبة ودفعته الى طلاق ارينب وانت لا تطيقين حياة الضرائر ؟... اين ما اعلنت مما تعلنين ؟

فقالت بثبات وعناد : لا يحملني ابي على ما اكره . ليس لعبد الله مني مكان لهوى . هو ابن عمي ، واني لانزله من نفسي منزلة النسيب لا منزلة الزوج . ولا بأس ان اسأل عبدالله ، هل يطيب له ان نقيم على خذلان فلا نتصافى ولا نتفاهم ؟

وتكلم عبدالله . يجب ان يتكلم . قال وهو يحس بانه يغيب في لجج الخزية الى حيث لا يهدأ على قرار : ولكن ما يدريك اننا لن نتصافى ولن نتفاهم يا صفية ؟... أتحكمين عليّ وانت تجهلينني ؟ ... اراك ممسكة على رأي عقيم . اني لاملك طبعاً لا يبيح لك الشكوى . ستكونين عندي مثلك في قصر الخضراء ، عزيزة سيدة . ليس لمشيئتك مرد ولا لمكانتك نهاية . انت هنا اميرة ، وستكونين في داري اميرة عليّ . رأيت مني الاستنامة

اليك في رغائبك جميعاً وسترين اني لك على استسلام مديد . وما يرهبك مني ؟... نحن من نبعة واحدة، وكلانا في الرّيق الغضّ من متعة الشباب . وما يحطني عنك ؟... اذا وهب لك معاوية السيادة والشموخ فلن يبخل بهما عليّ وانا صهره وساعده والضارب بسيفه . اشفقي عليّ من الشماتة يا ابنة امير المؤمنين !

وكادت تنساب دموعه . اي غضاضة ستلمّ به واي حقارة ستغشى صيته . طلق ارينب في ابتغاء ابنة معاوية فاذا ابنة معاوية تركله كأنه حصاة تعترضها في الطريق وتخشى ان تعثر بها . ولكن صفية لم تقو على الالتواء عما تعلن . ابوها لقنها الامثولة فحفظتها وعليها ان ترددها بامانة . والويل لها اذا اهملت كلمة او اخلت بحرف . الرفض ، ابداً الرفض . ليس عبد الله بمن يصلح لبنات الخليفة . قالت : يحز في قلبي يا ابن عمي ان اسيء اليك . ابي اطلق يدي في امري واني لاملك حق الاصطفاء . وما احجمت عنك كرهاً لك ، بل خشية ان لا نتفق . قلبي لا يميل الى زواج اراني فيه مظلومة . لقد فرضت على نفسي ان اهواك ، ان امثل لذة العيش بجانبك ، فاذا بي اغالب هواي ولا اوفق فيك لهوى . فعفوك عني وقد آلمتك واقلقت منك هناءة الضمير !

فقال ببؤس ومسكنة : صفية ، ليتك شعرت بان التصافي محال قبل طلاقي ارينب . طلبت اليك ان تقيما معاً في عصمتي فابيت مشددة في ان تكوني وحدك . صارحتني بانك لا تحتملين جو الضرائر فاسرعت الى اجابة رغبتك وصرفت ارينب عني . وارينب هي روحي يا صفية . فشعرت وانا اخلعها عني بأني اخلع قلبي . ولكني صبوت الى التضحية لاجلك ولاجل معاوية ابيك . معاوية دعاني الى الاقتران بك . اما انا فوالله ما خطرت لي ببال . والآن ،

الساعة ، اشفقي فيّ على الكرامة ، لا تعرضيني لسخرية قومي ولشماتة الناس بي . لا بأس ان اكون لك لبعض الزمن ثم ليكن بيننا طلاق . ارحمي بقيا الانفة في عبد الله بن سلام يا ابنة خليفة المسلمين !

قالت : انت من ذوي الفضل الراسخ الدعامة يا ابن عمي ، فلا خوف ان تمس فيك الكرامة المنيعة . فلن يعاب عليك حنث ابنة معاوية ونكثها ، بل يعابان عليها . لن يقال صفية بنت معاوية بن ابي سفيان صدت عنه ، بل يقال نكلت عن العهد . وفي القولة اساءة اليّ لا اليك . انت قمت بما فرض عليك الاباء وخرجت من المعركة عطر السمعة ، وما اللوم الا عليّ وحدي ، فلا يشاركني فيه احد من الناس . وعذري اني رأيت بيني وبينك في اعماق ضميري هوة لا سبيل فيها الى تماسك واحكام !

فانطلقت من شفتيه ضحكة مرّة ، الا انها اشبه بالأنة . قال : ما خرجت من المعركة الا محطماً يا صفية ، مغبوناً ، صفر اليدين . فلا انت ولا ارينب . وانها لاشقى حال . خسرت من اهوى لارضائك ، فاذا انت تتلاعبين بي كأني دمية في اصابع وليد . ألا اذكري ربك واتقيه . ان السخرية بنا ليست من شأنكم وفي حوزتكم الخلافة ، وانتم عماد الاسلام !

وانقلب من التذلل الى الوعيد . فقال معاوية : خفف عنك يا ابن أخي . كان عليك ان تتأنى . فما حملك على العجلة في طلاق ارينب ؟... عهدي بك من ذوي الرأي والتدبير ، فاين اضعت حجاك ، حرسك الله ؟

فانفجر . أيدعوه معاوية الى التأني بعد ذاك الالحاح عليه في الطلاق ؟... قال بحنق : معاوية ، ان خدعتك لناتئة العين ، فلا تحاول اخفاءها . أتعرض علي مباعلة ابنتك حتى اذا ما اجبتك الى بغيتك وطلبتها امعنت في لومي

وايلامي ؟ ... هذا ختل بودي ان اصونك منه ، ولكنه ملموس الاديم يا ابن هند . ان السليم الطوية ليضيع فيكم . كان عليّ ان اماكر واكايد لمجاراتكم في ما ينتفض فيكم من لؤم . على اني وقد مشيت مكشوف الجبين غدرتم بي واذللتموني . وهي نهاية من يثق بكم من ذوي الحظ العاثر . ولكن في السماء رباً يدين واليه ألجأ في الثأر الغليظ !

ونهض يريد الانصراف . يكفيه ما لقي . فقال معاوية يمسك به عن الرحيل : الى اين ؟... لم يضمحل الرجاء . اجلس . صفية ، ما بك تخاشنين ابن عمك ؟... أهذه وصيتي لك ؟... عبدالله اقرب الناس الينا يا ابنتي ، فلا توجعيه . برّدي سعير انفاسه بعذوبة مقالك . ان عبدالله لمن هؤلاء الكرام القليل !

فارتاعت من دهاء ابيها . ان معاوية لكفور . هي تلقي ما دعاها الى التفوه به . انه لينطق بلسانها وهذه مشيئته . اما هي ، صفية ، فربما كان لها في عبدالله غير هذا الرأي . قالت وكلها اضطرار الى مشايعة ابيها في ميوله : ليس يجهل ابي انه جعل لي من نفسي شورى . فان لي مطلق اليد في اصطفاء من يهيم به جناني . لو كنت من عبدالله في خلجة الوجد لآثرته على الجميع . ولكني قاصرة عن تسخير قلبي . وعلى عبدالله ان يقابل هذه الصراحة مني بالرضا والشكر !

فصاح ابن سلام وهو ينتفض ألماً : كل ما بدر منك يقل فيه الشكر يا صفية . انت ابنة ابيك . غير اني لا ادري ما اهاب بكم الى الازراء بي . فصدمتموني هذه الصدمة واقتمتموني في الناس اضحوكة . سوف ادري . فالدهاء المنشور اللواء فيكم لا بد ان تنجلي اخاديعه . بيننا الغد يا ابن ابي سفيان !

فابى عليه معاوية مغادرة الايوان . قال : هذا مكانك ، فالى اين ؟ ... اذا تدللت اليوم صفية فقد تهوي غداً عن تشامخها . إبق بيننا . ثم ان صفية ليست معاوية . فان تكن لا تستشعر فيك الكلف فان اباها لكلف بك . هذه دنياك ، فتبسط فيها على رغد وأنس . فان في صدورنا قلوباً تنطوي لك على اجلال ومودة !

ولكنه لم يشأ ان يبقى . فلم يكن يملك القدرة على البقاء . وايقن ان ثمة خدعة محكمة ، غير انه عجز عن النفاذ منها الى الصميم . فماذا يخفي معاوية وراء مداورته ، ما هدفه بالتغرير باصدق الناس واخلصهم له ؟ ... ووثب عبدالله من الايوان بوجه قاتم ، ورجلين تلتويان . ولم يكن يبصر طريقه . فهو ضائع الادراك . كيفما امتدت قدمه خيل اليه انه يشرف على هوة . وتنفس بجهد . واصطكت اسنانه بعضها ببعض واطبقت كأنها فوهة كلاّبة ضاغطة . ولم يلجأ الى المنزل المحبوس عليه في دمشق بل تاه على ضفاف بردى حزيناً حائراً . أيكون نصيبه من معاوية هذا العسف ؟ ... يحقق له مبتغاه فيجبهه بالامتهان ؟

دعاه الى مباعلة صفيه فلم يمانع . اراده على طلاق ارينب فاجاب . وان في طلاق ارينب لتحطيم قلب ، وقص جناح ، ولكن كرامة امير المؤمنين فوق كل كرامة . فالتفاني في خدمته يحجب كل هوى ملحاح . على ان امير المؤمنين ، طال بقاؤه ، هزأ بكل تضحية ، وبكل وفاء . فما حفل بالطاعة العمياء ، ولا بالجهد المبذول ، فكأن لا قدر لديه للامانة والمروءة والاكرام .

وتذكر عبدالله مواقف معاوية كافة فاذا به حيال طاغية ماكر . يتلبس

بثوب الحمل وهو الذئب الحرون الشهوة، المسنون الناب . فيقضم كل ما يطول ولا يبالي النقمة ، ولا اللعنة . يراوغ ويلسع . يبدو في بردة الاخيار ليستحل المصونات . انتضى في مسجد دمشق قميص عثمان باكياً مستبكياً ليقصي ابن ابي طالب عن مسند الخلافة . فما استفز المسلمين الى الانتقام لعثمان ، بل الى انقاذه هو معاوية من عدل علي . فان استباحته اموال المسلمين رمته بسخط ابن ابي طالب، فاعتزم ابو الحسن عزله، فما كان منه الا ان استعدى على علي انصار ابن عفان للبقاء في منصب ولاية دمشق . وجاءه ابن العاص يزين له الخلافة فادعاها وليس من حق له فيها . وهل لمن ينكر على الخليفة دعواه الحق ، ويغتصب منه مقام الخلافة ، ان يقيم وزناً لطلاق رجل من امرأته ، ولوعد لم يقترن بالانجاز ؟

وساءل عبدالله نفسه : أيبقى في الشام ام يعود الى العراق ؟... ولكن كيف يلقى اريب اذا عاد الى العراق ؟... وبمَ يعتذر اليها ؟... أيجرؤ على مخاطبتها اذا جازف ومثل امامها ؟... أيقوى على رفع عينيه الى عينيها وهو في حضرتها ؟... انه لوقح ان يفعل . لا . سيبقى في ديار الشام ، على مقربة من معاوية . فيشتم الغادر ، ويدعو عليه ، ويعيره مكره . فليس في ما اقدم عليه ما يكتب له المحمدة . ان هذا الاحتيال في فصل الزوج عن الزوجة لشبيه الشبه كله باستلال الخلافة من علي . هنا حيلة منكرة ، وهناك حيلة منكرة . هنا غدر ، وهناك غدر !

وسأل ابن سلام روح تلك الغارقة في العراق في اساها الصفح والغفران . كان غرّاً جاهلاً وهو يدعى الى طلاقها ويجيب . شوّه صفحة الحب الاوفى ولم يبال . نسي العهد الطهور كأنه من عهده في مزاح . فتناسى الالفة

المطبوعة والهيام الصراح ليلتف بعباءة مهلهلة الخيوط تراءت له في المنام .

قال ووجهه الى بلاد الرافدين : ارينب ، ارينب ، عللني ابن عمي بالمنى الكواذب فخدعني عنك . فالرحمة لمن ليس خليقاً بالعفو . أتحجبين الرحمة عمن يقرّ بانه من الانكاد ؟

وومض عذاراه بدمعه . فهو يبكي حباً سلخه منه قوم ديدنهم الغش والمين . وخاف من جميع هؤلاء الدارجين حوله ، أما وقفوا على النبأ ؟... ولكنهم ينظرون اليه نظرتهم الى خائن نذل . ففي عيونهم احتقار وامتعاض . خدع ارينب فخدعته صفية . خدعة بخدعة . على ان الدائرة دارت عليه . فهو لا يملك حتى خيمة يستظلها . فكل ما ازدخر من ثروة بين يدي ارينب ، فهل له ان يسير اليها ويطالبها بالذخر؟... أتنقد فيه هذه الخسة وتكسو جبينه الصفاقة ؟... لا ، يكفيه ما غار فيه من اسفاف . فلن يحاول التسفل الى دون ما تسفل اليه . لن يذهب الى ارينب . سيعيش في دمشق . فالحرب بينه وبين معاوية . فاما ان يخرج من المعركة مفلول العزم ، هامد النفس ، او ان يتمتع بنشوة من انتقام .

سيبقى للجهاد ، لاماطة اللثام عن فضيحة معاوية وكيده الزنيم . فمن اخلاف وعد ، الى استهانة بالكرامة . وتلفت الى ما حوله بذهول الخائب وحنق الموتور وصاح : ايها العرب الضاربون في مشارق الارض ومغاربها ، أترضون ان يسوسكم ويتولى الامر فيكم ماكر محتال ؟

٣

تلك الزعقات المتطايرة من شدقي عبدالله بن سلام ، المخضبة بالدم القاني والنائح فيها الامل الذبيح ، لم تكن تجد في قصر الخضراء غير الصدى الكابي الحسير. فان معاوية ليقهقه بملء حنجرته ، ويشاطره القصر ومن في القصر القهقهة الهادرة كأنها شماتة السواقي بالصيف الموؤود . فالضربة اصابت الهدف ، وها هي الضحية تنتفض في دمها والسهم يشك في كبدها . ألا فليطرب يزيد ، قبض على شهوته بجمع اليدين !

قال معاوية وهو نفسه ارتاع من دهائه الحاطم ، المقوّض كل شامخ منيع : لم يبق الا ان نوفد اليها من يخطبها لك يا مهجة ابيك . لست اجد للامر سوى ابي الدرداء ، فهو صاحبنا العامل بمشيئتنا . فان هؤلاء المتناهين في التعبد يرضونني بسلامة الطوية . انتدبهم للمهمات وأطلق ألسنتهم في الحمد والتسبيح ، فينخدع سامعوهم بمكانتهم في الدين ويجيبونهم الى ما يبتغون ، على اعتقاد ان الله ينطق فيهم ، وما ينطق فيهم سوى امثال ابيك !

وتذكر ابا موسى الاشعري في مؤتمر اذرح وابتسم . اقبل ليحكم لعلي ابن ابي طالب فساقه ابن العاص بفطنته وحنكته الى حيث يريد . وكأن خاطر يزيد رشح بما رشح به خاطر ابيه . فالابن تذكر ابا موسى فيما يحدثه ابوه عن ابي الدرداء . وخشي يزيد ان يتشابه الرجلان . فيخلع ابو الدرداء صاحبه شأن ابي موسى في علي . ولكن في سبيل من يخلعه ابو الدرداء

وليس من مزاحم عنيد ؟... قال ابن معاوية : ارى ان يسرع ابي في تحقيق ما نعلل به النفس. فالقعود عن انتهاز السانحة قد يصير بنا الى ما وقعنا فيه. نمنا عن اريب فسبقنا اليها ابن سلام. واذا غفونا اليوم عنها يسبقنا اليها جمع حفيل !

ـ أتراهم منها على صبوة ؟

ـ ان فيها لمن نواضر الرونق ما يفتح عليها حتى العيون الرمد . ما عرفت حسناء تستهوي الحلي فتشجيه كهذه الروعاء النفور . تفجع ولا تؤاسي. اخاف ان تكون الساعة ببابها الوفود !

ـ وفود من يا يزيد ؟

ـ وفود الخاطبين يا امير المؤمنين !

وتأوه يزيد . وجمدت عليه عينا ابيه بهول مشدوه تتبينان فيه الهيام القهار . فالحب المتقد في الحنايا يتوهج في الاسارير على خشية . ليس هذا الفتى القلق النظرات ، الحائر النهية ، من يعرفه معاوية . فلقد تبدل يزيد حتى بات ينكر نفسه . فالخوف من ان تفلت منه اريب خرج به عن سحنته ، فكأنه على فوهة الخطر ، لا يبالي للنجاة من النار ان يقبض على كل حبل يعرض له ، حتى على الخيط النسيل .

واوجع معاوية الشغف المستحكم من ابنه . ان يزيد لمفؤود . يتراءى له ان الامصار العربية جميعاً تمشي الى اريب تزاحمه فيها على نهلة الحسن . وخاف معاوية على معقد امله ان يهون فيكبو فيما يشق له من طريق الى السؤدد والمجد . قال بوهلة : يزيد ، ساوفد اليها ابا الدرداء على اجنحة . اين ابو الدرداء يا سعد ؟

فانطلق الحاجب كالسهم المرنّ يبحث عن رجل الدين . واين يلقاه ؟... اما في المنزل او في المسجد . فلا مستقر له في سوى هذين المتكأين . وظفر به في المسجد . قال : امير المؤمنين يدعوك . اسرع . ان به اليك لحاجة يساورها الالحاح !

وتماوجت في وجه معاوية البسمة المألوفة ، الجاهزة ابداً للانتضاء ، فبسطها لابي الدرداء مجلوّة أنوساً وهو يقول : بابي انت وامي ، كيفما ادرت عيني لا اجد سواك للشؤون الجسام . ولقد اقمتك من نفسي حكماً عادلاً ومفوضاً براً ، فماذا يكون منك اذا انتدبتك لشفاء لاعج لجوج يحن الى ادراكه خاطري ويضطرم به صدر يزيد ؟

فوقف ابو الدرداء موقف المزهوّ المعجب. ان امير المؤمنين ليلتفت اليه في حل المعضلات . قال بهناءة المرتاح ، المثلج الضمير : ما كنت في خدمة امير المؤمنين الا ذلك المطيع . فليتدبرني بثاقب رأيه ووضاء تدبيره!

قال معاوية : تلك المهجورة في العراق نزلت من قلب يزيد منزلة الفتنة . فانها لتحرجه في منبسط الامان . ولست ارضى لابني اللوعة تعض قلبه وتلذع روحه . فعليك ان تتولى انقاذه مما يعاني وانت خير المنقذين !

فصاح ابو الدرداء : ولكن يزيد فرحة الزمن يا امير المؤمنين ، فكيف يتشهى ولا نجيب ؟... على اني في جهل من امر تلك المهجورة في العراق ، فمن تكون ؟

ـ هي ارينب بنت اسحاق ، ابنة عمنا وموئل اعجابنا !

فتراجع ابو الدرداء وقد اضطربت لحيته البيضاء واستدارت عيناه . وقال بذعر ماج حتى في مستدق اضالعه : ارينب بنت اسحاق يا معاوية ، مطلقة

عبدالله بن سلام ؟

ـ حزرت يا ابا الدرداء . هي هي . فهل من عتب علينا ونحن نزفها الى يزيد ؟... عبدالله سلخها منه ونحن نضمها الينا !

ـ ولكن يا امير المؤمنين ...

ـ وماذا بعد لكن يا صفيّ الرسول ؟ ... عبدالله طلق ويزيد يتزوج ، فهل في الامر ما يحمل على الدهش ؟... هذا مما لا يتنافى وشريعة العلي العظيم . فلن نأتي امراً إداً ولن نقدم على اثم . فما يحله الدين نستحله ولا نزيد !

فبلع ابو الدرداء ريقه كأنه يزدرد الشوك . وما استطاع الا ان ينضو عنه مخاوفه ويصارح معاوية بما يمور في نفسه فقال : اعتمدني امير المؤمنين حكماً عادلاً ومفوضاً براً ، واني لافاخر بهذه الثقة يحبوني اياها خليفة النبي . غير اني اخشى ثرثرة الالسن يا معاوية . فلستَ من الناس في حرز حريز . فلا بد للقوم ان يتقوّلوا ويهذوا . أتدري ما سوف يقولون؟... سيزعمون انك خدعت عبدالله بن سلام بابنتك صفية لتنتزع منه ارينب ليزيد !

فاخرجها معاوية صيحة تتهكم وقال : أتحسبني احفل بالافك يروج ؟... يزيد يهيم بارينب ، وارينب ليزيد . واني اعهد اليك في امر خطبتها له ، فاشخص الى العراق في موكب ثريّ واقرأ ارينب السلام وابلغها مشيئة امير المؤمنين !

وكان جازماً قاطعاً . ولم يجد ابو الدرداء من سبيل الى العزوف عن المطلب . فما يقرّه معاوية اشبه بالشرعة المسنونة . قال : اني لامير المؤمنين

على ما يفرض عليّ . فهو وجه الرسول فينا . ساشخص الى العراق واخطب اربنب ليزيد . على اني ادعو خليفة المسلمين الى اتقاء فورة الالسن ، فاذا طالت واستطالت كان لها في اثارة الشر الهاجع ساعد حديد !

فعبس معاوية . ان ابا الدرداء ليجرؤ على ما لا يحق لمثله المباحثة فيه . غير ان ابن ابي سفيان ، مع عبوسه ، وحنقه على ابي الدرداء لجرأته ، لم يكن يجهل ان هذا الشيخ ، المنصرف الى عبادة ربه اكثر منه الى معالجة قضايا العباد ، على صواب في ما يطلق فيه مقوله. فلن يخلو الاقدام على خطبة اربنب ليزيد من غمغمة امتعاض تهتز بها الدولة الاموية في متناهي بسطتها . ومعاوية يكره الغمغمات النواشز . ولكنه يزيد ، المقلة والمهجة . قال ابن ابي سفيان يدعو ابا الدرداء الى الاكتفاء بالامتثال للدعوة المعلنة : ما كنا نميل الى حرمان الناس حقهم يا ابا الدرداء . فلو اقامت اربنب في عصمة عبدالله لكنا اول من يتحامى الاجحاف ، اما وهي طالق فلسنا مكرهين على مجانبتها وقد ولع بها يزيد . اركب الى العراق مطية عجلى واذكر فينا الله !

فبسمل ابو الدرداء وحمدل . وقد يكون في سره حوقل : « لا حول ولا قوة الا بالله ! ... » . هذه رغبة معاوية ولا ندحة عن انجازها . واسرعت يد معاوية الى العطاء الجمّ تحمد به وساوس الشيخ الجليل المنظر . وهذا السخاء كان يكم الافواه ويصرفها عن الطعن والمثلبة . وانطلق ابو الدرداء الى العراق في ركب جامع وهو من امره على كتمان . فلم يشأ ان يطبل ويزمر للمهمة الموكولة اليه وفيها ما يقعد ويقيم

على ان القوم ، وقد ذاع فيهم ان صفية بنت معاوية رضيت عن عبدالله ابن سلام زوجاً ثم مالت عنه ، حسبوا لهذا الانقلاب الحساب المديد . فما

دعاها الى الرضا وما فرض عليها العدول؟... عبدالله هجر في سبيلها ارينب ، وهي قدرت عليه هجر تلك ،فما بها وقد اصبحت ارينب طالقاً وعبدالله حراً تنقض ما اعلن فمها وتمحو ما كتبت يمينها ؟ ... طرحت ابن سلام في الداهية ولم تكلف نفسها الرفق به . ان في هذا التغرير لفضيحة يجب ان يصون منها معاوية وجهه وهو غرة دولة ناشئة على انفة واعتزاز

والجميع لمسوا في الخدعة يد معاوية . وقام من يقول : معاوية فصل عبدالله عن ارينب ليزفها الى يزيد !

والناس لايخلون ممن يغوص على المبهمات المغلقات فيفتحها على مصاريعها . وشاع الخبر حتى عمّ . وتناقله من في العراق قبل ان يبلغ ابو الدرداء اطراف السواد وضفاف الفرات . فضج الشام والعراق معاً ضجيج المرعوب . انها لصفقة مستذئبة هدم بها ابن ابي سفيان بيتاً ورغداً وقلبين . وباتت الخدعة حديث كل من أوتي النطق مع سقاطة من فهم .واعجب فريق بمخاتلة ابن هند وغمز منها فريق . فالحزبان الهاشمي والاموي عادا الى الظهور بمضاء ، حتى ان الكثيرين من انصار معاوية نقموا على معاوية .ففي استفزازه ابن سلام لطلاق ارينب كي يستأثر بها يزيد قحة وذلة لا ترفعان رأساً ولا تشفعان في طيب احدوثة

ودرت جعدة بنت الاشعث الكندي فهاجت وتفتقت جراحها . معاوية ويزيد ضحكا من عبدالله بن سلام كما ضحكا منها . يا للطغمة الطغام ! ...وما اكتفى الاب والابن بحبك المكيدة ، بل شاطرتهم ركوب الغواية الابنة صفية شقيقة يزيد . تلك دار تضيق بالافاعي. سلالة ليس من شأنها الا الدس والكيد ونفث السم وازعاج الارواح . فيا لخيبة البناة كم عقدوا من امل

على هذه الدولة الفتية وكم اضطرب هذا الامل حتى كاد يضمحل !

ووثبت جعدة الى دار ارينب . فلا تبرح دامية الحشاشة، ثائرة الاحقاد. يزيد سخّرها في بلوغ اربه ثم سلاها . بل هو رضّ فيها الرجاء النامي بعدما لطخت في سبيل ادراكه يديها بالاثم . لا ، لن تكون ارينب ليزيد . ودخلت جعدة على ابنة اسحاق وهي تتلظى اضطغاناً ونفوراً . قالت بحنق المكلوم المغبون : ارينب ، اختي ، أتدرين ما يبيّت لك اخوان ابليس ، ساكنو النار ؟

وارينب ما برحت على انزوائها ، تأكل حسرتها وتعيش باساها . فلا تتفتح شفتاها لسوى الزفرات تطلقها ناراً تلذع وتذيب . ففي نأي عبدالله عنها تحطيم جنانها وتهشيم كرامتها . وجل ما طمعت فيه وهي ترزح باشجانها ان تعلم ما غرّ عبدالله ففصله عنها ؟... ووقفت من جعدة موقف الرهبة ، اي شر يرقبها ؟... أما اكتفى الناقمون عليها بابعاد ابن سلام عن مهجتها ؟... قالت وفي فمها جفاف وفي ناظريها سهوم : ومن هم اخوان ابليس يا جعدة ، وماذا يبيّتون لي ؟... اقلقت خاطري المهيض !

وهي تعرف جعدة وتلمّ بحكايتها . ونفذت من هذه الحكاية الى اللباب واستلت السر . هيام جعدة بابن معاوية قضقض الحسن بن علي في نعمائه وعمره . ثم كان ماذا ؟... اعرض يزيد عن الارملة الكفور واطعمها الشجن. قالت ابنة الاشعث الكندي : معاوية يريدك لابنه يزيد واوفد اليك من يخطبك !

فهالها النبأ . ومضت في عينيها الذكرى ، يوم اصيب معاوية بطعنة الخارجي وغص قصر الخضراء بالوفود . فاقبلت يومذاك على الطبيب الساعدي

بين من تحلق عليه من النساء المعجبات. واذا بيزيد بن معاوية يحبو لشكر الطبيب المنقذ . وما كاد يراها حتى عقد لسانه وارتج عليه وصبّ عليها نظراته . ولولا ان تنسلّ بين الجموع وتتوارى للغط القوم بحب يزيد لها . ولو شاءت لاسرت يزيد وهو كلما رآها استقر منها على شده. غير انها تعرف ابن معاوية معشاقاً هاجراً ، وليست تبغي العذاب في دنياها ، فتهوى من يحبها اليوم ويسلوها غداً . ثم هي على شغف بعبد الله بن سلام ، ابن عمها، ومن طبعها الثبات في المودة. واستطلعت بجزع: أأوفد اليّ معاوية من يخطبني لابنه يزيد؟

ـ نعم، نعم يا ارينب . ولست اغبطك على هذه النهاية ، نظرة من عبدالله تساوي يزيد واباه . اني اخاف عليك من مكرهما يا ابنة عمي. والله ما في القوم غير شر وغدر !

ـ ومن ابلغك النبأ يا جعدة ؟... انك لتحدثينني بما لا تصدق اذني . كيف طلقني عبدالله واقبل يخطبني يزيد، أيرغب ابن امير المؤمنين في من طلقها عامل من عمال ابيه ؟

فوضح لجعدة ان ارينب تقيم مما يساورها على جهل مطبق . فلا تدري ما يحاك لها من احابيل . قالت بدهش : أتكونين غريبة عما يراد بك؟... معاوية ما دعا عبدالله اليه الا وهو يبغيك !

فصاحت بهلع : يبغيني يا جعدة ؟

فتصاعدت انفاس ارملة الحسن بن علي لهبة بركان ، وهزت برأسها لفرط ما خبرت من لؤم الزمن وقالت : ما وجه ابن ابي سفيان دعوته الى عبدالله الا وانت مطلبه . فالدعوة لك لا لابن سلام . وفي دمشق خاتل معاوية وماذق . فادنى منه عبدالله ، وقبله في كتفه ، وضمه الى صدره ،

واوهمه انه لديه بمقام يزيد . واني لاتمثله في ابتسامته المصنوعة الخادعة ، وفي كلماته المعسولة المبطنة بالسم . وجرع عبدالله السم وهو يحسب نفسه يشتار العسل. فزخرف له معاوية انه سيزف اليه صفية ابنته على ان يطلقك. فوقع عبدالله في الشرك وعالنك الطلاق . ولكن صفية لطمته باحتقارها وادارت له ظهرها ، فهوى في ازقة دمشق يعوي كالذئب الجريح . واتجهت الانظار اليك وانت عنوان الكتاب ، فدفع اليك معاوية من يخطبك لابنه . حل عنك عبدالله وثاقه ليوثقك يزيد . وانك لصائرة الى حجر الاحناش اذا استسلمت الى مشيئة اولئك العابثين بالعهود ، المستحلين المحرمات. انا اشفق عليك من استهانتهم بك. ربما اعتمدوك في ادراك مأرب ثم نبذوك كما فعلوا بي . حذار ان تستنيمي اليهم . فانك منهم لعلى خطر . وهل من يأمن شرّ العقارب والثعابين ؟... يزخرفون لك العاطفة ليطرحوك في الهوة ، حتى اذا ما تدحرجت اليها اخذتهم فورة من ضحك شامت . والفاجعة لا تنتهي الا وقد سحقوك واجهزوا عليك. نجنا اللهم من عصبة الكافرين. اني لارتعش خوفاً كلما تمثلت هؤلاء الاوغاد الاشرار . صانك ربك من اذاهم يا اختي !

وارتجفت جعدة كأن بها البرداء . فما كال لها معاوية ويزيد من هضيمة لا يبرح ينكأ فيها ناغر الجراح . طوّحاها في بؤرة الهلكة وانكراها . هذا منتهى الجحود . ووقعت كلماتها على اريتب موقع الرهبة . اي نبأ مخوف يتساقط في مسمع ابنة اسحاق ؟... أيكون معاوية دعا اليه عبدالله بن سلام ليفصله عنها ؟... أتكون هدف مكيدة ؟... اذاً صدقت ظنونها. ألا كم نهت عبدالله عن الركون الى معاوية ، كم حذرته منه . قالت : « انه ليبيعك ويشتريك بمخمور الوعد ومبرقش الكلم. يعالنك انه يروم لك الخير وليس

يبطن غير النكد !... » . ولكن عبدالله لم يسمع . فهو بشوق الى معرفة ما يخبىء له ابن ابي سفيان من المبرة . ايمانه بمعاوية رجح على ايمانه بامرأته . امرأته ليست امير المؤمنين !

وكم ألحت عليه في البقاء بجانبها ، في سد اذنيه عن نداء الخليفة . على انها ليست تملك من الكلمة المسموعة ما يتحلى به ابن ابي سفيان سيد البـــدو والحضر . فان معاوية لقابض بيمينه على الارواح ، يسعد ويشقي . اما هي فلا تقوى على التحكم حتى بعبدانها . فاين سلطانهـا من سلطان قاهر ابن ابي طالب ابن عم النبي ؟

اقدم معاوية على المخاتلة ضاحكاً من عبدالله بن سلام وهو يبتلعه كما يبتلع اللقمة . يأكله ويشرب عليه ولا يغص . غير انها تريثت في الايمـان بجعدة الناقمة المضطغنة وقالت : اراك تبالغين في ما افضيت به يا ابنة الاشعث ، معاوية لا يتسفل الى هذا الحضيض !

فكادت تشتمها وتنعى عليها قلبها السليم . انها لفي غباوة فاضحة . قالت جعدة وهي تتواثب في مستقرها لفرط حرقتها : كنت احسبك ابعد رأياً في معاوية وابنه . سخرا بزوجك كما سخرا قبله بي . جاملاه ليطلقك منه ووعداه بصفية ابنة الخليفة . وما نالا منه طلاقك حتى تجاهلاه ، فليسا يعرفانه الساعة . وسيفد عليك من يخطبك ليزيد . وانك لفي جنون مطبق اذا رضيت بمـــا يريدانك عليه . فالموت يرصدك . قد يهواك يزيد اليوم ويملّك غداً . فما ان يرتوي منك حتى يركلك . هذا فتى لا يختلف عن ابيه . فالناس في معتقده مطايا لمقاصده . يسوقهم في خدمته ليشيح عنهم فور ادراك المرام . فالبشر في عرفه عبيد ، لا يصلحون لسوى التفاني في الاسترقاق له وفي تقبيل نعليه .

كأنه سبكهم بيده وصبهم في قوالبهم احياء يسعون. ذقت منه الويل مخدوعة بمنمّق بيانه . لا عاش يوماً يتبين فيه النور !

فقالت ارينب مدهوشة: وهل وعد معاوية بصفية كي يجيبه عبدالله الى الطلاق؟

— وعد ثم نكث . عبدالله اطاحه الغدر يا ارينب. وهل يملك العصفور قوة البازي ؟... هل للنملة ان تضارع في كيدها الثعلبان ؟... لا تلومي عبدالله في سقوطه ، فهو ضعيف . ان اللوم لعلى الذئب الخاطف ، المعن في النهش والقضم !

فاقلقتها جعدة فوق ما ينتابها من قلق . وران عليها الوجوم . انها لفي تيار يتقاذفها الى حيث لا تدري. ورهبت غدها وهو غد مشؤوم . ونفر من عينيها الدمع كأنه بات لا يطيق في محجريها الثواء ، فسال غزيراً ذليلاً على خديها الصفراوين وقد ذهب منهما الالم بالنضارة المشرقة الالوان

وهال هذا الدمع جعدة . فهو دليل الاستخذاء لا الجرأة والعنف. وابنة الاشعث الكندي، وقد اكتوت بنار يزيد وابيه ولا تبرح على لوعة وحرقة، نازية الجرح ، فوّارة الضغن ، ارادت ابنة اسحاق صائحة ، مزمجرة ، تشتم وتلعن ولا تعف عن السبة . شاءت ان تبصرها في متمادي الغيظ ومنتهى الثورة . فالدمع الصامت ، المتلاشي ، سلاح مفلول ، محطم ، لا تتوهج فيه الصلابة الحاقدة ، المتوعدة ، الواثبة الى التهشيم . وخافت جعدة حيال مظهر هذه المطلّقة المبتغاة ان تلين ارينب في مطلب ابن معاوية . فلا تملك القوة على مجابهة يزيد . فصاحت بها : أتبكين ؟... كنت اشتهيك في نقمة ، في عصيان . فالمكر جعلك ضحية مبتذلة . انت الآن مسحوقة القلب ، دامية الكرامة . انت سلعة يتاجر بها يزيد وابو يزيد . وليس للمنكوبة مثلك ان

تكتفي باطلاق ماء عينيها ، بل عليها ان تنتضي حزازاتها واوتارها وان تلطم بها وجوه الروّاغين. فانت مدعوة الى وجر ثعلب لا الى بلاط ملوك. واي بلاط هو ذلك الصرح الحافل بالخبث والمواربة ، المحشرجة فيه الضمائر كأنها صرعى القبور؟... لا تبكي ، فالموقف يدعوك الى الكفاح ، الى الصراخ ، الى فضح الظلم والجهر بالمحنة . معاوية سلخك من زوجك ليزفك الى ابنه ، هذا ما يجب ألا تخامرك فيه الريبة ، فعاندي وقاومي ، انك لمالكة زمامك وليس لقوة مهما استطالت ان تصرفك عن هواك التليد !

فلم تجد ارينب غير الدمع من جواب مستطاع . فهي تصوغ من حبات عينيها عقد الشكوى . ففي كل دمعة خطاب وبيان . معاوية ظلمها بفصلها عن عبدالله . وانتفضت في حيرتها كالطائر الذبيح في مترقرق دمه . فتأففت جعدة وهي الطامعة في الغليان المستأسد ، في النشوز الفلتان ، العابث بكل عنيد جبار . قالت وفي ناظريها نيران تتأجج ألماً وغلًا : دمعك صونيه . هذا ليس اوانه . جل ما ادعوك اليه ان تمانعي في طلبة معاوية وابنه يزيد . يجب ان ترفضي بازدراء ، باستهانة . انت سيدة الموقف . ان معاوية لمن عبيدك الساعة . وكم تزدادين قدراً وانت تمانعين وتنتقمين لعبدالله من قاتله ، ممن اصفى دمه . فالويل لمن يقتل ولا تغرورق كبده بنداوة من رأفة . عالني من يقبل اليك ليخطبك ليزيد انك تأبين ان تمدي يدك الى من تخضبت يداه بدم زوجك المظلوم البريء . صارحيه انك لا تصبرين على الدس ولا تصبو نفسك الى المحتال !

فما زاد الجواب على دمع يقطر بسخاء . فلم يكن من جعدة الا ان وثبت على هذه المقتعدة نشيجها الاسيان وهزتها كما تهز غصناً مثقلًا بجناه

وصاحت بها : أسامعة انت ام غائبة عن الرشد ؟... اخانعة ام غاضبة للحب الطعين ؟... ألا يختلج فيك حس بحب عبدالله ؟... انا قتلت ابن فاطمة لاجل هؤلاء الانكاس ، فماذا كان منهم حيالي ؟... لفظوني كالعظمة ، كالدرن . نفروا مني كأني الوباء . ولا ترقبي ان ينالك منهم غير ما نالني من كفران بالجهد المبذول . فاستبقي اباءك وشمك واضربيهم في صدورهم . لتنزل بهم لطماتك كاوية دامغة يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل . فالكيد يجب ان يلقى من يصده عن جموحه ، وانت وحدك تقوين على هذه المعجزة الحرون !

فتكلمت ارينب وقد شعرت بقبضة جعدة تكاد تطحن ذراعها وتخلع كتفها . قالت : أأنسى عبدالله يا جعدة ؟... هو مني في مستقر الضمير ، فكيف اعدل به سواه ؟... عبدالله اول من عرفت وآخر من اعرف ، فلن اكون ليزيد غير رمة من عظام ، جثة بلا انفاس !

فانتعشت جعدة . هذا هو المطمح . والتوت على ارينب تضمها اليها وهي تقول بارتياح فضفاض : عوفيت . هذا الطبع النبيل غير عجيب اذا تجلى فيك وهو منك في حرز مصون . وانك لتحسنين الى الوفاء ونصوع الجبين وانت تعرضين عن دعاة النفاق والرثاء . هؤلاء قوم يذلون امام القوي ويشمخون على الضعيف . يعفرون جباههم في تراب نعليك ما دامت الحاجة اليك ماسة ، ويدوسون هامتك بنعالهم عندما يدركون المطمع ويتوافر لهم المغنم . انبذيهم ، انبذيهم وانت الرابحة يا اختي !

وطفح قلبها بالمسرة . ستنحر يزيد كما نحرها . مزق قلبها وستمزق قلبه . خيبها في حبها وستخيبه في حبه . سن بسن وعين بعين . فما اشهى وما ابهى !...

قالت جعدة : اختي ، هؤلاء الظالمون يجب ألا يبطروا . فان لم يقم في هذه الامة من يغالبهم ويرد لهم الهضيمة هضيمتين أكلونا وازدرونا غير مكترثين . فالتيار الهادر يجب ان يقف ولو عند شجيرة معترضة كي يعلم الجميع ، القريب والبعيد ، ان للطاغية حداً لا يجاوزه ، وان اموره لا تدرك باجمعها التوفيق . فلا بد له من مزلق خطر ينحدر فيه. معاوية لم يشعر حتى الساعة بالحزية ، فكوني اول من يصدمه بها ويلقمه اياها . مغتصب الخلافة لا يجوز ان يستتسر حتى يطاول الافلاك، فيرقى من ظلم ، الى ظلم ،وليس من يكعمه في غيه ويخرج به عن ضلاله . انت من اصطفاك الله لزحزحة الباغي عن عسفه ، فلا تحجمي ولا تضطربي !

فغمغمت : ليهب لي الله القوة على النضال !

قالت جعدة : وستجدينني ابداً بقربك اعينك وانصرك على امرك . فلا ترهبي . عين الله ترعاك . ومن رعته عين الله أمن العثرات !

وشددت من عزائم هذه السكرى ، المتراخية الاعصاب ، لفرط ما جرعت من الم وما اختمرت به من اسى . ستسددها الى قلب يزيد حربة نافذة لا تبقي على علالة من روح . ساعة الانتقام تدق ، فما اجملها من ساعة طاحنة يدرك بها ابن معاوية ما يعاني من اليأس والغمة الجريح الامل ، المنكوب بالحب الاثيل !

٤

ذلك الركب الممتطي صحراء الرمال الى الكوفة لج به الشوق الى بلوغ عاصمة الخلفاء الراشدين ، المدينة المشيدة في عهد عمر والثاوي فيها علي وابناء علي . وتضايق ابو الدرداء من طول الرحلة وتبرم بمشقة السفر . لماذا انتدبه معاوية لهذه المهمة الناصبة وقد كابد في الطريق الكلال والضنى ؟ ... هو شيخ يحبو على ثلاث ، ويكاد يدب على اربع . غير ان المدينة تماوجت في ناظريه دكناء تترقش باخضرار النخيل ، فتنفس وشكر الله : سبحانك اللهم ربي هادي الضالّ ومنقذ الحسير !

واستفاضت في ذهنه ذكريات رحاب . ان الكوفة لصفحة عذراء من هذا الدين الجديد الممتد البساط . يضيء فيها وجه الفاروق وابن ابي طالب ولا تزال تتألق بالحسين بن علي حفيد الرسول . وخشع ابو الدرداء وهو يذكر الرسول . والتمع في وجهه نور علوي كأنه في ابتهال غاب به عما حوله من حس وجماد . فحث مطيه الى حيث يلقى حفيد مستنزل الآيات وفاتح طريق الجنة . وغمغم الفاتحة : اياك نعبد واياك نستعين !

ولم يشأ ان يهبط الكوفة دون ان يعرج على ابن بنت النبي . فهو يؤثر رؤية الحسين على رؤية اربنب . ابن فاطمة ثم ابنة اسحاق . والحسين بن علي يومذاك سيد العراق روحاً . تخلى شقيقه الحسن عن الخلافة لمعاوية اما هو فما تخلى عنها . فلا يزال ممسكاً عليها بيد لا يرتخي لها عصب ولا يحيد عود .

والكوفة نصرت الحسين كما نصرت اباه واخاه . ولكن أتخذله كما خذلت اباه واخاه ؟... وسأل ابو الدرداء : اين مقر ابن الامام ؟

انه ليضطرب هياماً بتقبيل راحة من قبله النبي في فمه وهو لا يبرح في الاقمطة لا يأنس بفطام . ومن يجهل مأوى ابن علي ؟... فما تلفظ ابو الدرداء بالسؤال حتى انبرى له الدليل . واذا هو امام صرح اقتعد الثراء وتلظت فيه سورة المجد . وترجل ابو الدرداء . هذا مكان تخلع فيه النعال . وانحنت هامته كأنه يزحف الى المسجد . واستأذن برهبة . سيصافح يداً لامست ركن الاسلام وسيده الميمون . وخيل اليه ان عين النبي تشرف عليه من سدرة المنتهى ، وان علياً يبسم له ويدعوه الى الحدب على ابنه ، شطر قلب فاطمة البتول . وورد الجواب ان بوسع ابي الدرداء الدخول . فما كاد صاحب الرسول يتماسك لفرط البهجة . ولم يدر كيف يميل على راحة الحسين يلثمها ويتبرك بها وهو يجمجم : الله اكبر ، الله اكبر . ربي ، اعتقني من دنياي وخذني اليك . لقد اكتفت نفسي بروائع زمنها ما دمت اتمتع برضوان حفيد النبي !

والحسين لا يزال يتلألأ بنعمة الشباب مع انه يوشك ان يكون منها في الفصل الاخير . وسره ان يرى ابا الدرداء في الكوفة يسلم عليه ويذكر فيه من مضى من القوم الصالحين . قال : ومن رمانا بك يا ابا الدرداء ، فشاهدناك في هذا البلد المنسي ؟

فاجاب وهو يبسط يديه للضراعة ، كأنه يشكر لربه ما جلبه به من عطف رحيب : حسن حظي يا امير المؤمنين . ابى الله الا ان يمتعني في بقيا عمري برؤية ابن علي وفاطمة . الصلاة والسلام على محمد جدك العظيم !

فقال الحسين وما غاب عنه ان ابا الدرداء منتدب لامر لا صلة له بما اعلن : ان الفرحة لتلمّ بنا ونحن نراكم في اكنافنا تذكرون السلف الامين، على ان دمشق عوّدتنا يا ابا الدرداء ان لا تطلقكم الينا الا وفي صدوركم غير السلام على حفيد النبي . فما كلفك معاوية من شؤون ؟

فابتسم ابو الدرداء وقال: والله لكأنك تقرأ في قلبي يا ابن بنت النبي. الا اني ما جئت اليك لسوى اداء فريضة السلام على زين شباب المسلمين . فليس بين ما انتدبني له معاوية وبينك سبيل الى الميلان عليك . عهد اليّ ابن ابي سفيان في ان اخطب ارينب بنت اسحاق لابنه يزيد !

فضحك الحسين ضحكة المدهوش واستفهم ناقِدَ الحدقتين : جئت تخطب ارينب ليزيد ؟

— هو ما يقول سيدي ، جئت اخطب ابنة اسحاق لابن معاوية !

— ولكنك تحيرني يا ابا الدرداء . انتهى اليّ ان معاوية شدد على عبدالله ابن سلام في طلاق ارينب كي يزف اليه ابنته صفية ، فكيف يطلقه منها ثم يخطبها ليزيد ؟

فهز ابو الدرداء رأسه . مجال القول ذو سعة والصدر يضيق بالحوابس . وكل ما يبذل معاوية من سخاء لا يمحو الأنّات الشواكي . فالظلم لا بد له من ألسنة تنعاه على الطغاة المتجبرين . قال ابو الدرداء وهو ينفخ اشجانه كأنه يردّ بها جرحاً يلتهب : زاد الله في عمر حفيد النبي وابقاه لنا دوحة مديدة نتفيأ منها الظل . ان معاوية ليبالغ في التحكم ببني قومه. فهم لديه من السوائم وليس يبالي فيهم كبيراً ولا صغيراً. فما يبغيه لا سبيل الى الاحجام عنه . ولقد رأيته في مجلسه يتعمد الحرص على اموال الناس . يحرص عليها وينصف

المهضوم المنكوب. غير انه في شؤون نفسه ارعن اعمى، فلا يبصر ولا يجامل . فالمخـــادعة والمماكرة جائزتان في شرعه . واني لاتعجب من رجل جمع في صدره الخير والشر . فهو الحليم الصراح والمخاتل القحاح . تستنيم اليـه ولا تأمن غدره . تجد فيه السماح الارفع والروغان الانكد . لست والله اعرف له شبيهاً يا ابن علي . فهو سر مغلق ، ظاهره يجهل باطنه . ولقد خدعنـا في عبدالله بن سلام ولا يزال يخادع ونحن له مطايا. كلفنا الترحيب بابن سلام واذا به يتنكر له . دعاه الى دمشق ليعقد له على صفية ولم يلبث ان حجبها عنه بعد ما اكرهه على طلاق ارينب . والخدعة وضحت وتحدث بها كل من في دمشق ، غير انها في حينها ندّت عن الجميع . فما استيقظ فيها ضمير الا وقـد نفذ القضاء . معاوية داور ابن سلام ليخلعه من ارينب ويخلع ارينب علىٰ يزيد . وهو مكر فاضح، الا انه دهاء لا ينضح بمثله سوى جـامع الضدين ، معاوية بن ابي سفيان !

فتمثل الحسين مكايد معاوية الحواطم، الضاربة في ركن الشمل النظيم ، وقال وهو يتألم لوقوف الرجل حائلًا دون موكب الاسلام المتهـــادي على حكم محمد بن عبد الله الرشيد: ما كنا نعتقد يا ابا الدرداء اننا سنبلى بمن يقوّض المعالم ويبدل السنن . معاوية غالب بالخديعة وغلب. نهض بدعوته وهو موقن انه خاسر فيها واذا به يربح ونقع في الخسران . جال البـــاطل جولة غير مأمونة المغبة ودحر الحق وفاز . ولست اتعجب من كيد معاوية مثلي من حماقة هذه الامة السائرة في خطوات معاوية . كل من فيها مؤمن بان الرجل على ضلال ومعظم من فيهـا يتبعه . اشترى الضمائر واخرس الالسن ونحن نشح باموال المسلمين ان يلم بها الاسراف . كنا نبخل على انفسنا بالدرهم ،

فلا ننفقه مخافة ان تدهم الحاجة بيت المال ، ومعاوية يغرف من بيت المال ويجيز انصارنا فيفصلهم عنا . انها لمصيبة يا ابا الدرداء خبرنا فيها طباع الناس . فهم بجانب من يطعمهم حتى ولو اطعمهم فلس اليتيم ، واعداء من يصون فلس اليتيم ومال الدولة لكونهم لم ينعموا برفده . تبـــاً لهم من جشعين لا يفكرون في سوى انفسهم ، في ملء الجيوب والبطون!

وسكت الاثنان ، الحسين وابو الدرداء . وانتصب امام كل منهما شبح معاوية ، شبحه الرهيب . رفعه مينه وغدره الى حيث لم يكن يرجو الوقوف خاشعاً متهيباً . كان قانعاً بمنصب والٍ من الولاة في الدولة المسيطرة ، فبلغ السدة العليا بقحمة وقحة لا يتمكن منها غير المجازف المقدام . وتوجـــع الحسين والمقام الاعلى يفلت من ابيه ومن اخيه ومنه . ونطقت فيه احقاده فقال : على اني لم ابايع معاوية يا ابا الدرداء . فالخلافة من حقي واني لاطالب بها . ويتراءى لي ان المسلمين في نصرتي . فلن يتخلوا عني حباً لابن هند . انهم ليرهبونه اليوم ويتقونه . اما غداً ، يوم يفتك به قاطع الانفاس ، فلن يجدوا سواي ليعقـــدوا له الراية على مرتبة الخلافة . وسوف يرى الحزب الاموي اي منقلب يصير اليه . سندرك البغية يا ابا الدرداء . فالظلم قلق الدعامة ، ذو عمر قصير !

واذا الباب يدق . وبدا الحاجب في حضرة الحسين ملتوي الهامة قائلاً: بالباب امرأة تريد المثول بين يدي سيدي !

فالتفت اليه الحسين مرفوع العنق وقال : امرأة ؟ ... ومن تكون ؟

— لم تعلن اسمها ولا لاح منها وجه . فهي مقنعة تلتمس من مولاي ان يأذن لها في ابداء ظلامة تعروها !

فاعلن ابن علي : أتقف ببابنا امرأة تتظلم ولا نسعفها في الانتصاف من ظالمها ؟... لتدخل . نحن هنا لدرء الظلم !

واطلت قامة يموج فيها الدلال، مقنعة بالسواد ومجلببة بالسواد . وانحنت وافضت بالتحية بصوت ترتعش فيه الانوثة الدهاق . قالت: السلام على ابن الامام وحفيد سيد المسلمين !

فنظر اليها الحسين نظرة حادة ، ثاقبة ، حاول بها ان ينفذ الى كبد هذه الواقفة امامه ، المحجوبة عنه . فمن هي وما تبغي ؟... قال : والسلام عليك ايتها المرأة ، فمن انت وما هي حاجتك ؟

فاجابت : امرأة مظلومة جاءت تنتصف لدى سيدي وابن سيدي !

فغمرتها عيناه برأفة صبحى وقال بصوت بليل: وماذا استطيع فيك ايتها الظاهرة المحجوبة ؟

— تستطيع كل شيء . انت وحدك تقوى على انقاذي من كربتي !

— ولكن ايدي ظلامتك ، لسنا نحجم عن اجابة !

فاستطلعت بوجل : أتنيلني بغيتي حتى وان اكن اسأت اليك ؟

— اساء الينا الكثيرون فعفونا عنهم ، ولا بأس ان تكوني من هؤلاء. تظلمي ، كيف نقوى على دفع الملمة عنك ؟

— تقوى على دفعها بكلمة ، بايماءة . فما لك الا ان تشاء يا ابن علي !

فراعته قولتها ، وطغى عليه الحلم فقال : كوني من شئت فان حاجتك لمقضية عندي !

فسقط عن وجهها قناعها، وما كاد يبصرها الحسين حتى صاح بسخط رعّاد: انت ؟ ... انت جعدة قاتلة اخي ؟...لا والله ، لست اعفو عنك في شعرة

من هدب ، اخرجي !

وارتجف حنقاً وكرهاً . قاتلة اخيه الحسن تمثل لديه تتنصف ، بل توجو سماحاً وعفواً . أيطيق مرآها ، أيجوز ان تفيض شفتاه بالعفو عن مطعمة اخيه السم ؟... وكاد يمشي اليها فيقبض منها على خناقها ويستل روحها . ولكنها امرأة . فاكتفى بان يصيح بها : اخرجي ، اخرجي ، اني لاتمثل فيك ابليس اللعين . تكاد روحي تنسل من اضالعي وانت في حضرتي . ابعدي يا فاجرة . انت ممن ساعدوا على تقويض مجد الهاشميين !

وتشنجت اعصابه فبدا راعباً يقطر الغضب من كل عرق فيه . ولم يكن من جعدة الا ان جثت عند قدميه تبللهما بدموعها وتقول : عفوك عن امرأة مشؤومة انزلت التعس بها وبزوجها الامين . رفقاً بطائشة منكودة ادركتها الخيبة العضوض . جاهلة لم تشعر بالهضيمة الا وقد طار السعد المؤاتي ، فاقامت تتحسر على الكنز المفقود وتلعن نفسها ومن خدعها ودفعها الى الاذى اللئيم . اقتلني بيدك انتقاماً مني للحسن اذا ابيت ان تعفو عني !

وحكى فيها الدمع ما لم يقو اللسان على ادائه . وارتاع ابو الدرداء حيال المظهر الرهيب وقفّ شعر رأسه . ما هذا الاقدام في جعدة وقد تجرأت على المثول بين يدي الحسين تطلب عفوه وتستندي حلمه ؟... والحسين يلين حيال الدمع فاطرق . وعدها بقضاء حاجتها ولم يجد بداً من الايجاز . قال وقد تضاءلت فيه النظرة المتوعدة : اذهبي ، لقد رتعت في عفوي ، ولكن حذار ان تعودي . بابي مقفل دونك . أغربي !

فلم تتحرك . ظلت في سجدتها عند قدميه . فصاح بها بنزق : انصرفي ، اريد ان تنصرفي . لست اطيق ان تدنسي داري بانفاسك الوبيئة . هذا

ليس مكانك ، انهضي وابرحي منزلي . اخاف ان تنهار هذه الجدران وانت تأوين اليها بدمامة روحك يا ابنة الاثم !

فاجابت وهي تشرق بدمعها : من حق من تمتعت بعفوك ان تستقر في دارك . مأواك لا يضيق بمن اتسع لها سماحك !

فغلبته على امره واحس بالقهقرى . جعدة الخائنة اقوى منه في سلاطتها . وبدا في موقف المرتبك العابث به الاكمداد . قال : وفي مَ تطمعين بعد عفوي ؟... اكلتك النار !

قالت : في خدمتك ، فاكون لديك أمة تسهر عليك وتكفر عن جنايتها على اخيك ؟...مثواه الجنة !

فصاح بها : أيطيب لك ان تودي بي كما اوديت بالحسن شقيقي ؟... يا مجرمة ، هل كتب عليك ان تدفعينا الى الرمس صنواً بعد صنو ؟... اخرجي والا دعوت الخدم الى طردك . ما رأت عيني ذات قحة تضاهيك في صفاقة جبينك . هذا هو الباب ، فاذهبي لئلا تمحو يدي ما افاض به سماحي !

فشهقت وتدحرجت في الارض . لقد اغمي عليها . فتأثر الحسين ونادى اليه الخدم قائلاً : اسعفوها واحملوها الى دارها . هذه امرأة لا مقام لها في حمانا !

فكأن اليقظة عادت اليها وهو يدعو الى اقصائها . فنهضت من سقطتها وقالت بذل المستجدي: سيدي ، لن يطول مقامي لديك . جلّ ما استرحمك فيه ان تبيح لي الثواء في كنفك لهنيهات قد يصبر عليها حلمك النديّ !

فقال ابو الدرداء مستشفعاً : لا تغلق دونها مستفيض عطفك يا ابن علي . عفوت عنها فلم يبق من ضير في استظلالها رفقك !

واشتدت بالحسين الجهـــة فقال : انك لتحملني على ما تكره نفسي

يا ابا الدرداء . لابأس ، لتستقر فينا هذه المشؤومة !

وتصاعدت زفراته تكاد تنوء باعباء آلامه . صفحه عن قاتلة اخيه محنة كفور . على ان جعدة داورته ونفذت الى فسيح رحمته فنالت منه ما لم تكن ترجو فيه هباءة . والتفت اليها الحسين يقول بصوت ساورته البحة : وما تريدين يا امرأة ؟

فاجابت وهي تستحم بدمعها : لا وفق الله من فصل بيننا يا امير المؤمنين!

وناداته بالخلافة والخلافة مطمعه . واجادت استدرار عطفه بهذا النداء المشتهى . قال : لا وفقه الله مرتين ، ضربنا في عميدنا واباحنا للشماتة الآثمة . ماذا ترتجين ؟

وألح في الوقوف على مكنون اضالعها ليسعفها في طلبتها ويسرع في ابعادها عنه . فلم يكن يصفو الى مرآها البغيض وما برح يتمثل فيها تلك المجرمة اللئيمة . قالت : ما ارتجي الا الخير لامير المؤمنين !

فتصلبت عيناه دهشاً واطلّتا عليها تستوضحان : واي خير ينضح به صدرك يا ابنة الغواية ؟

قالت : معاوية بن ابي سفيان الماكر يحوم على ارينب بنت اسحاق ، وقصده ان يزفها الى ابنه يزيد !

ـ واين الخير في هذا النبأ الداعر ؟

ـ الخير في ان يحول امير المؤمنين دون هذا الزواج الغاشم . فليس يجمل بنا ان نساند الشرير في حبائله جمعاء . فنبيح له اعراضنا واحسابنا ولا نعارضه في رغبة . بالامس قضى على الامام ابيك ، ثم اجهز على اخيك ، وها هو اليوم يضرب عبدالله بن سلام في كبده لينتزع منه زوجته ارينب

ويزفها الى ابنه . انها لخدعة هدم بها الدين وبلبل خواطر المسلمين . فحذار، حذار ان تنام عن تماديه . اني لاخشى غداً منه عليك اذا قابلت بالسكوت فضائحه ووهبت له من ارواحنا مرتعاً آمناً يجول فيه . فاضربه ضربة يتعظ بها ويدرك ان يده قصيرة عن ان تطول الدنيا ومن فيها . إن يستفحل شره ابتلعنا جميعاً يا امير المؤمنين !

فاطربت سمعه بترديد هـذا النداء تستميله به الى مرجاتها . والتمع في ذكي فؤاده صدق قولتها . ولكن كيف يدفع عن ارينب بنت اسحاق اذى معاوية ، أيقاتله بالسيف وليس من معادلة بينهما في الجنـد والارزاق ؟... قال : وماذا اقوى عليه في ابن ابي سفيان يا امرأة ؟

ولم يشأ ان يلفظ اسمها كأن في اعلان هـذا الاسم ما يكوي القلب والشفتين. واجتهد في ان يتناسى من هي . هذه ليست جعدة بنت الاشعث الكندي المضحية بالحسن بن علي لاشباع شهوة زرّية ، بل هي احدى نساء الكوفة المقبلات اليه في بسط شؤونهن . وآملها تجـاهله اياها كمن لا يود ان يرتبط بها بصلة ولا ان يعترف لها بقرابة . غير انها رضيت بهذا الانكار محتملة رهيف مضضه على ان تفوز بمأربها . قالت : ألا تقوى عليه بانتزاع ارينب منه؟

— انتزعها ؟... وكيف ؟

— بان تتزوجها . ارينب فلتة الزمن في روعتها وادبها . فلن تجد لهـا شبهاً في نساء المسلمين . فلماذا يغير عليهـا يزيد وهي بجانبك ، فيستلها من حضنك وانت تغفو كأنك لا سمعت ولا رأيت ؟... ان في مجازفته استطالة ومهانة . فاطعنه في صميمه واسبقه الى ما يمني به نفسه . مكر واحتال وغدر ليستأثر بريحانة نساء العرب ، فاظهر له ان المكر والاحتيال والغدر تجد من

يطيحها ويصوّح ناميها ، وانك حيث تلتفت تظلم في عينيه الدنيا . هذا مجال كسفك اياه يا امير المؤمنين !

وتكلمت بحماسة وهبتها لها نقمتها على معاوية ويزيد . لن تجيز لابن معاوية الخائن ان يظفر بابنة اسحاق . سترد اليه سهمه . وتلفتت وهي تتمثل يزيد يقترن بارينب . وودت ان تسمع من سيد الكوفة الموافقة على ما تدعوه اليه . هذا مجال الانتقام . فراق التدبير الحسين بن علي . وشخص ببصره الى ابي الدرداء يستبحثه . فقال صاحب النبي : انها لفكرة يا ابن الامام . لماذا لا تكون لك ارينب اللعوب فتعقد شفتيها على شفتين تخضبتا بانفاس سيد المسلمين ؟... والله لست محدثها عن سواك ، بل سأعرض عليها الامر بجلاء . انت ويزيد تبغيانها . ولا ريب انها ستعرف من تختار . فلن تؤثر ابن ميسون على ابن فاطمة البتول !

وودت جعدة أن تعلم من الرجل . فما بقي لديها ريب انه رسول معاوية الى ارينب . ولكن من هو ؟... قالت : من يتكلم يا امير المؤمنين ؟

فقال الحسين : هذا ابو الدرداء من رجال الصحابة . نعم برؤية جدي ، صلى الله عليه وسلم ، ولم يشأ وقد ارتاد الكوفة الا ان يعرج علينا . انه لصديق وفي !

فغمغمت تستقصي : هو خاطب ارينب ليزيد ؟

ـ انه لهو !

فاطمأنت وقد جاءت في اوانها . قالت : لا تكن عوناً لاعداء النبي على حفيد النبي يا صاحب الرسول . من راموا بنا شراً يجب ان يدركوا اننا لن نسكت عن مقابحهم . خليفة المسلمين هذا ، لا ذاك المتربع في المنصب الاول

ظلماً واقتداراً !

فقال ابو الدرداء : لا تغضبي يا ابنتي . نحن نتفيأ هذه الدولة وسنظل جاثمين في فيئها لا نعدل به سواه !

فصاحت : وكيف تريد ان ينمو الاسلام والقابضون على احكامه ذوو تدجيل ومكر ؟

فاجاب ابو الدرداء مستعيذاً بالله : لا شأن للاسلام في سيد يكيد . فالناس يذهبون والدين يبقي . غرسة ربك لن يستأصلها عبد يتنمّر . اذا فجعنا اليوم بالضالين فان عهد الضلال غير طويل !

قالت : أأكون رفيقتك الى ارينب ؟

فابتسم . لقد ظهر له مقصدها . ليس سعيها للحؤول دون زفاف ارينب الى يزيد غيرة منها على الحسين وارينب ، بل حقداً على معاوية ويزيد . فانها لذات قصة تناقلها الركبان . وعدها ابن ابي سفيان بابنه يزيد كي تودي بزوجها الحسن فانجزت ولم ينجز معاوية . وانها من خليفة دمشق وابنه لفي سورة الحقد . تجاهد في ان تبادلهما الطعنة طعنتين . قال أبو الدرداء : ولماذا لا تسبقيني اليها يا جعدة ؟... اطلعيها على ما يجب ان تبدو به حيالي وانا استطلعها مصيرها . لتعلن ما تشتهي نفسها . فاما تكون للحسين او ليزيد . انك لتمهدين امامي الطريق الى اقناعها باصطفاء حفيد النبي الكريم !

قالت : لن تكون ليزيد . اني لعلى يقين من صدوفها عنه . فقد حدثتها عن مخرقته بما فيه الكفاية . وانها لتكرهه كرهها للداء العضال . وزاد في نفورها منه غدره بعبدالله بن سلام زوجها . فهي تحب عبدالله، وطلاقها منه نزع من شفتيها البسمة . فاضحت ساهمة ضائعة . غير اني لم احدثها عن الحسين

امير المؤمنين . فما ساورتني الفكرة الا الساعة ، وانا بالباب . ولقد مثلت بين يدي حفيد النبي لاستيضاح امرك ولدعوة ابن فاطمة الى الممانعة في خطبة ارينب للصل ابن الصل . وشاء الله ان يكلل سعي بالتوفيق . سنضرب معاوية وابنه ضربة لن يستفيقا منها . فالى اللقاء !

ونهضت كأنها لم تشهق ولم تسقط الى الارض في اغماء وقد بدت مالكة قواها جميعاً . قال الحسين بن علي : الى اين ؟

قالت : الى ارينب . ساطلعها على ما يجب ان تعلن وابو الدرداء يعرض عليها الاختيار . وارينب ذات قلب سليم . فلا تقترب من النكر ولا تميل الى الارتماء في احشاء النار !

فقال ابو الدرداء : ستجدينني في اثرك . ذللي كل عقبة ان تكن ثمة عقبات !

فتوارت كالشرارة . قال الحسين : انها لتشتعل ضغناً على معاوية وابنه . غررا بها ثم اعرضا عنها . دفعاها الى هدم الركن الاقوى في الاسلام بعد السلف الصالح وابقياها تحترق في مذلتها . رمياها بدائها وانسلاّ في ليل أليل . ولولا يقيني انها حمقاء ، جاهلة ، لامسكت عفوي عنها . بيد انها آلة عجماء ويشوقني ان تكون تمرغت في خيبتها . وستجدها بين ايدينا سلاحاً قاطعاً . فنشهرها على من شهرها علينا وندرك بها منه ما ادرك منا . لا علينا اذا حطمنا عدونا بسلاحه . سوف ترى انها تنيلنا الارب !

وابو الدرداء ، مع خشيته انتقام معاوية منه اذا عاد الى دمشق على إنفاض ، سرّه ان يرى في جعدة النصير على الامنية . فما كان شديد الاغتباط بما انصرف له معاوية من ختل ومكر وخدعة وتفريق . قال : اني

ابارك منذ الساعة في ارينب لسيدي وابن سيدي !

— أتراها صائرة اليّ ؟

— بل اراها بين يديك . هذه نبلة قاتلة تصمي بها معاوية . فيعلم من تخفق عليهم راية الاسلام ان لعترة النبي في كل حين المقام الاعلى . فما ظهر ابن علي حتى توارى ابن معاوية . وهي خير مقدمة لاقتحامك سدة الخلافة . فالفوز اذا ادركته في طريق فانك لمدركه في كل طريق !

فطرب الحسين . انها لفاتحة يمن وبركة . وتلذذ واستبشر . فالسؤدد النائي عن الهاشميين سيعود الى الهاشميين . فيرجع الحق الى نصابه ويأوي السيف الى غمده . وتراءت الخلافة لابن علي في جلالها وفخفختها فانتشى بالرؤيا . فما اشهاه من حلم الفوز بالسلطان في الدولة الفتية ، المسبطرة الى حيث لا تقف بها تخوم . هبت كالاعصار في كبد الصحراء واذا هي تجتاز المدن ، وتقوض العروش ، وتنطلق منصورة عارمة الى ابعد امد . وهنيء الحسين بالنشوة ، وخيل اليه ان عز الامويين نفق ، وان الزمن تفتّح عن ريحان صبيح . فما للهاشميين الا ان يتنشقوا العطر المتأرج والفوح المنشور الطيب !

٥

– ارينب ، ابشري ، وافاك الانس . ستكونين لمن هو اسمى مقاماً من يزيد واكمل قدراً . ستزفين الى حفيد النبي . ابشري يا ابنة الاصفياء الاكرمين !

وطوقتها بعنف . لا بد من تطويقها امعاناً في ابداء المسرة . فنظرت اليها ارينب نظرة لا يختلج فيها الفهم . ماذا تعلن جعدة ؟... وودت ان تعلم . اي غد يرقبها ؟... قالت ارملة الحسن بن علي : بلغ رسول معاوية الكوفة .ولقد رأيته وحادثته فيك . واتفقنا على امر !

فملكها الدهش . أيبت مصيرها دون الوقوف على رأيها ؟... أتكون سلعة ؟... قالت تستفهم : علىمَ اتفقتما يا جعدة ؟

– لا تقلقي .كل ما قمنا به يكتب لك النصر . انت الظافرة وخصومك المهزومون . سوف تبصرينهم يأكلون خيبتهم مقهورين !

فصاحت : وماذا جرى ، ماذا ؟

– لن تكوني ليزيد !

– ولمن اكون ؟

– للحسين بن علي حفيد سيد المسلمين !

فوثبت ارينب من مكانها بقلق المرعوب وصاحت : للحسين بن علي ؟.. وكيف ابصرته ، واين ؟... هل رضي عنك وانت قاتلة اخيه ؟

فضحكت بملء فمها . قالت : ضحيت لاجل انقاذك منه بكل انفة . فارتميت تحت قدمي الحسين ذليلة مسترحمة، وبكيت ورجوت عفوه فما بخل به عليّ وقد تأثر بدمعي واسترحامي . وشدد عليّ في الانصراف عنه وهو يجود عليّ بعفوه . فلم يكن يطيق ان يراني . فابيت براح داره وتظاهرت بالغشيان ازيد به في اشفاقه عليّ وكان لي ما اطمع فيه . فصفا ووهب لي سماحه . قلت : « اعداؤك يحاولون التناهي في تحطيم صلابتك يا امير المؤمنين !... ». وحدثته عن مقصد معاوية وصحبه وانا اقول : « اسبقهم الى ارينب . فمن المضيمة ان يستلّوها من جنبك ليزينوا بها قصر الخضراء!... ». وشعرت بان كلماتي كشفت له عن افق رحيب لا تقلقه فيه الهزيمة . واتفق وجود خاطبك ليزيد في مجلسه ...

فقطعت عليها ارينب مجال الكلام وقد حنّت الى معرفة خاطبها لابن معاوية : ومن هو الرجل يا جعدة ؟

— هو ابو الدرداء ، من صحابة النبي . شيخ جليل منتفش العمامة، منتفخ البطن . خلع عليه جبة تكفيني وتكفيك جهاز سنة . والرجل ينصرنا على معارية وابنه . وسيقبل اليك ليسألك عمن تختارين زوجاً ، أتكونين للحسين ام تؤثرين عليه يزيد ؟

قالت : وهل حدثك في هذا ؟

— حدثني فيه ودفعني اليك استحثك على اصطفاء الحسين . فما رأيك في من اخترت لك ، ألا تجدين في ابن علي الزوج المنشود ؟... انه لفي شباب يزيد وفي جاهه . ابن معاوية يرتع في دولة ابيه ، وابن علي ينعم بعصمة جده وبمكانة ابيه الامام ابن عم النبي وزوج ابنته . ولست اراك عـلى ضيم في

زفافك الى الحسين . فانك لتلقين في داره الرحابة الصادقة ، والبشاشة المأنوسة الخالية من الكلفة والمصانعة . فلا مماذقة ولا تضليل !

فحنت رأسها لا تجيب . انها لفي حيرة من امرها . فالاقدار تتجاذبها غير مشفقة عليها . قالت ابنة الاشعث الكندي : سيكون في حضرتك الساعة ابو الدرداء ، وسيخاطبك في من تختارين . فالى من تميل نفسك ؟... أتميل الى من فصل عنك زوجك وهدم هناءك ليستأثر بك ؟... ابعدك عمن تحبين طمعاً فيك . يا للقاتل كيف اطاعته يداه في خلع القلوب ؟

قالت وحيرتها تنطق فيها : ولكن الحسين بن علي متعدد النساء !

— لا عليك . لكل واحدة من نسائه المقام والاكرام . فلا تسطو امرأة على امرأة . وما يمنع ان تزدان بك دار الانفة والشمم ؟... فانت في حرز الحسين تزدادين نبلاً وجلالاً وتزيدين في الروعة والبهجة . والله لن تكوني لسوى ابن فاطمة . فقد وقفت نفسي على هذه البغية ولن اتهاون فيها ما دام في عروقي دم يجري . أيطمع فيك يزيد ؟... لا والله ، ان بلوغ الثريا لاقرب اليه منك . اعتزمت ان احرمه اياك وسأحرمه اياك ، لا لشفاء حزازة ، بل لليقين ان التلاعب بالقلوب حرام . حطم قلبي وحطم قلبك ، على انك ستثأرين منه لي ولك . أليس كذلك يا اختي ؟

فلم تملك ارينب غير دمع تذروه دون ان تدري بما تجيب . ان جعدة لقابضة على الزمام كأنها وحدها صاحبة الرأي في المصير . وتجلى لابنة الاشعث الكندي انها سيدة الموقف . فلن تجد من يصدها عن المنشود . وعلا وقع اقدام امام الباب . وركض الخادم يقول : بالباب شيخ ضخم العمامة يستأذن !

فقالت جعدة : اقبل ابو الدرداء !

وخاطبت الخادم بقولها : ليدخل الشيخ !

ونهضت للترحيب به وقد ابقت ارينب في ضعضعتها . فلن تحفل منها برغبة وميل . فما ترمي اليه ، هي جعدة ، هو المعلن والمبرم . وابتسمت لابي الدرداء بما ملأ وجهها وقالت : مرحباً بسيدنا الاجل الاكمل . انت هنا في دار ابنة اسحاق . وارينب القلقة المثوى كلفتني ان انوب عنها في استقبالك بما يليق به قدرك من تعظيم !

وانحنت عليه تهمس في اذنه : تم الامر كما يطيب لنا ان يتم . فهي بين ايدينا كتلة مائعة . لن تعارض في ما نحاول فيها . فما نقرّ يجد منها الموافقة المطلقة !

ورفعت صوتها تقول : من هنا ، من هنا يا سيدي !

ودخلت به على ارينب . فنهضت له ابنة اسحاق تقديراً لمنزلته وهي تراه في حجرتها . قال وقد بسط يديه بالتحية : السلام عليك يا ابنتي . شققت اليك الصحراء على مترامي ملاءتها . فالحمد لله ان اكون بلغت مقرك وانا استرجع النفَس . فما حسبتني ادركك حياً !

واطال النظر اليها . فهي صورة للجمال الفياض بالروعة . كل ما فيها آية كأنها سمط آيات . وما استطاع الا ان يلوي عنقه اعجاباً وهو يكبر ويبسمل . لا لوم على يزيد في ازعاجه الضمائر لارتشاف هذا الماء الزلال . وكاد الشيخ يتصابى . على انه جلّ نفسه عن المعصية . قال يخاطب ابنة اسحاق : حقاً انك لزينة العرب في بهائك المنيف يا ارينب . سمعت بك فاتنة ساحرة ، بيد اني لم اكن امتلك في هذا الحسن المجلوّة فيه غوالي السماء . سبحان

من ابدع وصوّر !

فاعترتها حمرة الخجل فزادت في وسامتها واستطاعت ان تتمتم : مرحباً بذي الفضل والنخوة . غالبت يا سيدي في حسن ظنك بي !

وشاع في مبسمها افترار كشف عن ثناياها، فارتعش ابو الدرداء على عتوّه في الكبر. فان في هذا الفم، المشقوق كالبرعم، المتحفز لنضو غلافه، عقداً من اللؤلوء النضيد لا يتمالك الناعم بروعته ان يخشع في شده . وخشع ابو الدرداء حيال القسامة الغيداء . وبقوة غالبة أُوتي النطق فجمجم بابتهال المتضعضع المستجير : عونك يا ارحم الراحمين !

وخشي على نفسه ان يبيع فذكر انه شيخ وقور . وتصدر المكان وقد اغرق عمامته في رأسه ليزداد يقيناً بموقفه ومجاوزته حد الهوى. قال بلهجة لينة تجمع لين الادب وجلال المشيب : جئت استشيرك في امر نفسك يا ارينب . فانت والله زينة الحاضرة وريحانة الجنة . وطلاب استنشاق اريجك ضخام العديد وانت تهبين للقلب النداوة والبهجة . فمن المحال وقد رنوت الى الحلي ّ ان يتناسى نظرة اسرته بها . واني لماثل امامك في اثنين من سادة هذه الامة . فهما ، وقد طلقك عبدالله بن سلام ، يصبوان اليك. وكيفما نظرتُ اليهما وقعتُ على وهج من النبل والقدرة . فان حظك من دنياك لثري اثير !

وارينب وقد حدثتها جعدة عن الحسين ويزيد لم تجهل ما يهيب بابي الدرداء الى الاستئذان عليها . فالسيدان الخطيران افضت اليها باسميهما جعدة. قالت: وددت ان يعفيني الشيخ مما يعدّ لي من خيار . فان نفسي لا تشتهي زوجاً بعد عبدالله وما كنت اعتقد ان حباً يربطني بابن سلام يُفصم . فتعاهدنا

على الحياة جنباً الى جنب على الامد لا تبعدنا بؤسى ولا تفصلنا نعمى. نحن ابداً نحن في ارجوحة الزمن، فلا يزيح بعضنا عن بعض غير الكفن . واذا العهد يذبل واليمين تتناثر كالاوراق الصفر في الكاسحة . واي قدر لحب تهدم دعامته بسمة خالبة في شفتي معاوية ؟... لا يا سيدي ، جربت الناس في اصدقهم مودة واسماهم اخلاصاً فاذا العظيم منهم كالحقير، والنبيل كالخسيس. فدعني هنا في زاويتي . ان لي من مالي ما يكفيني اتقاء فواجع غدي . لست اطمع في مجد ولا ثروة . فالوحشة هي النعمة !

وتصاعدت كلماتها حزينة تتوجع . فقال ابو الدرداء وقد تأثر بمنطقها الكئيب : ولكني لا احاول ان اجازف بك يا ابنتي . فالراغبان فيك يملكان خيرات الارض ومباهج السماء . فهما ممن يرتعون من الجاه في القمة ، ومن الذخر في الرويّ الخصيب . أتدرين من هما ؟... ابن علي بن ابي طالب وابن معاوية بن ابي سفيان . الحسين ويزيد . كل منهما ابن خليفة . وما لك الا ان تختاري . فمن تضحك لك فيه الامنية فهو لك. انها لعطية لم ترشح لسواك. هذا رضا ربك عنك فاشكري وقولي : « الحمد لله رب العالمين » !

فاجابت دون ان تتأثر كأن الامر لا يلفتها اليه: اراني افضل البقاء في عزلتي فلا اميل عنها . فالحسين ابن الامام وامه ابنة النبي ، فمن يتشرف بتقبيل انامله يقبض على مفتاح الجنة . ويزيد سيد كريم تفوح في طلعته روائح العظمة والصولة ، الا اني في غنى عن الاثنين يا ابا الدرداء والعزلة اطيب جنى . هذه الوحدة اشهى عندي من التقلب في مهد السؤدد والسلطان . دعني هنا ، في زاويتي ، فهي ابقى لي من العز العريض !

وظلت مغموسة في اساها ، تؤدي كلماتها مجللة بالانين . فقال ابو الدرداء:

على رسلك، لا اريدك على سهوم . ان العلياء لتدعوك اليها فلا تسدّي اذنيك عنها . ربك لا يرضى عن استخفافك بالهبة المنعم بها عليك . فان المنحة الكاسية غدك يزجيها اليك الرحمن ، ومن الاثم ان تكابري وتعاندي الله في ما يزف اليك من سماح !

فخشيت ان تعاند الله وقد آمنت بكلمات ابي الدرداء وهو ممن اصغوا الى النبي وساقطوه الحديث ، وملأوا صدورهم بوصاياه وتعاليمه . على انها لم تتبدل في جوابها . فالانفراد مبتغاها . وآلم جعدة هذا الرسوخ في الممانعة فقالت : لا تكفري بنعمة ربك يا ارينب . هذه العطية لم تتفق لامرأة سواك . فالجلال من الناحيتين يبغيك . فالى اي ناحية تميلين ؟... تكلمي . أتكونين لابن علي ام تؤثرين عليه ابن معاوية ؟... فلينطق فيك خاطرك !

فسكتت. فدمدمت جعدة بغيظ :ليس الموقف موقف صمت بل موقف كلام . بحب ايهما يخفق قلبك ؟... أتتقدين بمودة حفيد النبي ام يشوقك ان ترتبطي بمن يخلع عليك الحب الكاذب ، السريع الانطفاء ؟

ورقبت منها ان تجيب. وجعدة تشتاق سماع هذا الجواب من فم ارينب. وهو اذا اطلّ على غير ما تريد له من الطلعة زادت ابنة الاشعث الكندي في اقلاق ارينب واكرهتها على قبول الحسين . وارينب حارت في ما تعلن كأنها لا تدري من تختار من السيدين الكريمين المعروضين عليها. فلا الحسين ممن يشاح عنهم ولا يزيد ممن يجوز لها ان تصدمهم بالاعراض . وفي الخيار ارتباك . قالت وهي ترغب في ان تتنصل من انتخاب فتاها ، فلا تقع تبعة اصطفائه عليها : ومن ترى ان اختار يا سيدي ؟... انت ذو رأي رشيد سديد وانا اثق بك وأقرّ بعالي فطنتك وبعيد حكمتك !

فايقن انها تترجح على حيرة ، ولنها بحاجة الى من يقودها بيمينها الى المحجة. فما توالى عليها من هزات هدّ حيلها. قال: الكفتان تتعادلان يا ارينب . فالسيدان متساويان في كرم العنصر وطيب الارومة . ابن معاوية لا يقل عن الحسين جاهاً ومكرمة !

فصاحت جعدة : ولكن حدثها عمن يجب ان تؤثر على الآخر . فلا يكفي امتداحهما معاً . انك لتزيد في عماها وانت تطري هذا وترفع من قدر ذاك . من تراه من الاثنين خليقاً بها ؟

وجعدة سمعت ابا الدرداء يتكلم في حضرة الحسين وما غاب عنها ان الشيخ ينصر ابن الامام. فهو بجانب حفيد النبي . ومن كالنبي في المسلمين سيداً وحبيباً ؟... واصاب ابا الدرداء ما اصاب ارينب من اضطراب وبحران . اذا هو أيد يزيد فقد اساء الى ابن فاطمة . وان هو سند الحسين فاي شر سوف يلقى من معاوية ؟... فان ذاك المستقر في دمشق على سرير الخلافة ليزلزل به الارض . وجرض ابو الدرداء بريقه . اي بلية رماه بها ابن ابي سفيان ؟...واحس ان ما حوله يدور به وانه في ورطة وبيلة المنتهى. وشزر جعدة بنظرة ود بها منها ان تكفيه مضض الاحراج . ولكن جعدة وقد خافت ان يضيع مجهودها عليها مضت في قولتها : تكلم يا ابا الدرداء ، انت رجل من اصفياء الرسول ، فما فسح لك النبي في مجالسته لولا يقينه انك من اهل التقى والصلاح ، فماذا ترى في الرجلين ؟... أيرجح يزيد على الحسين في الفضل والرفعة ؟

فاجاب الشيخ مكرهاً على أمره : معاذ الله يا ابنة اخي !

ـ أيبدو لك ابن ميسون الكلبية خيراً من ابن فاطمة البتول ؟

فاعلن وجبينه ينضح بالعرق المحرق ، الواخز : لا وتربة ابي واجدادي ، فاين ذاك من هذا ؟

قالت جعدة وقد تجلت لهـــا الغلبة : وايها اسمى خلقاً ، وارفع همة ، واصدق قولاً ، وأعف طبعاً ؟

— ابن علي يا جعدة ، الحريص على آيات الله ونواهي الكتاب !

— اذاً من تختار لها منهما ؟

واستدرجته بدهاء صارخ الى الافصاح عن المكنون . قال وهو يتلعثم : اختار لها ... اختار لها ...

— من ؟... من ؟

— الحسين ... الحسين يا جعدة !... أيحتاج الامر الى ايضاح ؟

واستلت منه هذا الاقرار بقوة قهارة . فظلت به حتى امالته الى البيان. وصفقت بيديها طرباً وهي تنتزع منه مطلبها . والتفتت الى ارينب تقول: هل سمعت يا اختي ؟... أتطلبين شهادة اوفى ؟... ابن فاطمة يحرص عليك ويكرمك ويلمّ بقدرك . اما ذاك ، المحتال المخادع ، فانه ليطرحك كالنفاية وقد اكتفى منك . فاختاري الآن ، اختاري ، هل يبدو لك السعد في يزيد الكافر الضليل ؟

فلم تدر ارينب ما تجيب . والتوت جعدة على ابي الدرداء تقول بشدة: امسك بطوقها وسرْ بها في الهيع الآمن . هذه امرأة سليمة الطوية، فمن الظلم المجازفة بها . من تراه خليقاً بها ؟... تكلم، أعدْ على مسمعها القول الصادق المميّ !

فكاد ابو الدرداء يختنق وقد تمثل معاوية معوبداً هائجاً، يتهدده ويوشك

ان يسحقه بنظراته الحاقدة ، الناقمة ، المشتعلة بنار الكره والغضب .قال وقد القى رأسه بين يديه كمن يحس بالفاجعة تحل عليه ولا يجد له سبيلاً الى النجاة منها : الحسين ... الحسين ... هذا هو الهادي الامين يا جعدة !

وارتجف . اضغان معاوية تنصب على رأسه . ومعاوية رهيب يتقى . وسادت جعدة وادركت مجدها مثلها في عهد الحسن زوجها . فان رايتها للراية المنشورة . وانكفأت الى ارينب ويداها تسندان وسطها وهي تقول بلهجة المنصور : هل سمعت ، هل سمعت ؟... الحسين ، الحسين دون سواه . نطق الشيخ الحكيم . اذا شئت الحياة الهنيئة ، العذبة ، الامينة ، فلا تلتوي عن عصمة ابن الامام . هؤلاء القوم عرفتهم الا اني كنت حمقاء يوم غدرت بهم . ولم يحرضني على الغدر غير الثعبان الطامع في لسعك . فلا تذهبي ضحية رخيصة مثلي !

والتفتت الى ابي الدرداء فاذا به لا يكاد يتماسك . فقد استرخى . اذا نجا من بطش معاوية فكيف ينجو من بطش يزيد ؟ ... وخطر له ألا يعود الى دمشق ، فيلوذ بكنف الحسين . ولكن يد معاوية ستدركه حيث يكون. ووضح فيه الارتعاش . فقالت جعدة : ماذا اصاب الشيخ؟ ...اني لارام مريض الروح !

فانتفض كأنه يطرح عنه هواجسه وقال : لا شيء ، لا شيء يا جعدة !

فلا بأس عليه اذا ضحى في سبيل اهل البيت . ان للمستشهد الجنة . قالت ابنة الاشعث الكندي وقد رامت النفاذ الى طماحها : وعلى م اتفقنا ؟ ... اي جواب هو جواب ارينب كي تحمله الى مصطفاها ؟

فقال ابو الدرداء وقد شدد من عزائمه والاستشهاد يضيء بوهجه في عينيه :

لم يبق من حاجة الى التردد. شققنا امامنا الطريق وبباب الحسين ألقينا عصانا ولن نعدوه . ابنة اسحاق لابن علي ولا محيد . فان هذا الاهتداء لمن وحي الله . طيبي قلباً يا ابنتي ، مصيرك مصير ارباب النور والرشاد . ان من احتضنه النبي ليحتضنك . فما ابعد شأوك واكرم نجارك !

فهبت على ارينب عاصفة من بكاء . فصاحت بها جعدة : أتكونين من نصيب الحسين وتبكين ؟ ... هذا جنون اعمى . اغتبطي وليفرح قلبك . فمن يتمتع برضا ابن فاطمة ضحكت له السماء . لا تكوني غبية مثلي . انا بعت سعادتي بالاباطيل . ولو عقلت لابقيت على نعيمي لا اهدمه بيدي!

فقالت ارينب وهي تغتسل بشآبيب دمعها : وددت من زمني ان يبقيني لعبدالله ولا كانت هذه الشدة . فاني بجانب عبدالله في متجه خاطري ونبضة قلبي !

فامسكت بذراعها جعدة وصاحت بها بتزق : أتبكين ؟... أتزحف اليك المنى وتعثر في بابك بالنشيج ؟... والله دعيني اضحك منك . فلست ادرك ما يرضيك . أتنهال عليك رحمة الله وتقيمين منها على نفرة ؟... انا لا اجهل حبك لابن سلام . فانك لمتفانية في حبك . ولكن ابن سلام لم يبق لك . فقد باعك . والى من تركنين وانت بحاجة الى عاصم يذود عنك ؟... أتستنيمين الى معاوية وابنه وهذا رسول معاوية نفسه يميل بك عن السقوط في المهواة ؟

قالت وهي لا تبرح على اضطراب في بت مصيرها : الحسين زينة الدنيا يا جعدة ، ولكن عبدالله !

فلم تقو جعدة على الاحتمال فوق ما عانت من ألم . وانفجر فيها الغيظ

وانذلعت الزجرة : أتقلقين الارض بعبدالله وهو نابذك ؟... آمنا بان عبدالله وحيد دهره ، فماذا لقيت منه غير المهانة؟... ازدراك كما يزدري الاجير. فكنت لديه أمة مبتذلة بل سلعة للمساومة . على حين انك في رحاب الحسين سيدة جليلة تأمر فتطاع . ومن هو عبدالله بن سلام بجانب ابن الامام ؟... اعلني موقفك . هذه الزجرجة ما لنا ولها وليس من حاجة بنا اليها . لمن انت ؟... صاحب نبي الله يرقب كلمتك . ولقد انتظر طويلاً وأمضه الانتظار . أتريدين يزيد زوجاً لك ؟

فاجابت والدمع في عينيها لم يرقأ : لا ياجعدة !

ـ أأنت للحسين ، لابن فاطمة ؟

ـ اني لاستهدي بهدي ابي الدرداء !

فتنفست جعدة بملء رئتيها وقالت : ابو الدرداء يريدك للحسين !

فاجابت بصوت ضعيف ولكنه صريح : وانا لمن اختارني صاحب الرسول!

فقال ابو الدرداء وهو يجاهد في دفع مخاوفه عنه : بورك فيك !

وهوت عليها جعدة تقبلها بشوق وغبطة وهي تصيح طرباً ولا تدري كيف تصيح : احسنت ، احسنت . ان ربك لفي عونك . لم تبلغ امرأة ما بلغت من الرفعة والحسب . انت امرأة امير المؤمنين . يا لحلاوتك في حسن اختيارك !

وقالت لابي الدرداء : ابلغ يا سيدي ابن فاطمة ما سمعت . ان مشيئة ربك لهي المشيئة الغلاّبة . اربنب اصطفت حفيد الرسول صاحب القول الفصل في عالم المسلمين . فلا تزال الكلمة الاخيرة كلمته والحمد لله !

واحست بانها انتقمت . ضربت يزيد في كرامته وفي كبده . ان سلاحاً شهره

عليها طعنته به. فما اجملها من ساعة قبضت فيها على خناقه واستأصلت روحه. آه منه كم حطم من افئدة، فلا حرج عليها اذا حطمت فؤاده وشفت احقادها المندلعة النيران. فقال ابو الدرداء وقد سره من ارينب ان تميل الى الحسين كما هاله منها التواؤها عن يزيد: سابلغ سيدنا الحسين مشيئتك يا ابنتي. غير اني اعالنك منذ الساعة انك مخطوبة له. فقد فوّض اليّ امر عقد هذه الخطبة. لك الهناء، اصبت في اختيارك!

ونهض. لقد ادى الرسالة وقام بالمهمة. وودع حيران عائداً الى دار ابن الامام. فماذا سوف يلقى من كيد معاوية؟... ونفثت جعدة في مسمع ارينب: أتعلمين اي هزة خضخضت بها بسطة الاسلام؟... احدثت في التاريخ رجّة لا تهدأ وكتبت فيه صفحة لا تمحى. فانت منذ الساعة في افواه الاجيال، يتناقل امرك الخلف عن السلف حتى تأزف النهاية. نبلتك مزقت قلب يزيد، كان الله في نصرتك. فقد انتقمت منه لجماعة وافرة من الضحايا!

وذكرت ما كان من يزيد فيها فبكت. هي في عديد اولئك الضحايا المناكيد. ولم تكن بحاجة الى هذه الكبوة تهون بها. ولكن يزيد اغواها، وانها لهالكة لا تجد من يعطف عليها ويؤاسيها. كانت في الذروة فهوت الى البؤرة.

وارينب بكت. ماذا سيقول فيها عبد الله بن سلام وقد رضيت بسواه زوجاً؟... هي لا تبرح على حبه مع طلاقه اياها. ولم يطلقها طائعاً بل مكرهاً. انها من هذه الحقيقة الوثابة لعلى يقين جليّ. خدعه معاوية انجازاً لمأرب وفصله عن امرأته، عمن تبادله الهوى، ليرميه خشارة في الطريق ويقضي

عليه بالهلكة . وساءلت ارينب نفسها عن مصير عبد الله . ففي اي ارض يتيه ابن سلام وقد رذله معاوية ؟... ان له في خزانتها مالاً اودعها اياه ، وهي امينة على الوديعة تحرص على ردها على جمام . ونظرت اليها جعدة والدمع يغشى المقل الاربع وقالت بانين : على مَ تبكي اختي ؟

فاجابت ارينب : على ما تبكين عليه يا جعدة !

وتفاهمتا بلا بيان . انهما لتذيبان الدمع تحسراً على حب مهدور . فكلتاهما على فجيعة بالمودة . ارينب تذكر عبد الله وتنوح . وجعدة تتمثل يزيد في سخره بها وتتلهف . فلا تزال تحن اليه على غدره المقيت . ليته صدق في ما صارحها به فلم يصر عودها ويبدد مهجتها فور ظفره بمقصده منها . لقد كانت له بمكياله ، غير انها آثرت ان لا تقيم منه على قطيعة بل تستوي واياه على حب سميح

وطال السهوم والبحران ، وما تزحزحت المرأتان عن مجثمها الا والليل يطبق بيديه من النهار الاجفان

والحب سكرة دائمة لا ينتهي امدها . فاذا لم يعش فيها من تخدر بها عاش بذكرياتها الخضال .

٦

دمشق والكوفة ترقبان طلة ابي الدرداء بشوق الظامىء الى سماع البشرى وخشية المرتاب بالعاقبة. فالحسين وقد اقتحم المضمار لم يكن دون يزيد هياماً بالوقوف عـــلى رأي ارينب فيه . فانه ليمضه ، وهو ابن الامام ، وحفيد الرسول الطامع في الخلافة ، ان يتخاذل ويكبو في الوثبة . فيتفوّق عليه ابن معاوية ، خصمه العنيد ، ويذله حيال المسلمين . فيقال فيه ان معاوية كسف آل البيت في اليسير والعسير ، والجليل والحقير .

وأقام الحسين يعدّ الدقائق والثواني . واستبطأ ابا الدرداء فاصابه من القلق وهو على رمية سهم من ارينب ما اصاب ذاك المتقلب في دمشق على جمر لا يخمد ولا تطفو عليه نقاثات الرماد .

ولعن الحسين تلك الماكرة جعدة . فهي طوّحته وعرّضته للهلكة . فلم يفكر في ارينب ولا عرضت له في بال . فكل ما جنح به الى التحدث عنها غدر معاوية بزوجها عبدالله بن سلام واحتياله على الزوج ليسلخها منه ويسخو بها على يزيد. ولولا خدعة معاوية وتحريض جعدة لاقام منها خلي الضمير. ولكنه يرغب في نهزة يحط بها من قدر خليفة دمشق ويظهره في رحبة الاسلام كليلاً مهيناً . وارشدته جعدة الى السانحة في ارينب فتصيدها وهو على يقين انه سيطبع جبين ابن ابي سفيان بالكسوف . فالنكاية تململت فيه لا الصبابة . فليس من المحمدة لآل البيت ان يستبيح ابداً معاوية حماهم ، فلا يرعوي عن غواية

ولا يعفّ عن حرام .

ولكن ما بال ابي الدرداء يبطىء في العودة، أيحتاج جواب ارينب الى مطّ ومطل؟... ان خاطبها من يتبرك المسلمون براحته وينحنون حتى الارض بين يديه . وغشي العبوس محيا ابن علي. هذه ورطة لم يكن يود فيها الزلق.

وساءل نفسه ماذا يكون منه اذا خيبته ارينب وآثرت عليه يزيد . وجلجلت فيه النقمة . فهو حانق على ابي الدرداء وجعدة وهما طرحاه في الحفرة وجازفا به وبسامي منزلته وافتأتا بنهاه . وتمثل معاوية ويزيد في مديد فرحتهما وقد طار اليهما ان ارينب ازدرته وفضلت عليه يزيد. فضاقت به ارضه ونهض وجسده يغلي بالحمى ومشى وكأنه يمشي على وخز . فبدا مضطرب الخطو ، تعب الضمير . فالفضيحة هالته في فحيحها وخزيتها .

واطل من احدى الشرفات يبحث عن ابي الدرداء في الطريق. أما حان له ان يعود من المهمة ؟... هل يفاوض في ابرام هدنة وعقد صلح كي تقعد به وعورة الحوائل عن الانجاز ؟... ولكن ابا الدرداء هـــذا هو . اطل ببرنسه الابيض . فتنفس الحسين . سيطلع على رغبة ارينب . غير انه ما برح في ارتباك . هل رضيت به ابنة اسحاق ؟

وثوى في مقعده ينتظر على بحران . وحبا اليه ابو الدرداء بمشيبه الوقور باسماً طروباً . فتهلل وجه الحسين . باتت الامنية في مستقر يمينه . قال وقد تألقت فيه البهجة : ماذا يا صاحبي ؟... هات ما عندك عن ابنة اسحاق !

فاجاب ابو الدرداء بانتفاخ ، شأنه يوم ظفر لدى معاوية بعبد الله بن سلام : كل ما عندي يرضى به عني سيدي . ارينب أمة بين يديك !

فاستوضح الحسين بنهمة الفضول الملحاح : هل اجابتني الى مطلبي ؟

فعلت صيحة ابي الدرداء وضاحة البشر تجأر بالقول: ومن تجد كابن فاطمة بين طلابها ؟... أتكابر وابن الامام يسخو عليها بنفسه ؟... ابدت اسفاً على عبدالله بن سلام وجهرت بحبها له . فهو عندها الحفيّ الاثير . غير انها بعد عبدالله لا تهفو الى سوى زين شباب المسلمين الحسين بن علي . وافضت اليها جعدة بما ستلقى من نعمة في هذه الاكناف فشغفت بان تتفيأ ظلك وتأوي الى كنفك . ولك ان تعقد عليها قرانك ساعة تشاء !

فاتسعت نفس ابن علي وانبسطت فيها الهناءة .ضم اليه اجمل امرأة في دنيا العرب واحرج معاوية وابنه . فالفوز بارينب لطمة للخصم المستفحل ومدرجة الى الصوت البعيد في كل بقعة تخفق عليها راية الاسلام .قال الحسين: ارى ان نسرع في عقد هذا القران يا ابا الدرداء ، فماذا تقول اذا توليته بنفسك ؟

فضحك رجل الدين ضحكة ما خلت من رهبة . ألا يكفي انه خطب ارينب لابن علي حتى يكلفه ابن علي عقد القران؟... فما تكون حجته لدى معاوية وقد اوفده ليخطب ارينب ليزيد فخطبها للحسين ، ولم يقف عند الخطبة بل عداها الى الزواج وعقد بنفسه لابن علي على ابنة اسحاق ؟

انها لطعنة شادخة هذه المداورة . فمن مهد لابي الدرداء الطريق الى الحسين ، بل اي حاجة له بمرأى الحسين والرجل من خصوم الامويين ، من ابعدهم كيداً واقتلهم حقداً؟... لقد قضى الشيخ المتبرنس بما استطاب دون ان يستعين بمشورة . فعصى ولي امره وندّ عما فوض اليه من امر . وهل يجمل به ان يصدم الخليفة في ما عهد اليه فيه وثمة خطورة قد تزلزل دولة ؟ وتعثر ابو الدرداء بخشيته . وكاد يرفض دعوة الحسين الى عقد القران.

حسبه ما اثقل به عاتقه من تبعة. فلن يظفر من معاوية بسماح. غير انه عادل بين دنياه وآخرته وابى ان يخزو الحسين . فاي قصاص يجبهه بـه النبي في الجنة وقد مانع في التوفر على مرضاة الحفيد؟... وود ان يمضي في تضحيته بعد ما خطا الخطوة الاولى فيها . فاذا انتقم منه معاوية فله المنتهى . وآثر ربه على دنياه . قال وقد تراءى له انه يلمس بيديه اديم السماء : ما كنت لاجنح عن تحقيق ما يرشح به مقول سيدي . فان يكن الحسين يريدني على عقد هذا القران فاني للمجيب المطيع !

فقال الحسين: سلمت يا ابا الدرداء. نحن ننقذك من ابن هند اذا بغى عليك فلا ترهب شره . لا نزال نملك سيوفاً نقاتل بها وصدوراً نعرضها لطعنات الاسنة . ان بني هاشم لقوم يجانبون الواقعة . اما اذا اقتحموها فلن ينثنوا عنها الا وعدوّهم يجرض الهزيمة . معاوية لم يملكنا بالسيف ، بل بالمكر . وانت ادرى الناس بامرنا . فاذا طاب له ان يصدمنا بالسلاح ، بلا غدر ولا خداع ، فليقبل . ولكنه لن يفعل . اراهنك انه لن يفعل وهو في دهاء الافعوان . فلا يقوى على سوى الرثاء ينتضيه علينا . والرثاء لسنا منه ولا هو منا . فاننا لقوم نشأنا على الصدق وسلكنا النهج السديد . لا تخف من معاوية وانا كافيك لؤمه . ان مرابع الهاشميين لمفتوحة لك ابوابها ، فانزلها بسلام !

فتحمس ابو الدرداء وقد احاطه الحسين برعايته . قال: ما كنت اخشى في معاوية كيده ولا سورة حقده كي اتهيبه . ساعالنه بما كان من ارينب وانفض يدي من الظنة . فما اقدمت على سوى ما دعتني اليه ابنة اسحاق . هي اختارت وليس لي عليها حق الاكراه . واذا عاند ابن ابي سفيان في

تصديق مقالي طلبت منه ان يكويني بغضبته ولست افزع منها الى راجح الحلم فيه !

فنهض الحسين الى ابي الدرداء يقبل كتفه ويقول: احسنت ،احسنت. آمنت الآن بانك من الخلّص ، كم يشوقنا ان نقع على امثالك الصالحين !

واعاده الى ارينب يعقد له عليها . خير البر عاجله . ونقدها المهر الغالي. امرأة الحسين يجب ان ترتع في صداق ثريّ . وماجت الكوفة بالقول :قهر الحسين عدوه معاوية !

والكوفة ساخرة خبيثة تشوقها الفضائح تتداولها والخفايا تذيعها. واضاءت فيها الشماتة والحسين ينتقم لعبدالله بن سلام من غاويه . وجمعتها المجالس في الساحات والدور تهزأ فيها بيزيد وبابي يزيد . ضحكا من عبد الله فضحك منهما ابو الدرداء . أما اهتديا الى سوى ابي الدرداء يدفعانه الى مسعى لا يجيد احكامه سوى اشباه معاوية؟

ضلّ ابن هند الطريق وما عوّدهم الضلالة . فمن حاك المكيدة الدهياء ، وسلب عبدالله بن سلام امرأته ،يجب ان يملك نظراً ابعد ورأياً انفذ . فلا يهون بامثال ابي الدرداء . وتساءلوا : هل خبا في معاوية الذكاء اللمّاع ؟

ومشت الكوفة باسرها في العرس . الحسين بن علي يتزوج . ومن يتزوج ؟... وكيف يتزوج ؟... وزادت حكاية هذا القران في روعته وفي الاقبال عليه . فالجميع ودوا ان يبصروا ابنة اسحاق في حلتها البيضاء تجتاز ازقة المدينة الى دار ابن الامام . وعلت الاهازيج من كل فم. وسار الحداة على متون النياق ينشدون اناشيد الغبطة وقد حوت كل طعن على معاوية وكل استهانة بالامويين . ومن يستطيع ان يحول دون المثالب تفيض بها مراشف

الكوفيين وما في القوم غير الناقمين ، الطوال الالسن ، الشانئين ؟... فان الكوفة لضرة دمشق وخصيمتها ، لا تمت بصلة الى بني أمية وهي ترى فيهم اعداءها الالدة

وذكرت ارينب وهي تتمايل في حلة العرس عبدالله بن سلام . ما كانت لترغب في هذ الموقف ونفسها تشتهي الحبيب النجي . غير انها شاطرت القوم النقمة على معاوية في غشه ومينه . هو قاهرها وستقهره في ابنه ، بل ستقهر الاثنين معاً . حاربها ابن ابي سفيان في قلبها وستحاربه في جاهه وسؤدده ، وفي قلب معقد رجائه يزيد . وابتهجت روحها . يوم الانتقام هذا هو . والكوفة على سعتها نادت بان الانتقام وقع ، وان الحسين ثأر لابيه واخيه . واستدلت على الغد بالعبرة الطارئة . لن يدوم سلطان الامويين . فان هذه الدولة العريضة المتلألئة فيها سيوف بني امية ستقضقض بهم وينتهي الامر الى بني هاشم آل البيت وعترة النبي .

ولكن هل ضحكت الكوفة بملء جنانها ، هل اخلصت في اندفاعها ومشت بجانب الحسين على ايمان ويقين ؟... ان للكوفة مواقف لا تدل على ثبات في النصرة . ربما مالأت اليوم ابن علي وانكرته غداً . فهي كما يخطر لها في السانحة العارضة . فقد تؤيد وقد تجانب . فليس لها رأي صليب . ومناداتها بالحسين دعتها اليها ساعة الطرب والفوز . فالحسين هو الظافر ، والظافر يجد حوله حتى الخصوم ، بل يقع على الخصوم قبل الاعوان . فالاعوان لا يكلفون انفسهم ما يتكلفه ذوو الوجهين واللسانين . ثم ان الطرب ليس الحرب . فالحسين لا يدعو الى القتال بل الى الفرح . والفرح يلقى في موكبه كل ما هب ودب . فليس يتنكب عن الانطلاق في قوافله احد والجميع يروقهم

ان يضحكوا ويهزجوا وينشدوا ويأكلوا ويشربوا . والقليل القليل من هذا اللفيف يهوى الرمح والسيف وخوض المعارك الهوج

وزفت اربنب الى ابن فاطمة زفاف اميرة الى سليل ملوك . وحطت الهدايا مطاياها بباب ابن الامام فكادت تضيق بها الفسحات . وطال العرس اسبوعاً والشعراء لا يتغنون بجمال اربنب ، ولا بابتهاج حفيد الرسول باجمل امرأة حواها بساط الاسلام ، مثلهم بالنيل من معاوية ويزيد وبازدهار العزة الهاشمية . فالسيف الهاشمي عاد الى الى مضائه وقد وثب من غمده يجلو عنه الصدأ

وجمعت جعدة حولها اسنى فتيات الكوفة ووقفت فيهن تحثهن على الرقص والغناء . وبلغت الحماسة ما لم يبق فيه لمستزيد أرب . وتهادت جحافل الفرسان وقد ارتأدت الرماح في الايدي تنادي بالحسين خليفة المسلمين

ولم يعدم معاوية العمال يستمعون ويتجسسون . غير ان معاوية لو اقبل بنفسه الى هذه الامواج المتلاطمة لغرق فيها وتوزعته الافواه لقمة لقمة وليس يكفيها . فالثورة كان يومذاك اوانها ، الا ان الكوفيين لم يعثروا بمقاوم ولا بمنازل . فتطاولوا ما شاؤوا دون ان يجسر مقحام على نظرة يعلن بها تأففاً وامتعاضاً . وانتخى الفرسان على ابن هند وودوا ان يسيروا الى دمشق يفتتحونها بسيوف الهاشميين . فالانتقام الابيض يفرض الانتقام الاحمر

واشفق الحسين على ابي الدرداء وقد همدت فورة النشوة . ان معاوية لقاتله . فلن يحجب دمه وهو الممعن في ايلام يزيد . فالفتى الاموي وابوه يحتملان عودة اربنب الى عبدالله بن سلام فوق ما يحتملان زفافها الى الحسين . انها لزلة تقلقل مناعتها في الدولة الريّا . قال ابن علي يخاطب الشيخ بالحديث البصير

الحكيم: ابا الدرداء، لم يبق لك مكان في ظل معاوية. فاقم بيننا مرموقاً، مكرماً. فانك لتلقى فينا الانصاف والبهجة. اني لاخاف عليك من حقد يزيد إن تنعم بسماح معاوية. يزيد لا يغفر لك ضربة سددتها منه الى صميم طماحه فادميت فيه القلب والانفة وابحته لعضات الغاضبين. سينقم علينا معاً، عليّ وعليك. وسوف يتحين الفرص لطحننا. فكن منه على حذر. هذا فتى حقود لا يصفح عن اساءة ولا يصبر على جرح. انا اعرفه، فمن يخدشه نصيبه منه التحطيم بلا هوادة. انه ليطرب لرؤية الفواجع ويستلذ الغوص في الدم. ابوه، على سافل مكره، اسمى وارحم. فلا تصطدم بكيده. اذيتك له سيحفظها عليك ويحاسبني عنها. اما انا فانك لتعلم مقدار ازرائي به. واما انت فكيف تنجو من منسره وبرثنه. إبق بيننا. فلا تعرض صدرك للمنايا!

ولكن ابا الدرداء وقد وطن النفس على الاستشهاد مال عن النصيحة. لن يبالي الضربة يهدمه بها ابن هند وابن ميسون. فهو من ايامه على استصفاء ولن يمتد به زمنه الى يوم القيامة. قال: ادام الله بقاء سيدي ونفعنا ببراته، لست اريد ان يعتقد معاوية اني خنته. فعليّ ان اسير اليه اوضح له الامر كما وقع. واذا ابى ان يصدقني وشاقه الانتقام مني فلتطل يمينه انفاسي وليستلها مني وقد سبقني في الشوط ابوك واخوك!

ـ ولماذا المجازفة يا ابا الدرداء؟

ـ لا مجازفة يا ابن الامام. معاوية لا يجرؤ على الفتك برجال الصحابة وهم ألسنة الحق وسيوف الرسول!

فادهشت هذه الثقة بالنفس الحسين وقال بريبة تجنح بابي الدرداء عن همته

الحرون: اراك شديد الايمان بكرمه وحلمه كأنك تجهل من اودى بالحسن اخي ومن اغتصب الخلافة من ابي. معاوية لاتؤمن لسعته، فحذار ان تلدغك الافعى!

ولكن ابا الدرداء لم يجبن. سيعود الى معاوية يطلعه على ما لقي في الكوفة وقد التوى فيها عليه القصد. ولا يد له في هذا الالتواء وهو منه طاهر الثوب، نقي اليدين. ارينب تمانع في ان تزف الى يزيد بعدما وضح لها احتيال قصر الخضراء على عبدالله بن سلام زوجها. فآثرت ابن علي تشفياً وانتقاماً. قال الحسين: وهل يتراءى لك انك تقنعه؟

— لست احفل بما يكون منه. حسبي اني حاسبت ازاءك وازاءه ضميري. اني لانطلق اليه على ايمان باني قمت بما عليّ!

فصاح الحسين: ابا الدرداء، لا تشخص الى حتفك!

فابتسم كمن لا يخشى الحتوف وقال: سيدي، استشفع فيّ جدك صلاة الله عليه وانا بأمن من سخط ابن ابي سفيان بن حرب!

وغشي الحديث مسامع ارينب وجعدة وكانتا من الرجلين على وثبة. وشاطرت جعدة الحسين مخاوفه على ابي الدرداء فدلفت اليه تقول: لا تقتحم اشداق النار يا سيدي، انت في الكوفة بأمن من الغائلة. فاذا نجوت هناك من معاوية فلن تنجو من يزيد. فاني لاخشى عليك من ابن النصرانية. هذا فتى يزدري الكرائم ويطيح المصونات. فلا يرهب جليلاً ولا يتجافى المنكر. صارمه وانت الطويل العمر. فان سعيك اليه بعد تهاونك في النصرة وبال عليك. لكأني اراه يلحوك لحو العود فاحذر المقاربة. ان سيدنا الحسين ليدرأ عنك الاذية فلا تبرح حماه!

فابتسم برفق المطمئن. اذا قضى عليه معاوية او يزيد فان له ممن سبق

من رجال القافلة الميامين لقدوة حسنة . فليس بالضحية الاولى من ضحايا الظلم . قال : لا مفر من المقدور يا جعدة . مرحباً بالمكتوب . لست اتحامى مشيئة ذي الجلال !.

فقالت متأففة : أتنطلق الى المهالك وتكل نفسك الى الله ؟... من لا يصون نفسه من الزلق فلن ينجده ربه. مسيرك الى دمشق شؤم عليك !

واقبلت اريب تقعد به عن المجازفة . قالت : انت بيننا في اكرم اهل واصدق خلان، فما بك تحاول النأي عنا الى حيث يصطادك ذئب موتور؟... لا تبرح الحمى ، فأنت هنا على الرحب . لسنا نرضى ان يطولك الاذى وقد رغبت لنا في السعادة . دمشق كلها انياب لنهشك وقضمك !

فمضى في ابتسامته الرضية ، ابتسامة القانع بشقاء الدنيا لكسب الآخرة. ولم يتبدل عزمه . سير كب مطيته الى عاصمة الامويين . فلن يبدو ، وهو من رجال الصحابة ، خائناً جباناً . فالمهمة المنتدب لها لم يكتب له فيها التوفيق . وكان على ابن هند ان يختار سواه للامر الجلل وقد سلك فيه مستوحى الضمير . فان ابن علي لانبل وجهاً من ابن معاوية

وودع الحسين وصحبه . ودعا لهم بالغبطة الوارفة الميلاء . وحث جواده الى قفار طوال ، سمر ، عانى فيها الضنى وسيعاني الضنى . وتلبدت في جبينه غمائم دكن . فهو غارق في تفكيره . ماذا بدر منه ؟... اي حقد زاد في اضرامه واي نكبة جرّها على نفسه ؟... أيقوى على الوقوف من معاوية وجهاً لوجه وهو يتمثل منذ الساعة غضبة معاوية عليه ؟... ولكن اذا سدل معاوية الحلم على الزلة فهل يحلم يزيد ؟

وكلما جاب الفدافد ثقلت عليه الوساوس وتعاظم وقع الشر . الى اين

يسير ؟... أيجهـــل انه منطلق الى اشداق الموت ، الى الجزّار المنتضي السكين لذبحه ؟

وكل ما تذمر به من طول الطريق وهو مقبل الى الكوفة تلاشى فيه وهو عائد الى دمشق . فود ان يطول الطريق الى ما لا حد له ولا نهاية . ليت كانت دمشق في اطراف العـالم . فلا يبلغها الا وانفاسه على وشك ان تطير . بل ليت تطير انفاسه في هذه الصحراء ، فتطويه حفرة في الرمال المضياف ، المتأججة حنيناً الى انيس وقد اقامت من وحشتها على ملـــل واكتئاب

ومال بالركب الى الهوينا . فليس ما يفرض العجلة. دمشق لن تفر من مثواها . فهي على ضفاف بردى وستبقى هناك مشدودة الاطناب ، مغمورة بالحور والصفصاف ،فلماذا اجهاد النفس في الوصول الى مدينة لا خوف عليها من فناء ولا نوى ؟

ورهب دمشق . بات اسمها مقيتاً لديه ، فكأنها دار شقاء . واعتزم ان يمحو من ذهنه اسم معاوية ، وان يتجاهل يزيد . لماذا يخشاهما بهذا المقدار؟.. انهما لمن طينته ومن معدنه. فالخلافة لا تزيدهما قدراً . لن يرجحا بها عليـه وهو ممن آثرهم الرسول بعطفه وحدبه . ولكن أيتعامى عن الراهن المحسوس، أينكر اشراق الشمس ومعاوية وابنه يسطعان كالشمس في مجبوحة الفلك؟... ان اشعتهما لتمتد من القسطنطينية ، قاعدة الروم ، الى حدود الصين . فالى اين المفر منها وهي تشتعل سؤدداً وصولة ؟... وها هي في كبـد الصحراء تقلي وتشوي . وان ابا الدرداء ليشعر بلهيبهـا . فهي تكويه . ان معاوية هنا ، ينشر سلطانه على هذه الرمال كما ينشرها على الحواضر ، فما هذا السيد

المستطيل ؟

واستنجد ابو الدرداء بارواح من ضمتهم الجنة من سادة الاسلام العطارفة، ولكن هل يشفع الميت في درء المكروه ؟... غير ان الايمان ، وهو شعلة متوهجة ابداً في نفس ابي الدرداء ، لم يخمد فيه . فظل في صدره مضطرم الاوار ، يهيب به الى متابعة المسير ، صائحاً به : لا تخش !

وكلما وهنت في ذلك الشيخ همة الكفاح امدها الايمان بالعزة والمناعة . وشعر ابو الدرداء بالضعف والعزيمة معاً يعتلجان في صدره . فلا يتلاشى فيه عرق حتى يتصلب عرق . وانقضت على الركب الايام الطوال في طريقه الى دمشق وابو الدرداء منصرف الى شجونه . فلا يخاطب من حوله وهو في شغل عمن حوله . كيف يعتذر لمعاوية ، وهل يجدي العذر ، مهما كان من وجاهته ، في استدرار حلم ابن هند وكسب رضاه ؟

لقد تراءى لابي الدرداء في اعماق نفسه انه لم يكن صادقاً في اداء المهمة . فهو مكلف امراً واضحاً فلماذا جنح عما عُهد اليه فيه ؟... وطال تقلبه في وساوسه . وادرك من في الركب ان ابا الدرداء غير مستتيم الى مصيره وقد خاف سوء المغبة . فكيف يريده معاوية على امر جليّ فيعود اليه عابثاً بالمشيئة والرغبة ؟

وساد الوجوم الركب . فهو يطبع الرمال برواسمه بخطوة فاترة ، خائرة ، كأنه يمشي في جنازة صفيّ ظلمته الاكفان

٧

أهذه هي دمشق ؟... لقد تبدلت في عين ابي الدرداء . فكأنه يؤمها للمرة الاولى . فهي في ناظريه غيرها بالامس. وانه ليسائل نفسه اين هو؟... ما هذه البساتين الجهم البادية لعينيه وقد كانت متناهية في اخضرارها ؟ ... ما هذه الوجوه الطالعة عليه وكأنه لا يعرفها ؟... فهو في عالم جديد العين والخد .

وومض قصر الخضراء في باصرتيه فارتعش وانتقع لونه . فالشر يبطن هذه الجدران الشوامخ ، القائمة في صدر دمشق كأنها قضاء الله ، الباسطة اجنحتها بالرحمة وبالرهبة. فالظلم فيها والحلم فيها. الجبروت في صميمها والوداعة في ظلالها . انها لوكر اضداد . الحمل يعيش في حناياها بجانب الذئب ، بل ان هذا الحمل يبدو ذئباً اغبر ثم ينقلب الى نعجة بيضاء الصوف . فلا يستقر على لون لفرط رجرجته ، فيربدّ ويصفو بلا تعمل ولا تكلف شأن من طبعه اللفّ والروغ

وحاذر ابو الدرداء ان يندفع في طريق القصر . فليس يجهل ما يرقبه فيه . وتذكر كلمات الحسين بن علي وما برحت تتواثب في ذهنه . قال له الحسين : « إبق عندنا . انت بيننا بامان . فاني لاخاف عليك هناك من بطش معاوية . واذا أمنت معاوية فلن تأمن يزيد . لقد كويت قلبه وليس من العجيب ان يكويك !... ». فقال في نفسه: صدق الحسين . ليتني بقيت في

الكوفة . فمن الحماقة ان اعود الى دمشق بعد قهر يزيد !

ولكن الى اين يفر من يزيد ؟ ... فوطد النيـة على المثول في حضرة معاوية . ليس من ذلك بد . فعليه وقد تجرأ على الايلام ان يمضي في جرأته لا يرهب . واقتحم قصر الخضراء . كان يسير اليه على قدمين مضطربتين وقلب واجف . وما برحت صفرة الموت تكسوه . فهو من نفسه في برد رثيث . وبلغ القصر وهو يلهث . ولم يكد يستأذن على معاوية حتى اقبل الى الترحيب به القادة والحجاب . وماج القصر بالنبأ . ابو الدرداء عاد من الكوفة وقد خطب ارينب ليزيد

ومشى الى معاوية ففتح له خليفة دمشق ذراعيه يحاول ان يضمه الى صدره . ولكن ابا الدرداء في ارتعاش . فانه ليخشى الدنو من معاوية كأن في نعليه اثقالاً تقف به عن الخطو . بل هو لا ينظر الى الخليفة كأن في عينيه حسوراً فلا يبصر امير المؤمنين . فتعجب منه ابن هند . ماذا اصابه ؟ ... هل عاد من المهمة بالاخفاق ؟

وجمدت البسمات في الثغور . واستدارت العيون وجحظت . واطـل يزيد يصغي الى البشرى . اقبل بقلب اتسع حتى ضاقت عنه البطاح على مترامي فجاجها وقد تهادت اليه المنى . ولكن الرعب تولاه حيال الصمت المنشور . ماذا ؟... هل رجع ابو الدرداء يتعثر بالخيبة ؟

وسها معاوية وهو يجرض بريقه . وارتخت يداه فهوتا على جانبي مقعده . فما هذا الجمود يلوح له في ابي الدرداء ؟... وتجلت له النازلة فخشي على ابنه . وابى استطلاع رسوله خفايا الكوفة حذراً من الصعقة المتوعدة . فالخذلان ينطق في ملامح الشيخ القلق ، المكمد ، الغـائر في الارض . على ان يزيد وقد

هاله الموقف مال الى الاستفسار الوشيك . ماذا كان من ابي الدرداء في الكوفة ؟... وعبس يزيد . عرف الجواب قبل طرح السؤال . ولكنه ود ان يستفهم. قال بنزوة من سخط :ابا الدرداء ، ما هذا الشلل فيك كأنك من الاموات ؟... ألا تكلم ، ماذا فعلت في الكوفة ، هل انكفأت الينا موفق الجد ، مبروراً ؟

فالتفت ابو الدرداء الى من حوله وقال : اؤثر ان نقيم على خلوة يا امير المؤمنين !

وارتجف فمه وهو يفضي بهذه الكلمات المتصاعدة من صدر يغوص في الحرقة . فقال معاوية وقد قصم ظهره عبء الفاجعة : ليخرج كل من ضمهم الايوان !

فقلب القوم شفاههم حيارى ساهمين . ابو الدرداء خذله التوفيق . على ان الفضول عبث بالالباب . ما حال دون امتلاك البغية ؟ ... وود الجميع ان يعلموا . وعمدوا الى الاسهاب في التأويل . هل رفضت اريبنب ؟ ... قال معاوية وهو يخلو بيزيد وابي الدرداء : اراك تنعى الينا طلبتنا ايهاالشيخ المرتعد الروح ، فماذا اتفق لك في الكوفة ، هل عدت منها على اصفاء ؟

فقبل ابو الدرداء الارض بين يدي معاوية وقال : ادام الله امير المؤمنين في عالي مجده ورفيع سؤدده . ان ربك ليعطي من يشاء ويحرم من يشاء . وله في عباده ، تعالى اسمه ، احكام لا تدرك . فليس لهضيم ان يتذمر ولا لذي نعمة ان يصعر خد . نزلت الكوفة وكل من فيها عليّ عيون . فما دروا اني رسول معاوية الى اريبنب حتى تجلى لهم السر وسبقوني اليها يمنعونها عن يزيد !

فصاح معاوية : يمنعونها عن يزيد؟...أتكون العوبة بين ايديهم يحجبونها

عمن يريدون ؟

— سبقوني اليها يا امير المؤمنين يأبون عليها ان ترضى بمن فصل زوجها عنها . وايقنت منهم انهم ينطوون للبيت الاموي على ضغن وحقد !

فقال يزيد وقد احمر وجهه حتى كاد يتفزر بالدم : وماذا قالت اريب وقد حدثتها عني يا ابا الدرداء ؟

فهز رأسه جزعاً وقال : ماذا تريد منها ان تقول وكل من حولها يشدد عليها في الرفض ؟

— وهل رفضت ؟

— يكفيك ان جعدة اقبلت اليها تشكو ظلمك وتزخرف لها الاقتران بالحسين !

فشرق معاوية ويزيد بانفاسهما كأن حبة لسعتهما وهما يسمعان ان جعدة تواثبها بحفيظتها واضطغانها . لقد خسرا المعركة . فالحقد الفائر بين اضالع جعدة يذهب بمنيع الجهد . قال معاوية بوجل : وهل فازت جعدة يا ابا الدرداء ؟

فحنا الشيخ رأسه وغمغم : فازت يا امير المؤمنين !

فاحسها معاوية نخعة في جبينه وصاح راعداً : وكيف ؟... ويحك ! ان ثمة تحطيم كرامة واستفزازاً الى الاصطدام بالهاشميين . فهل يعيدان معركة صفين وينازلان ابن علي كما نازلا اباه ؟.. أيريدهما الحسين على قتال يتجنبان خوضه وليسا يدريان الى ما ينتهيان فيه ؟... هما ينظران الى هذه الدولة القابضة منهما عليها الايدي ولا يكادان يصدقان انها سيداها ، فهل يعمدان الى حرب قد تمسي فيها الريبة يقيناً فيفلت منها ذلك الملك

الفسيح ؟

ونظر بعضهما الى بعض وملامحها في فحمة اليأس ، والغصص تفاجئهما دراكاً كأنها لا تنتهي . وطاولهما الرعب فنتأت الاعين وتفتح الفمان . واطرق ابو الدرداء وناظراه يبحثان في اغوار الارض عن منفذ للفرار . وتسنى لمعاوية ضغط اعصابه وامتلاك نفسه فقال : وهل تزوجها الحسين ايها الشيخ ؟ .

فتصاعدت الكلمات من حنجرة ابي الدرداء تحشرج حشرجة الموت . قال وهو يتوقع انقضاض الموت : تزوجها يا امير المؤمنين ! .

فخيل الى معاوية انه يسمع باذنيه قضقضة عرشه . وهاج يزيد فهمّ بالوثوب على هذا الشيخ المأفون يرديه وصاح : تزوجها على مرأى منك ؟... وانت في الكوفة ؟... اخشى ان تكون عقدت له عليها بنفسك . والله لاسفكن دمك وقد وصمتنا بالعار حتى ابد الابيد !

ونفخ فيه غضبه . عجباً لغضب ينوح ويهون !... فما ابقى فيه ابو الدرداء نزرة من صواب . وهجم على الشيخ المرعوب وفي يديه مخالب رهاف ، وفي فمه زبد ، وفي عينيه نار . وكاد يقبض على عنق هذا الرسول الغبي ، او المتغابي ، ويقبض منه روحه لو لم يثب معاوية عن عرشه ويحول دون مستفحل الشر . فلم يكن يزيد يدرك اي جريمة سيرتكب واي اثم سيضيف الى ما تراكم في قصر الخضراء من آثام . فان مقتل ابي الدرداء ، اذا وقع ، سيكون اشبه بمقتل عثمان بن عفان . فاذا بنى معاوية شهرته وجاهه على قميص عثمان ، داعياً به المسلمين الى الانتقام للخليفة الشهيد من خصمه علي بن ابي طالب ، فلن يختلف موقف الخصوم من مقتل ابي الدرداء عن موقف معاوية من

مقتل عثمان . سوف يحملون قميص الشيخ ، وهو من رجال الصحابة ، ويبكون عليه ويستبكون ، طالبين الى المسلمين الاثار من معاوية للدم المهدور . هذا صفيّ النبي ووديده يبطش به ابن ابي سفيان !

ولم يكن يجنح معاوية الى تمثيل مأساة اشبه بمأساة الامس . فالمبتغى الاوحد في شرعه ان يوطد تحت قدميه مقام الخلافة . وفي سبيل الاعتصام بالخلافة كل تضحية تسوغ . فاذا لم يعد ابو الدرداء موفقاً من مهمة معقودة عليها الآمال فلن تعلو الضجة ويستصعب الامر . فالضجة في علوها واحتدامها تبعث على خضخضة قد يضطرب بها مسند الخلافة . وللحؤول دون هذه الخضخضة يجب اعتماد السكوت . السكوت والرضا بالمقدور . فلا سورة تضرم الثورة وتحرق الاخضر العود . وصاح معاوية بيزيد : حذار ان تمد اليه يداً بسوء . اني لاحميه من عدائك . اياك ومسه بشرّ . انه لمن رجال الصحابة فلن تحدجه عين شزراء !

ووقف معاوية بينهما يهدد يزيد ويقول : اذا لم يوفق فالتبعة لا تطوله والكوفة تضيق باعدائنا . كلهم هناك يريد لنا الخزية . ولا تدهش اذا جانبتك ارينب . فالسر في ان ترضى بك زوجاً . وما كنت اميناً عليك منها لو قبلتك حليلًا . فان حكاية جعدة في الحسن لتعود الى الظهور . احسنت في مصارمتك وصانتنا من الندم . انها لصادقة المخبر ، كريمة العرق !

والتفت الى ابي الدرداء قائلًا : اما انت يا ابا الدرداء فلا تنقم على يزيد في حدته . فانت تعرف من امر ابني ما لا حاجة فيه الى ايضاح . يزيد غضوب فلا تعتب عليه في بادرة الغيظ ، الا انه سليم القلب والنية . ألا انصرف يا يزيد . دعني وابا الدرداء في محادثة يفرضها المقام . ولا تجزع

للخيبة ، انها لغيمة صيف وتتبدد . ففي المطمئن العربي الف اريب، وليس فيه ليزيد عديل !

وصرفه عنه برفق وتؤدة وامر. وعكف على ابي الدرداء يخاطبه بقوله: وقانا الله واياك داهية الخذلان يا ابا الدرداء . فاذا دفعنا عنك نقمة يزيد فليس انقاذنا اياك من غيظه بالدليل على انك اجدت واحسنت . انت ما اسأت الى يزيد في قلبه وشممه ، بل اسأت الينا جميعاً معشر الامويين . ان يزيد ليجلني ويرهبني ويأبى ان انطوي له على سخط . فاذا رضي بالانصراف وقلبه يقطر دماً فلن يغفر لك ايلامه والسخر من هواه . فسوف يحفظها عليك ويطلب دمك، فابتعد عن طريقه لئلا يطولك ويشفي منك بلباله . ربما كنت لا تعلم مدى هيامه بارينب . فاذا عالنتك بانه يعدل بهذا الهيام سدة الخلافة فصدّقني . لقد ظهرتَ في الكوفة عاثر الحكمة ، ملتوي النهية . والمعتبة عليّ وحدي . كان من المنطق الصحيح ان لا اعهد اليك في ما انت دونه . رميتنا بغضاضة ما عرفنا لها مثيلاً منذ ملكنا السيادة في الاسلام . ألا اين حجاك ؟... أتتولى المفاوضة في امر فتدور فيه علينا الدائرة؟... انها لسخافة كنت اود ان انزهك عنها ، ولكنك اقدمت عليها فيا لضياع املي بك . لم تكن عند حسن الظن !

فتألم ابو الدرداء وهو يسمع مقال معاوية الواخز ، على عفة في البيان ، اكثر منه وهو يفجأ بتهديد يزيد. فان معاوية ليحسن صوغ المعنى القاصم في القالب الرزين فيوجع من يندد به دون ان يدميه . ففي لسانه عضات قوارص الا انها سريعة البرء والاندمال. فيصغي اليه حتى عدوه ويقول فيه : « لقد اذلني !... » ، ولكن لا يستطيع ان يقول فيه : «لقد شتمني !...».

فالشيمة كانت تنبو عن ذلك المقول المطبوع على الدهاء . واصيب الشيخ بالخرس ، وشعر بمبلغ ايذائه . جاوز في اساءته امد الرفق . قال معاوية وهو يعافي مضض غضبة بكماء : أتدري ما فعلت ؟... لا تتجاهل ان تكن تدري . كتبت للبيت الهاشمي التفوق على البيت الاموي . فاي شيطان عبث بلبك واعماك ؟... فالامر يعدو خطبة حسناء وزواج ، انه ليهدم سياسة عميقة الغور بذلنا في تشييدها الغالي والرخيص . ألا افصح ، هل هاج فيك الحنين الى ابن الامام وانت تؤم الكوفة فعرجت عليه واطلعته على ما انتدبتك له من سعي ؟

فاستعاذ ابو الدرداء من الشر الكاشر . وازدادت عيناه استدارة وتفاقمت فيه الرهبة . أيجلو لمعاوية النبأ الصدوق ؟... ما تعوّد الكذب وان يكن فيه نجاته . ثم هو اقبل مستشهداً غير حافل بما سوف ينتابه من سوء عقبى ، فما عليه اذا باح بالمكنون واوضح المقدور ؟... لينزل به غضب ابن هند محرقاً مبيداً ، فما الكذب ديدنه وان قاده الصدق الى المهلكة . قال بصوت هادىء الا انه حازم : لقد عرجت عليه يا امير المؤمنين !

فاعتصم معاوية بالجلد . ماخانته اعصابه وقد طاب له الامعان في الاستدراج . فهو يروم استطلاع الخفايا فلا يبقى ستر يحجب مضمراً . فلماذا ترويع ابي الدرداء ؟... قال يستبحث : عرجت عليه ورويت له الامر في جليله ويسيره . ابلغته انك مقبل لتخطب ارينب ليزيد !

— وهو كذلك يا امير المؤمنين !

— وشغفت ، وانت تراه ، بطلعته الوقور . اذكرت فيه جده الرسول وامه فاطمة ، واباه علياً ...

فتمتم ابو الدرداء مقاطعاً بابتهال : الصلاة والسلام على النبي وآله يا امير المؤمنين !

واصغى معاوية الى التمتمة ،وما تمالك ان صاح بينه وبين نفسه صيحة صماء كاد بها يميد : يا للشقي ما اتقاه !

وظل سيد اعصابه وعيناه على ابي الدرداء الغائر في خشوعه . قال :وبدا لك ابن الامام وحفيد سيد المسلمين اولى باربنب من يزيد وانت تعلم ما تخطر فيه ابنة اسحاق من حسن شهيّ وخلق سويّ !

فجمدت عينا ابي الدرداء على ذعر مستطيل . قال وهو يتلعثم لفرط الهول : من انبأ امير المؤمنين ان ...

فقال معاوية : أليست الحقيقة في ما اوضح ؟

فارتجفت شفتا ابي الدرداء . ماذا يعلن ؟... وغلب فيه الصدق المواربة فقال باستخذاء وهو يرقب ان تنزل به نقمة معاوية قاصمة كافرة : ان جعدة لغاوية يتبعها الغاوون يا امير المؤمنين !

وحنا رأسه للضربة. هذه عنقه. فقال معاوية وقد اباح لغضبته ان تتنفس بقدر ما يشاء : أتدري ما يجب فيك من قصاص يا ابا الدرداء ؟... والله ان استئصال هامتك لقليل . اوفدتك الى اربنب لتدفع عني لجاجة يزيد وتخفف من لاعج فتى مستهام، فماذا كان منك؟... كان انك زدت في الالم وقطعت الرجاء وطعنتنا في مناعتنا . فكأنك لنا عدو في ثوب صديق . بل انت هذا العدو يا ابا الدرداء . ان الفاجعة لاعظم مما يخيل اليك. فلقد خنتنا في كرامتنا وحسبنا والموت جزاؤك .فما حملك الى الحسين وما انت بموفد اليه ؟... هو الحمق اهاب بك الى مخاطبته في مهمة ليس من الحق ان تعدو اربعة ، انا

وانت ويزيد وارينب ... أتكيدلنا وتدس علينا ؟... والله لولا يقيني بضعف فيك لاطعمتك حمامك . ولكن غباوتك هي الشفيع . فالتبعة عليّ وحدي . كان من الانصاف لنا ولك ان نعهد الى سواك في الامر الجلل، الا اني خُدعت فيك . ألا فاذهب ولا تمرح في هذه البسطة . اني اخلع عليك حلمي ، على اني لست اعصمك من يزيد . هذا فتى حطمت قلبه واماله ، فقد يثور اذا رآك وينقض عليك غير راحم ولا متحرج . فابتعد عن طريقه . اخشى ان يكون واقفاً لك بالباب . واني لمسك بزمامه ما دام ينعم بالنهية ، اما اذا احتدمت فيه الغضبة فاني لاشفق عليك منه وهو المحطم كل قيد والفالت من كل زمام وذمام !

فارتعد ابو الدرداء . تمادى معاوية في تخويفه من يزيد . وندّى جسده العرق البارد . فهو ينزو هلعاً . وضاع عن نفسه . فبات لا يشعر بانه يسير في الارض وقد اذابته خشيته . ورضي معاوية بعض الرضا وهو يراه يغيب في الوهلة . وشاقه تعذيبه . قال : دمشق لا تقم فيها، وقصر الخضراء لا تعد الى وطء عتبته . فان ارتيادك اياه للطخة في جبينه . كنا نحسبك درهماً وازناً فاذا بك زائف خادع . انصرف . رؤية الغادرين الاغبياء تزعجني في صميمي!

فاجتهد ابو الدرداء في ان يتحرك وان ينفض عنه ذعره فما أُوتي العزم. فالمخافة نزعت منه القوة فتلاشى . وصاح به معاوية وقد ايقن من ارتخاء الشيخ : هلا انصرفت ؟

فلملم نفسه ببقية من همة ،وهو الرازح تحت عبء الروع والمهانة ،وزحف متعثراً بالفزع والرجيف . وخاف ان يفتح الباب فيما ينبغي الانطلاق . فقد تراءى له شبح يزيد على العتبة . ورغب معاوية في ان يلهو برهبة الشيخ فقال:

اصلح من وقفتك ، اراك تغور في الارض !

فألقى ابو الدرداء نظرة على الخليفة الساخر فتعاظم اضطرابه . لقد ومضت في وجه ابن ابي سفيان عينان راعبتان تنضحان بالهزء القاضم . هذا هو معاوية بكيده ونشوة اعتزازه . فكأنه لا اصيب بكرامة ولا ارتبك في امر ابنه ، وكأن الرزيئة لم تنل منه منالاً وقد استخف بها فتساقطت كليلة تحت قدميه . وشق ابو الدرداء الباب فراراً من هذا المرأى المخيف. فآثر ان يُضرب بسيف يزيد على ان يعرض نفسه لاستهانة معاوية وسخره. ووثب في اروقة قصر الخضراء وقد وهب له الذعر قوة وخفة . فركض ركضاً مرعوباً هرباً من نقمة يزيد وتهكم ابي يزيد . ومن ابصره في وثبه خامره ريب في حلم الشيخ .

ولم يصدق انه نجا من القصر . فان هذه الخطوات القلائل بينه وبين الطريق بدت له اطول مما بين دمشق والكوفة . وما استطاع ان يتنفس ملياً الا وقد بلغ عتبة منزله ، بل وهو يختبىء في صدر منزله . وما برح يتلفت كأنه يخشى ان يتبعه يزيد شاهراً نقمته، وان يكون ابو يزيد ماضياً في تسديد تلك النظرات الخبيثة الدامغة اليه. ولم يؤمن بالنجاة . فكلما دق الباب خيل اليه ان ابن معاوية اطل . وساءل نفسه عما يثير فيه هذا الفزع كله . ليقتله يزيد وقد راقه الاستشهاد . فليس باول من طارت روحه في سبيل معتقده

ولكن هذا الميل الى الاستشهاد لم يكن يمنع عنه البلبال. فهو في بحران ادنى منه الى الخبل . واستجار بربه من الشر المهدد . يزيد لن يصفح عنه . واستقر في منزله لا يبرحه . وتعاظمت مخاوفه فبدا ساهماً ، متعباً ، لا يطيق طعاماً ولا شراباً . صدق معاوية . انها لخيبة ترهق العزائم وتذل الانوف !

٨

هذا الزهو في معاوية ، وهو يصرف عنه ابا الدرداء ، صار الى كسوف في الرجل الداهية وقد خلا الى نفسه . جازف بسمعته وبابنته لاجل يزيد فانتهى به المكر الى الهوان. فماذا سوف يقول فيه المسلمون حين يفشو فيهم النبأ ويذيع ؟ ... من الراهن انهم سيشمتون بالخليفة . وقع ابن هند في حفرة احتفرها لسواه وجنى على نفسه وعلى ولده . فلم يكن من الشمم والاباء مداورة رجل لفصله عن امرأته ثم الاخلاف بالوعد. فما في الامر غير احبولة وكيد . والاحبولة والكيد ارتدا الى معاوية فذهب ضحية مكيدة نسجها بيديه

والآن كيف يسكت الالسنة الثرثارة ولا بد ان تستطيل، وكيف ينفي عنه الدس واللؤم؟... انه لعاجز .غير ان الالسن الثرثارة يحتمل وقعها، والدس واللؤم بضاعة موفورة لديه ، فلا ينتقص من قدره ومكانته تعييره بها ما دام صاحب الامر والنهي في المسلمين. وهب انتُقص من مكانته وقدره فانه ليبني المتهدم بسماحه وحلمه . وكل ما يعجز عنه ، ويقر بعجزه عنه ، ارضاء يزيد بعد هذا الاخفاق الحاطم . اقام الدنيا واقعدها في سبيل يزيد ولم يفلح . فوارب ، وداجى ، وكايد ، وافضى جهاده في الباطل الى ما لم يكن يرجو ويريد .

ضلّ الهداية في اعتماده ابي الدرداء. فكان عليه ان يدرك ان هذا الشيخ

من المتعبدين ، وان المتعبدين ذوو آراء لا تتسع وتتسامح اذا دهمتها حوافز الدين . واي كفاح نهيك سينقذه مما ورطه فيه ابو الدرداء ؟... كتب للبيت الهاشمي التفوق على الامويين . فما بذل فيه معاوية وعمرو بن العاص دهاءهما وعرضهما محاه ابو الدرداء في مجاملة وخطب مودة. انها للطمة ممضة من الصعب ازالة اثرها الوجيع

وحار في ما يدرأ به عن يزيد عبء النازلة . باي كلام يبدد ما في نفس ابنه من قهر ونزق ، وكيف يصون مهجة هذا الابن من الذوبان؟... فلا بد ان يقبل اليه يزيد حانقاً ، فكيف يدعوه الى الاستكانة والهدوء ؟ ... وما تماسك ان قال : لعن الله ابا الدرداء ، حماقته جرّتنا الى الوبال !

واتكأ على عصاه وهو في تفكير شتيت . انى ينجو من هذه اللطخة السوداء الذيول ؟ ... وودّ ان لا يرى ابنه . ونادى حاجبه يقول له : اذا بدا يزيد فابلغه اني امنع عني الجميع . فلست في موقف يجيز لي الالتفات الى احد حتى الى ولدي !

فقال الحاجب : اطال الله بقاء امير المؤمنين ، ان يزيد لفي الباب وقد اصرّ على الدخول بلا استئذان. واني لاجاهد في اقناعه بان لا يفعل، ولكنه غاضب نافر يعلو الزبد شفتيه وتقدح عيناه بالشرر !

فصاح معاوية : أيكون يزيد بالباب ؟ ... لا تبح له الدخول . لست ارغب في رؤيته . ابلغه اني في شغل عنه !

ولكن يزيد انتهز فرصة دخول الحاجب على معاوية ليلحق به . وبدا تتواثب فيه الثورة . قال بصوت جهير دون ان ينحني امام ابيه : أيكون امير المؤمنين راضياً عما انتهت اليه حال ابي الدرداء في الكوفة ؟

فاجاب معاوية وقد حسب للغضبة الفائرة في يزيد حسابها البليغ : ليس امير المؤمنين بمن يرضى عن الخذلان يا يزيد . أفلا ترى اين اصبحنا بغباوة ذلك الشيخ الواقف من دنياه على تتمة صلاة وخشوع مهجة لا يجيد سواهما ؟... فضحنا حيث رجونا منه الغوث !

فقال يزيد واسنانه تصطك ، وعيناه تغليان ، وعروقه تتشنج : ولكن ما بدر من الشيخ المتعبد يجب ألا ننام عنه . فمن شهد معركة صفين لا يرهب معركة يشهدها ، بل يضرمها ، في الكوفة الخؤون !

فارتاع معاوية . ونظر الى ابنه برهبة وقال : يزيد ، اي بيان يفضي به مقولك ؟

فأجاب والغيظ يتأجج فيه : ما لم ندركه بالسلم يجب علينا ادراكه بالحرب!

ـ وكيف ؟

ـ بان نغزو الكوفة ونسبي نساءها !

فانقلبت اسارير معاوية وخشن صوته وقال باضطراب : أتدري اي كلمات ينضنض بها فمك يا يزيد ؟

فاجاب والغصص تشوكه فما يطيق بها افصاحاً : ربما كنت اجهل انك تستحمقني ، غير اني اعلم ما اقول . ما لم نوفق فيه بالملاينة علينا ان نصل اليه بالشدة . فنهاجم الكوفة ونستولي على اموالها ونسائها ونأسر رجالها ونبيحها للنار!

ـ وهل يطيب لك ان يقال في ابيك انه هدم دولة لاجل امرأة ؟

ـ ليقل الناس ما شاؤوا . ارينب اريد . ولقد سعيت اليها على دعة فما ادركت الوطر . وسأسعى اليها على رؤوس الاسنة والفوز محقق لا شك فيه!

ـ وتهدم سمعة ابيك ؟... وتلطخ كرامته بالشين ؟

ـ تحكيم ابي موسى الاشعري في اذرح، على غرابته، لم يصب ابي بسوء، فهل اخاف عليه من غزو الكوفة ؟ ... وتسميم الحسن وقد باشرناه معاً لم ينلنا باذى ، فهل من ضير علينا ونحن نهاجم الحسين ؟

ـ والتاريخ يا يزيد ، والتاريخ ؟

ـ اني اهزأ من كلام ينقل ويروى . فالتاريخ لمن بعدنا لا لنا . وما شأننا في من يقبل على اثرنا يتحدث عنا ؟ ... ان من يكتب عن موقفنا من علي والحسن لا ضير عليه اذا سرد موقفنا من الحسين ؟

فتأفف معاوية . ليس باضطرار الى هدم دولة لارضاء ابنه . يكفيه ما قام به من شعوذة لاجل هذا الابن . قال : يزيد ، لا تكن اعمى . سكوتنا عما اصابنا من فضيحة خير من اثارة القلاقل للوصول الى المشتهى . هذه الدولة غير ثابتة الدعائم تحتنا . ان نسمة ريح لتذهب بها . واذا رأيتني في اشروجبروت ألا فاعلم اني اظهر من القوة ما لا املك كي اظل قابضاً على مقود الامر . تالله لو ابديت رعشة من ضعف لاكلوني . فالخصوم يرهفون اظفارهم لذبحي . فارفق بي ، بل ارفق بنفسك . هذه الدولة ستنتقل اليك بعدي ، فلماذا المجازفة بها وهي مرتعنا وحمانا ؟... أتجازف بها لكسب رضا حسناء ؟ ... ان تحت هذه السماء للمئات من شبيهات اارينب على حين تخلو البسيطة من نديد ليزيد . ألا فانس ابنة اسحاق ما دام زمنك يعاندك فيها . إنسها . لو كان زواجك منها نعمة لاقبلت هذه النعمة على يسر . زفاف الخلافة اليك افضل من زفاف امرأة ربما لن يكتب لك في الاقتران بها التوفيق . فالحسان في دولتنا لا يحصى لهن عديد ، فلماذا نشدد في ارينب ولا نبالي سواها ؟ ... ان اكرمهن حسباً وملاحة لتهتز شوقاً اليك . أتويد ان تؤلم ارينب ؟... اعرض عنها . اعراضك

عنها يكفي لاختناقها في حسرتها . فليس يقتل المرأة كالاستخفاف بها . هي تحسب نفسها ذات سلطان ، فاذا شئت ان توجعها فاعبث بسلطانها . ابوك خير قبلك الدنيا ، فلا تنم عن نصح ابيك !

فشعر يزيد بعنف الحجة ودقتها في معاوية . وهدم كلام هذا الاب بعض عناد الابن، غير ان ابن ميسون ظل يمسك على رأيه في مقاتلة الكوفة مع استيقانه انه رأي فطير : قال ماضياً في النزوة : أيجوز لنا ان نغضي على الفضيحة ؟... فالقوم ما تعمدوا ايلامي دونك ، بل رموا الى تحطيمنا بعصا واحدة . فما ابتغوا الاساءة الى يزيد بقدر ما تعمدوا هدم معاوية . وجماعة هذا شأنها لا اجد من كرم الخلق اباحة المجال لاباطيلها . فان لم ينهشونا اليوم حصرماً فلن يعفّوا عنا غداً ونحن عنب نضيج . اين سيفك ؟... ارفعه واخبطهم به . انهم لكفرة مناكيد !

فابتسم معاوية ابتسامة الملاينة، وهي ذات اثر في سميعه امضى من البيان الحفيّ . قال: رفقاً بالناس يا يزيد . ان نحن آثرنا انفسنا ابداً عليهم فاروا واغاروا علينا وليس من يردعهم عنا . لا بأس ان يفتئتوا بنا حيناً بعد حين ويتوهموا انهم تغلبوا علينا ونحن نقبض منهم على الارسان. فان هذا الظفر نهبه لهم ليشير الى عفونا والى رغبتنا في المساواة بهم . فلنكن واياهم بين كفة ترجح وكفة تشول . فالالحاح في قهرهم ابداً يلطمنا بالاحقاد . وما ادراك ما الاحقاد يوم تهيج . هي يوم القيامة . ألا فلنصبر على اللطمة صبر غير المكترثين . فالسلطان لا يبرح بين ايدينا . وان يكن الحسين سلبك ارينب فان الحسين لمن رعيتك . انت السيد وهو المسود . ليكتف بارينب ان تكن تلهيه عن المطالبة بحقه في الخلافة . وهذا كثير . تعال، تعال اضمك الى صدري

واعالنك بما سوف اعوضك من اخفاقك في ابنة اسحاق . ساكتب الى الآفاق انك وارثي في الخلافة . فان هذه الدولة الذاهبة في الارض على امتداد وانبساط لك وحدك بعدي . انت مولاها وامير المؤمنين فيها . فالملك ينتقل مني اليك شأن اقيال الروم . فالدولة ارث الجد الى الاب فالابن فالحفيد !

واذا الستار المضروب في زاوية الايوان يرتفع وتبدو من ورائه صفية بنت معاوية . قالت على كمدة : ابي، سمعت كل ما دار عليه الحديث . لقد جاهدنا باطلاً . فمن المضرة لنا ان يقال فينا اننا قصرنا عما طمعنا فيه . عبدالله بن سلام يشمت بنا ، والحسين وانصاره في طليعة الشانئين . وابي اليوم في المسلمين سيدهم وحاميهم ، فما يقف به عن رد كيد الحسين الى نحره ، فتصرعه بسهمه وتمحو عن جبينك لطخة التحقير !

فتنكر معاوية لابنته . حسبها له فاذا بها عليه . قال بامتعاض المكدود : صفية ، ما دمت قد سمعت فعليك ان تدركي ان اباك على صواب . ليس الموقف بمسعفنا على مقاتلة ابن علي . انزلنا اباه من شاهق ، وجدلنا اخاه ، وملكنا الامر في هذه الدولة . فان يتصيدنا الحسين في امرأة فما بلغ مناله منا . هذا انتقام سخيف . لو هدم بنا سرير الخلافة لكان من حقه التفاخر ، اما والقضية قضية زحام في زواج فلننظر الى الامر نظرة تبعد بنا عنه . ليتزوج ابن علي من ابنة اسحاق ، ليسبقنا الى كل حسناء عطرة الشذا ، فالاقبال على الزواج لا يشيد دولة ولا يرفع تاجاً على مفرق . يزيد قنع بما عرضت عليه . سأهيب بالمسلمين الى مبايعته بالخلافة . فلا يكاد ابوك يغمض عينيه حتى تنتهي مقاليد الاسلام الى اخيك . فالسؤدد فينا وسنظل نتداوله كابراً عن كابر !

قالت : ويضمحل كل ما بذلنا من جهد ؟

ـ واين الجهد يا ابنتي ؟... كل ما اقدمنا عليه اننا ادرنا ألسنتا في حلوقنا . ابوك تكلم وانت جاريته في النطق . بيد ان الريح لم تكن مؤاتية ، فما تم لنا الامر كما رغبنا فيه . وهل تريدين ان نحترق في خيبتنا لامر مبتذل سخيف ؟... لنكن اوفى ادراكاً . دولة ابن ابي سفيان لن تتهدم لاجل عينين سوداوين في امرأة ذلفاء . ناضل ابوك الليالي الطوال قبل ان يصير اليه السلطان في هذه البطاح . ولست اراه على أهبة للتضحية بما نال بعرق الجبين في سبيل ذات صباحة غيداء . اني لاهب ليزيد ما تهون عنده جيوش الحسان . اهب له ما بذلت لاجله سهر العين وضنى القلب . ليتربع في هذا السرير بعد ابيه . كان الامر شورى في الاسلام وسيجعله معاوية مرهوناً بمشيئة سيد فرد . اتفق لي ان عدوت عن السنن وانزلتها على حكمي . وهذه سنة سأعدو عنها وافرض فيها حكم الوراثة ولن اجد من يعارضني . فالخلافة لنا نحن الامويين وارثاً عن وارث . فيتقلب في مقعد السلطان ابني وحفيدي وكل من ينتقل اليه الارث عني . واي قدر للمرأة في هـــذا السؤدد الواثب بمنعته الى مناطحة الآباد ؟

وزخرف لوليديه الملك الرحراح والمجد النامي فابعدهما عن ارينب . ومن هي ارينب في هذه الدولة السائرة الى غدها بجلال ، والمقيمة من يومها على طلالة ؟... انها لنفّاخة برّاقة ، منمقة ، غير انها تحبو الى انطفاء . اما العرش والصولجان فالابد مداهما . ان ارينب لفتاة زائلة ، على حين ان الخلافة شعلة متمادية الضرم ، يستضيء بنورها العرب ومن آمن بالله ورسوله من العجم . فهي بضّة العز ، وهاجة الاطار ، يموج في رحبتهـا الخلق الرداح وتنحني لها

الجباه ، فكأنها قبة الدنيا !

ووقف يزيد يفاضل بين الخلافة وابنة اسحاق، فما كان جلال الخلافة ليمحو في عينيه سناء ارينب . هذه بطانة تلك . فالدلال لا يتوافر ان لم تكن ارينب مسحب ذيله . وبكى يزيد . ان هذا المستهين بروائع زمنه ، الضاحك من تفجع عاشقاته ، الضارب وجه النعمة بسوط من هزء وسخر، اطلق دمعة احرقت خده . دمعة اشبه بالجمرة المتأججة ، الحمراء . فسالت من عينيه تتلظى وهوت على وجنتيه تنهش وتؤلم . فقد تنزت بها لوعته وشاع فيها عمق مضضه . هي ذوب قلبه المهصور . كان لهذا القلب في حبه الحساس فضالة من امل فعدا عليها الدهر الظلوم .

وشهدت صفية مهوى دمعة اخيها فاكتوت بها . ان يزيد ليسبل الدمع . لعن الله ارينب كم امعنت في التعذيب. وما تماسكت ابنة معاوية ان جارت اخاها في لوعته . فهي تشتعل بنار يزيد . وابصر الاب ولديه في حرقة فضم يزيد الى صدره وماجت عبراته في باصرتيه على رجحان . فلم يكن قصر الخضراء على مورق عوده ، وبسطة قدرته، بالدار الصافية الاديم ولا الهنيئة اللباب . فالكدر يعروها ويذهب برونقها الوضاء

وطالت غمرة الدموع . فالمصيبة الخالعة قلب يزيد رزح تحت عبئها البلاط. جهد ثلاثين عاماً في دمشق ازرت به امرأة كل فضلها وقدرها ان في اعطافها رقرقة من دَل وفي حدقتيها وميضاً من فتون

وما استطاع الثلاثة نطقاً . فالغمة قعدت بهم عن نبس الكلام . واي كلام تفيض به الشفاه والعز غير موفور، والوسع ضيق الامد مع رحبة المجال؟ ونظر الثلاثة معاً الى هذا الملك الفسيح نظرة الاكمداد . فان تكن

السلطة القابضة عليها أيمانهم لا تبيح لهم القوة على الظفر بامرأة ،فاي وزن لهم في مغالبة الزمان ؟... وادركوا ان الزمان سيد لا يقهر . فالرؤوس مهما علت تتحطم على صخرته ،والايام طوع يده،فلا سبيل فيه الى مكابرة وعناد

٩

دمشق على بكرة ابيها مجتمعة على عبدالله بن سلام تصغي اليه في مثالبه ومطاعنه. فهو ناحب ناقم . يجوب ازقة المدينة وجاداتها شاكياً بلواه ، ناشراً حقده ، فاضحاً مكر معاوية ولؤمه . دعاه الى طلاق ارينب ليزف ارينب الى يزيد . أيبلغ الصغار بالخليفة الى التمرغ في هذا الاسفاف ؟

ووقفت دمشق من المتذمر المتألم موقف التأييد . فانه لعلى صواب في ما يبث من ظلامة . معاوية لم يكن على وفرة دهائه بالرجل اليقظ الواعي . ضحى بعالي مكانته لاجل عينين نجلاوين . وثارت الاقاويل وتناهى صداها . ونظر كل من وقع في مسمعهم النبأ الى معاوية نظرة الامتهان . اذاً ليس في المسلمين من هو امين على نسائه ما دام الخليفة يسلخ اية امرأة شاء ممن يشاء ، حتى من اقرب المقربين اليه ، من ابناء اعمامه !

ولقيت سمعة معاوية الضيم وعبدالله بن سلام يغرق في الاستطالة . وشعر قصر الخضراء بالاحتقار يلطمه . فالناس نفروا من حاكم يستبيح المصون . واقبل الضحاك بن قيس الفهري على الخليفة الساهي اللهيف يقول : هل لامير المؤمنين اذنان تسمعان ؟

وابتسم معاوية للضحاك وهو يراه بالباب . رحب به باحدى هاتيك الابتسامات المصنوعة ، الجاهزة ابداً . غير ان الضحاك ظل منها على جموده . فكأنه يحمل نعياً مشؤوماً . وبدا في وجهه الاكفهرار . فانه لفي موقف

لحانق المتألم . كل ما في وجهه على انكسار ، من جبهته حتى لحيته . فقال معاوية فيما بينه وبين نفسه ، وقد تلاشت الابتسامة في وجهه وتلاها الجزع : لا اراهم حولي غير ممتعضين ، نزقين ، فليس بينهم من يضحك لليمن والبركة ، مع اني اجريت عليهم الخير السني !

وقال يجيب الضحاك : وماذا تريد مني ان اسمع يا ابن قيس ؟... هل من خبيء خطير ؟

فقال الضحاك وعيناه معقودتان على غيظ : لم يبق عبد الله بن سلام على سبة الا اعلنها ، وما لقي ذا سمع وبصر الا حشاه بغضاً لامير المؤمنين !

ـ وماذا يريد منا عبدالله بن سلام يا ضحاك ؟... لست اعلم اننا اسأنا اليه . كان ضيفنا فنأى عنا . أتكون مطلعاً على مصدر نفوره منا ؟

فانتفضت هامة الضحاك وبرزت عيناه بعد اطراق ، وتنشق الارتياع . ألا يدري معاوية بماذا أساء الى عبدالله بن سلام ؟ ... أيتجاهل بعد ذلك المكر كله ؟... قال وفي بيانه مسحة من هول : هل نسي امير المؤمنين ما كان منه في عبدالله ؟... ولكنه نسيان المتجاهل يا معاوية . عبدالله بن سلام يتهمك بانك فصلته عن امرأته ، ووعدته بصفيه ابنتك ثم نكثت . وانه ليقف في الناس منددا بك ، داعياً عليك وعلى آلك اجمعين بالويل والفناء . وما بقي في دمشق من يجهل مصابه . والناس يؤيدونه في الظلامة والظنة . فهم يرون انك تجنيت وبالغت في القهر والايلام . واذا طال طوافه في دمشق ، غامزاً حلمك وعدلك ، فاني لاخشى ان تحصد حصاداً غير ميمون الجنى . فاجتهد في انصافه او فابعده عنك . بقاؤه في عاصمتك على ذم وتنقص يؤلف عليك الخصوم ويسعف الاعداء في استفحال الشوكة !

فقال معاوية دون ان يبدو منه تأثر او جزع : ليتشدق بما يستطيب . لست على مقوله حسيباً . شئنا له الرفعة فلم يسعده الزمن . ما دعوناه الى طلاق ارينب الا لنعقد له على صفية ابنتي ، فيصبح منا وقد جمعتنا به المصاهرة ، الا ان صفية افلتت من وعد اعلنت ، فاين جريمة معاوية ؟

ـ هذا ما لا يدرك الناس يا امير المؤمنين !

ـ وماذا يدرك الناس يا ضحاك ؟

ـ هم يلقون عليك التبعة في ما ساد عبدالله وارينب من قطيعة . ويقولون انك اقصيت الرجل عن امرأته ليباعلها يزيد ابنك . ولم تكن صفية غير سلم ارتقيت عليها لبلوغ الارب . فما تعمدت الوفاء لعبدالله في ما رصفت ونمنمت ، بل كان قصدك ان تشفي هيام يزيد . سخرت من عبدالله في وشيك وتطريزك ، حتى اذا ما استنام اليك اذقته العلقم . فحملت ابنتك ، بعد طلاقه ارينب ، على صرفه جافّ العلالة مهدوم الخطوة . ودفعت الى ارينب من يخطبها ليزيد . وهـذه المكيدة اذا صدقت ، ولا اراها الا صادقة ، تذهب عنك بالجلالة ، وتعرضك للقذع المهين . فاما ان تنصف عبدالله في عهدك له ، واما ان تقصيه عن مدينة لا ينشر لك فيها الصيت الحميد !

فصاح معاوية بانتفاضة من ألم : وهل اكون الملوم اذا خذلته صفية ؟... اعملتْ الرأي فلم تجد من نفسها دافعاً الى الشغف بابن سلام ، فهل تريد مني ان اكرهها على الرضا بمن لا تهوى وقد اطلقتُ في امرها يدها ؟... لماذا يتظلم ابن سلام وقد احللته من نفسي المحل الشَموخ ؟... شئت ان يكون صهري ، واعتزمت ان ارفعه الى اعلى الرتب ، فخانني سعيي ، واضطرب مبتغاي . لم يفكر يزيد في ارينب الا وقد نزعها منه عبدالله . ثم ... ثم ان

الامر التوى يا ضحاك ، فاخفقنا حتى في ارينب !

وماج الايوان بزفرات معـــاوية . وتعاظم ذهول الضحاك بن قيس الفهري . ألم ينجح معاوية في استمالة ارينب ؟ ... اذاً لقي المكر جزاءه . أصحيح ان ذلك الاحتيال كله انتهى الى الخزيـة والاخفاق ؟... وارتبك الضحاك في موقفه من معاوية ، من هذا الرجل السامق كالطود ، والمتهدم كالطلل . اجل ، ارتبك الضحاك في موقفه من ابن هند على منعة الضحاك ونافذ بصيرته . فهو من ذوي المكانة والعزة في هذه الدولة . ومعاوية نفسه لم يكن يؤخره عن ابن العاص . فان له به ثقة عريضة الجناح . ونظرته اليه تترجح على اعجاب وخشية . فما الضحاك بمن يرتضون الخـــداع ، ولا بمن يطيقون الظلم والاستهانة . ومعاوية مع معرفته محدثه شاء ان ينفض قميصه حياله من كل عدوان على ابن سلام ، ومن كل غدر به . ما اراد له الهضيمة . مع ان الهضيمة تزمجر كالحة الناب . فلم ينطق بالمقال الصحيح ابن ابي سفيان وهو يعلن تحنّيه على عبدالله وسعيه لاعزازه وقـــد نكأ فيه الغصص يرقص بها حنجرته ، ويكوي مهجته . فان معاوية ليعبث بكل جليل ليرفع من جلاله ، ويمنع عن الناس الملذات الطامعة فيها نفسه ونفوس ابنائه . قال الضحاك وهو يحـــدق بارتعاش الى الخليفة المجهول اللون ، الساترة كلماته بواطنه : هل افلتت منكم ارينب يا معاوية ؟

فاجاب بنواح كاسف : افلتت يا ضحاك . زاحمنا فيهـا الحسين بن علي وظفر بها . أترى اي كبوة كبونا ؟... لكأن الزمن معاند . اوفدنا اليها ابا الدرداء يخطبها فعاد وقد باعنا بابخس بدل . ابى الشقي الا ان يعرج على الحسين ليتبرك بلثم انامل حفيـد الرسول . وفي مقـام حفيد الرسول باع

واشترى . فاطلع الحسين على المهمة . وغاظ الحسين ان ننزع ارينب من تحت جناحيه فاستمسك بها يزين بفتنتها داره . فهي الآن امرأته . والغريب يا ضحاك ، الغريب ، ان ابا الدرداء رسولنا اليها عقد له عليها دون ان يرهب سطوتنا . فما اضطرب له وجدان وهو يخوننا في ما ندبناه له !

فادهش الامر الضحاك ، بل هو لمس فيه نقمة السماء على معاوية . اعتمد البطل في سلخ المرأة من زوجها فاقبل من يستعين عليه بحيلته ويزن له بميزانه . المكر اصطدم بالمكر . الخديعة قهرتها الخديعة . ان الكيد لقصير اليد على سعة امده ، فلا بد له يوماً من عثرة تهوي به وتلوي من زمامه فيتحطم ويطحن . قال ابن قيس الفهري : وهل نبا عنك ابو الدرداء ؟

فهز معاوية رأسه التياعاً . واي نبوة ! ... واطرق الرجلان . وذكرا معاً ، دون ان يذيع احدهما في الآخر ما يموج في ضميره ، مؤتمر اذرح . كأن مؤتمر اذرح مضرب المثل في الكيد والغبن . والاثنان ، ابن ابي سفيان وابن قيس الفهري ، تحسسا في نازلة الكوفة رجعة اذرح . فالنبلة المسددة من سهم معاوية الى علي بن ابي طالب ردها الى معاوية الحسين بن علي . وهو خاطر يختلج فوراً في كل نفس عندما تبدو للعين صرعة ابن هند في اغارته على ارينب . فالكوفة رأت في الامر انتقام الهاشميين ، ودمشق سوف ترى ما رأت الكوفة والنبأ ما برح فيها مغلفاً لم تنشق عنه الاكمام . قال الضحاك : لم تحسن اختيار صاحبك يا معاوية . اخطأت فيه كما اخطأ علي في اعتماد ابي موسى الاشعري !

فتأوه معاوية وقال : دعني يا ضحاك . دعني من حديث ابي الدرداء . كنت احسبه خير اداة لتحقيق المطلب ، فاذا به شر اداة لتشويه الاحدوثة .

وثقت بطيب سريرته وتقاه فذهبت ضحية طيب السريرة والتقوى . هؤلاء العاكفون على عبادة ربهم يجب ان نبقيهم لربهم. فلا نكلفهم الشؤون الجسام. ولكن ماذا كلفت ابا الدرداء ؟... لا اراني اثقلت عاتقه بمفاوضة في عهد ، ولا باقرار سياسة . فما خرجت به عن نطاقه . ان الامر لمن اضطلاعه فما اضطلع به. ويزيد لم يكن راضياً عن هذا الاعتماد على ابي الدرداء وقد تمثل فيه ابا موسى فصدقت ظنونه . واخجلتاه من يزيد ! ... اشتهى ولم ينل. وواخشيتاه منه على الحسين بن علي ! ... اني لاراه ينغص على الحسين صفو ايامه . فلا بد ان ينتقم منه ، لا بد يا ضحاك. انا ادرى الناس بولدي. سوف يتقاضاه بدل اللطمة غالياً . وهو مما لا اريد ان يقع . فليس من مصلحة الاسلام ان يغوص ابداً في الدمار والدم . لقد ذرف يزيد دمعة على خيبته، الا انه سيستنزف بها دموع الهاشميين . فما ان اطبق اجفاني للمقدور حتى يثور يزيد على من اقلقه في لبه. وهو مما يشجيني وانظر اليه منذ الساعة بعين مقروحة وكبد معتلة . اجل ،اني لاخاف يا ضحاك من فوران يزيد . فاني للقابض على مقوده ما دمت حياً ،ولكن من يقبض على مقوده اذا ما نأيت؟... كنت اعهد اليك في امره ، ولكنك لن تقوى على الامساك بسورة احقاده. فهو اعصار ، بل زلزال !

وغرق الرجلان في هواجسها . ان يزيد في ثورته لقوة جارفة . فليس يملك حكمة معاوية ولا طول أناته وهو نار مضطرمة ابداً . فلا يقيم قدراً لحرمة . فاذا فار فائره استباح المصون واستحل المحرّم . وخاف معاوية ان تنهار هذه الدولة بصلابة يزيد وجبروته ، فيتناثر المجهود ويضيع المسعى ، مع ان ابن هند شيد البنيان لدهور لا لاعوام

وعلت صيحات في قصر الخضراء شقّت عن دعوات وشتائم . فاستفاق معاوية والضحاك ، وهما يعيانها ، من غشوتهما السادرة . ونظر احدهما الى الآخر مستطلعاً حدة الجلبة . فما بال قصر الخضراء يمور بالزعقات النوافر كبطون الازقة ؟... ونادى اليه معاوية حاجبه . ما الخبر ؟... قال الحاجب : هذا عبدالله بن سلام يا امير المؤمنين . اقبل مهدداً فابينا عليه المثول بين يديك فهبت فيه عاصفة من جنون . وانه ليشتم الشتم الغليظ ويضرب كل من يدنو منه . ولقد اضطررنا الى القبض عليه فلقينا من ارعاده وازباده المشقة . فهل يرى امير المؤمنين ان ندفع الحانق الى السجن ؟

فقال معاوية وقد اوجعته من عبدالله هذه الاستشاطة وقلق لها خاطره: بل عليّ به يا سعد . ما هذه الجرأة علينا تنتفض في ابن سلام ؟... أيكون قصر الخضراء مستباح الحمى فيقتحمه عبدالله ويصب علينا فحش القول وهجره ونحن سكوت ؟

وغلت فيه موجدته . لن يرضى بان تعلو في بلاطه صيحة موتور . هذا قصر امير المؤمنين لا قارعة الطريق . وجمجم يخاطب الضحاك : ان نحن اجزنا لكل صاخب ان ينسلّ الينا منددا بنا جازفنا بعالي مكانتنا وسهل على الناس امرنا . سوف يرى الاحمق اي قصاص نضربه به عبرة لامثاله المشاغبين !

وبدا عبدالله بباب الايوان والاضطراب في وجهه والزبد في شفتيه . وجمد ناظراه على حقد يستعر وسخيمة ينطح قرناها . وصاح دون ان يحيي معاوية بتحية الخلافة : ابن هند ، ما جئتك اسلم عليك ، بل جئت انعى اليك المروءة والشمم . انت لا تتحلى بالنبل يا ابن ابي سفيان ، بل بالخدعة والحيلة . ملكت

الامر فينا بالمكر ولا تبرح تسوسنا بالمكر. فالغدر طبع اخترت به عظامك. وعبدالله بن سلام وقد عانى من كيدك الويلات اقبل الى قصر الحصراء لينفث في وجهك الشتيمة. سخرت بي وعرضت عليّ ابنتك كي اطلق امرأتي وقصدك ان تزفها الى ابنك. ولما جئت اطالبك بالانجاز دفعت صفية الى التنكر لابن سلام. وما حملها على التنكر بعد الرضا؟ ... انت اهبت بها الى الرفض بعد القبول وليس ابن سلام ممن يحق لهم مصاهرة امير المؤمنين. يالاستذئاب!... كأن امير المؤمنين ليس من طينة ابن سلام. ولكن من زين لك ان تغرر بي؟ ... كنت في مثواي آمناً فحرمتني النعمة والهناءة. ياقاتل، يا قاتل، أتريد منا جميعاً ان نذهب كعلي بن ابي طالب ضحايا على ضحايا لتقر عينك ويتعش لبك؟ ... والله انها لعصارة اللؤم. ان سيفاً ضربت به سوف تؤخذ به يا مضرم الحزازات ومحطم الارواح!

فوثب حاجب معاوية على عبدالله. ومشى اليه الضحاك يدعوه الى الكف عن المثلبة. فليعلم انه في حضرة امير المؤمنين. فنهاهما معاوية عن التعرض له بسوء. قال: ليتكلم. ليفرغ كل ما في صدره. ان بيني وبينه لموقف حساب!

وادّرع الحلم المالك اعنته. والتفت الى عبدالله يقول بصفاء في النبرة كأن القذع لم يطرق اذنيه، وكأن القدح فيه لم يلم به: واين اساءتنا اليك يا عبدالله؟... شئنا لك السمو فنبا عنك. افمناك منا مقام الابن فالتوى فيك السعد. رغبتُ في ان اعقد لك على صفية ابنتي فعاندني كيد الدهر. اين تراني ملوماً وقد بذلت في خيرك وسعي فما جارا في حظك العاثر؟... كنت اشد بك اليّ ويبعد بك حظك عني كأن له عندك ثأراً يا ابن اخي. ألا امسك

لسانك عن عمك ، ان عمك لبريء الضمير حيال نسيبه وصفيّه عبدالله بن سلام !

وتناهى في الملاينة . ماذا يرجو عبدالله بن سلام ومعاوية لم يبق على مشتهى الا طمع له فيه ، ولا حامت عيناه على خير وبركة الا تمنى ان يرتع منها ابن سلام في اكبر نصيب ؟... ولكن عبدالله وقد اوردته حتفه هذه المجاملة الخادعة ، الزائفة ، لم يستنم الى ابن هند في مسايرته ، بل هاج فيه غله الطفحان وصاح : معاوية ، هذا السلاح بلي بالفلول لفرط استعانتك به علينا. نحن قوم اصبحنا لا نؤمن بتدليسك ومماذقتك . فانك لتملك لساناً ذرباً ، ودهاء وسيعاً تطلقهما على ضحاياك لتمعن فيهم دعساً وتهشيما. اما من جربوك فاضحوا على يقين انك تحتال عليهم في اعراضهم بدمائة مقـــالك ، وخميل مجسك . معاوية ، انت افعى . ومن يجرؤ على ان يفتح صدره للافعى تمرح فيه؟...انت حرباء ، فتبدو في اللحظة الواحدة بالف لون ولون . ولست تثبت على لون . فصلتني عن امرأتي لتطرحني في دمشق سخرية للقوم . فالجميع يستحمقونني وقد وثقت بك ، وركنت اليك . والجميع يعلمون ان من يصافحك مغبون حتى في مصافحتك . فليس يلقي يده بيدك الا وهو على يأس من جذب يده سالمة . فلا بد ان تنتزع منه احدى اصابعه . يا ويلك من يوم الحساب يا ظالم . ألا أعد اليّ امرأتي . لن ابرح هـــذه الدار الا واربنب في عصمتي . فكما سلبتني اياها أعدها اليّ !

فقهقه معاوية ضاحكاً وقال : أأعيدها اليك ؟... ولكنها لا تزال في الكوفة ترقب عودتك . فانطلق اليها يا صاحبي ، نحن لم نمنعك من اكلة ولم نحجب عنك شربة . اربنب لا تبرح في خدرها سالمة آمنة . فما نزعناها منك

ولا ابعدناها عنك . اننا لقوم نتحامى الاثم ونتحرج من المضيمة . ارينب باقية على عهدك فبارك الله لك فيها !

فصاح بغيظ راعد : أتظل ماضياً في خداعك ولا تخجل ؟... ولكنك اوفدت ابا الدرداء الى ارينب يخطبها . ألا تعرف للصدق وجهاً فتلوذ به في مقال ، في نظرة ؟

وتراءى للضحاك ، فيما عبد الله بن سلام يقذف معاوية بالشتيمة العضوض ، ان ابن ابي سفيان سينقض عن سريره على الشاتم ويمسك بخناقه وينتزع روحه . غير ان معاوية ظل في سدته لا يتحرك . بلى ، لقد أعلن بهدوء توشك ان تلمّ به الغضبة ثم تنثني : عبدالله ، ارينب لا تزال في الكوفة ، فلماذا الحنق البغيض ؟... لا نحن على هيام بها ولا هي على شوق الينا . طرْ اليها ، لسنا بمن ينافسك فيها يا ابن اخي !

فادركت الحيرة ابن سلام . فهو لا يفهم . قال والغيظ فيه على جمام : لا تنافسونني فيها ؟... انك لتدهشني يا معـــاوية . لا اراك على سوى لف وعرج ، كأن طبعك يأبى ان تستقيم . أتوفد الى ارينب من يخطبها لابنك يزيد ثم تجرؤ على الزعم انك لم تنافسني فيها ؟... اللهم رفقاً وعوناً ، ان هذا لافك بليغ !

فلم يتوجرج معاوية في طول أناته . قال بلؤم زعاف : لا تبرح ارينب في الكوفة . نحن لسنا مزاحميك عليهـا . مزاحمك الحسين بن علي سيد بني اعمامك الكوفيين . حاميهم ومفخرتهم . شاقه في ارينب الحسن فعدا عليك فيها . لقد تزوجها يا ابن اخي !

فتلطخت عينا ابن سلام بالدم . وبدا له الايوان بؤرة شر وفساد فرعد :

معاوية ، انت سلبتني اياها . لولاك لم تقو يد على انتزاعها مني . لكنك وقد اردتها لابنك فتحت عليها العيون . وكيف السبيل الى استعادتها بعد اجفالها ؟... لادعوّن عليك بالنكال والوبال . يا قاطع القلوب ، هلا قطعت الاجساد ؟... اقتلني وانقذني من عذاب اعاني فيه الويلة . رفعتني واهويت بي . هززت مني النهية واللب وكدت تبليني بالسقم . ألا خذ حياتي وخلصني من نكد احترق فيه . ما ضرك ان تغتصب حياتي بعد ما فجعتني بمنتهى املي ؟... معاوية ، انك لماكر مجرم ، لينزل عليك غضب الله !

فضحك معاوية . استطاع ان يضحك . قال : هذه كلمات لا نرمى بها يا عبد الله . فالمسيء اليك احق بها منا . والمسيء اليك ليس معاوية ولا ابنه يزيد ، بل الحسين بن علي بن ابي طالب . وهو من ابناء اعمامك مثلي . فانطلق اليه وعاتبه بما تعاتبني به . لو كانت ارينب في قصر الخضراء ، معقوداً عليها ليزيد ، واسمعتني هذا القول الصافع ، لاعدتها اليك مباركاً لك فيها . على انها انتهت الى الحسين فسر اليه وارشقه بهذه المستملحات ، فقد تبلغ بها الارب . اما انا فاني لنظيف اليدين من دمك . ابحث عما يجديك يا ابن اخي ولا تضع ايامك في المحال . ارينب في الكوفة لا في دمشق ، في مقر الحسين لا في هذا الصرح . اني ادعو لك بالسفر الحميد !

ونهض الخليفة كأنه يعالن عبدالله بن سلام ان عليه الانصراف . فلم يبق الى متابعة الحديث مجال . ولكن عبدالله ابى ان ينصرف . فظل مكانه يفيض بالقول المعتكر ، الفظّ : معاوية ، لن ابرح هذا الايوان الا وقد انصفتني . والا فاني مذيع في الناس فضيحتك . فصلتني عن امرأتي لتزوجني ابنتك ، فطلقت ارينب وكان ان حرمتني صفية امتهاناً لي . بل انت ما شددت عليّ

في طلاق ارينب لسوى رغبتك في ان تعقد عليها ليزيد ، فاذا بالحسين يسبقك اليها . فضيحة ادت الى فضيحة . وانت في الفضيحتين ذليل المهزة ، مهين الكرامة . لك الويل من بني قومك حين يدرون ما كان منك وما آل اليه امرك. ساطلعهم على مشاينك فكن رضي النفس .ان من ازدريته سيكون منك في طليعة المحتقرين المزدرين!

فصاح معاوية وقد طفح فيه غضبه ،وتوترت اعصابه مع جهده في تنويمها: سعد ، اقبض على هذا المهذار واخرج به من ايواننا ، فليس له بيننا مقام !

فعمي عبدالله في سورة غله . أيطرده معاوية بعد ما جرده من النعمة على مديد سعتها ؟ ... وصاح بصوت اهتز له الايوان : معاوية ، معاوية ،أتدرك ما تقول ؟...لا يخطرن لك في بال انك خليفة وان الخلافة تبيح لك اعراض المسلمين .انك لمأفون الرأي ان يكن هذا الوهم ينفذ منك الى مستقر الضمير. ما انت في الخلافة لسوى كوننا اردنا ان تكون فيها . كنا نحسبك في عدل عمر وحزمه فساعدناك على انفسنا وغالبنا فيك اكرم وجه ،فاذا بك تستعين بالبطل على الحق ، وبسلطانك المطلق على الضعيف المظلوم . انها لفجيعة يأباها الله ويستجير منها رسوله . اين امرأتي ايها المفتئت بالقلوب والارواح ؟

فأعاد معاوية كلامه كأنه لم يسمع : سعد ، اخرج بهذا المهذار من حضرتي !

فزمجر عبد الله : أيخرج بي من حضرتك ؟... انك لتدعوني الى ما تميل اليه نفسي . فلست ارضى عن بقائي لحظة امام رجل يخنق فينا الحق وينصر علينا الهضيمة . اني لمنصرف عنك . فلا اطمع في شرف الوقوف بين يدي هاضم الحقوق. ولكني لن ابتعد خطوة الا وقد انصفتني او انتصفت منك!

وهدد . فزأر الضحاك : أتتوعد يا ابن سلام ؟

قال وهو يحس بانه الخاسر ويميل الى عرض ظلامته على كل ذي سمع وبصر لتبريد فورة احقاده : ايها الضحاك ، هل رأيت من اجتاحه الظلم مثلي ؟... كنت هامة فأصبحت ذنابى . كنت في فضلة من نعيم فتدحرجت الى وهدة البأساء . وهذا هو ظالمي يا ضحاك . ذلك السيد القابض بيمينه على دنيانا ، المعتصم بسلطة الرسول فينا لا ليهدينا بل ليقودنا في فجوات الضلال . اذا سئلت غداً يا ضحاك عن سالخ النعمة مني فاجب انه هذا الشانىء المخادع ، الضاحك من الناس في احسابهم واقدارهم لينعم بتعسهم ويسعد بكربهم . اني استعديك عليه في ملمتي فكن المجير المغيث !

وبكى . كل ما بذل من جهد التوى . كل همة فيه صارت الى وهن . ورفق به الضحاك فمال على معاوية يوشوشه باستعطاف الحنان : ألا سبيل الى الرأفة به والحدب عليه يا امير المؤمنين ؟

فقال معاوية وقد وضحت له فكرة الضحاك بن قيس الفهري : وكيف يا ضحاك ؟

ـ بان نزف اليه ابنتك صفية فنعوضه بما لقي !

ـ ابنتي لا ترغب فيه . أتدعوني الى اكراهها على ما تنفر منه ؟ ... ما تعودت ان اداوي النفور بالاكراه !

ـ ولكنه قد يملا رحبة الاسلام شكوى ويتهمك بانك تجنيت عليه . وله في سرد روايته شفيع يغض من منزلة امير المؤمنين !

ـ نحن لم نسلبه امرأته يا ضحاك ، فليفضح من سلبه اياها . خصمه الحسين ابن علي لا معاوية بن ابي سفيان ، ولا ابني يزيد !

والتفت معاوية الى سعد يقول : هلا حجبته عنا ؟ .. طال مرآنا اياه !

فقبض سعد على عبدالله بن سلام . فمانع عبدالله بقوة واصر على البقاء .واشتبك والحاجب في صراع انتضى به سيفه وهو يزعق: سابقى هنا ريثما ادرك النصفة . فلن ابرح هذا الايوان الا وقد عادت الي امرأتي .يا من سخرت بي لتنال مأربك مني حرمك التنعم بمأربك الله.هذه دولة ادعو عليها بوشيك الانهيار وهي تجري على خسف وسفال !

وطاب له المضي في نفث اوتاره،الا ان الحاجب دعا اليه نفراً من حرس القصر فجرّوا عبدالله الى باب الخضراء ومعاوية ينظر ويسمع ولا يبالي.فعاد الى سدته يجلس عليها كأن لم تقع في الايوان مأساة.قال يخاطب الفهري ويوارب في رثاء وكيد:ما به يشكو الينا امره يا ضحاك وامرأته في دار سوانا ؟... ليطالب بها الحسين . نحن ما اردنا له مكروهاً . وكيف نريد له المكروه وقد اعددناه للمعالي ؟... ولكن حظه قاتله . لم يكتب له زمنه التوفيق والفلاح !

فقال الضحاك : على امير المؤمنين ان يقصيه عن دمشق . بقاؤه في هذه الحاضرة بادرة تسيء الى الخليفة. فلا بد ان يمضي في اذاعة حكايته ، وليس في اذاعتها فخار !

— صدقت يا ضحاك . علينا بنبذه .ليرجع الى الكوفة وليقم فيها القيامة على الحسين . سنقصيه عنا ليزعج المستقر هناك . فقد ينقذنا منه ابن علي بقطع رأسه . ما تعف عنه يدنا سوف يجد من يقدم عليه . فالى الكوفة . لا بأس ان يصغي الحسين الى هذه الانغام !

وعاد يدعو اليه حاجبه قائلاً:سعد، لا تطلق عبدالله في دمشق ، بل ادفعه

الى الحدود وامنعه من العودة الينا . دمشق ليست مثواه . فليعد الى الكوفة . فهي مقره بعد الآن !

فامتثل سعد وعمد الى عبدالله بن سلام يبلغه امر معاوية فيه : لا تقم في دمشق . اقامتك فيها تعرضك للهلكة . مكانك الكوفة . فارجع اليها ، فهي مأواك . سيحملك رجالنا الى اطراف هذه الحاضرة . فاسلك منها طريقك الى العراق !

فاشتد به الاعوال : أهذه مشيئة امير المؤمنين في عامل من اصدق عماله؟... انه لجحود وغمط فضل . آه من اللئيم !... دعاني اليه على سؤدد وابعدني عنه على مذلة . فسح لي داراً بخدمها ورياشها ليرذلني بعد ما امتص عودي ويأبى علي ان استظل هذه السماء . معاوية ، لن تخلد في مقامك . سوف ينتقم لي منك من يقلقك في مضجعك وينثر رمادك طعاماً للريح . هذا الدهاء الحامل لواءه سوف ينقلب عليك إحناً يثلم بها مجدك . فالبغي لن يدوم ايها الثعلبان!

واستسلم الى سعد يقول له : افعل بي ما يوحي به اليك ضميرك . نفسي كرهت البقاء في مستوقد النار !

وقاده عشرة من الجنود الى اطراف دمشق قائلين : تابع طريقك الى العراق . عودتك الى عاصمة معاوية تكلفك حياتك . اذا شئت الاحتفاظ بروحك فانزل على حكم امير المؤمنين !

فدمدم وهز برأسه : أيكون أمير المؤمنين من يخادع وينافق ويجور على الاخيار ؟... واخيبة الاسلام !

١٠

الرمال محرقة ، تتأجج سعيراً ، وعبدالله بن سلام يغرق فيها بهمة حسيرة لا تطيق دفعاً . فهو يسير الى العراق لرؤية ارينب . ولكن هل يستطيع رؤية امرأة افلتت منه وباتت تستظل جناحاً آخر ؟

وكيف يجرؤ على المثول امام ارينب وقد طلقها جزافاً ، وسخر بحبها له وبخلجات قلبها ؟... انها لغضاضة هذه العودة الى العراق، بل هي خسة داعرة . فهل نضب جبين عبدالله بن سلام من الحياء وماتت فيه الكرامة ؟

قاتل الله معاوية ما اقسى جنانه . رام ان يسلخ منه ارينب فرماه بالغواشي على متعدد ضروبها دون ان يطول المشتهى . ارينب عزت عليه ، فادى عبد الله بن سلام بدل الحزية المكساف

وتعجب من نفسه كيف يعود . وتذكر كيف اقبل . كان يسير في موكب جرّار ، على صهوة جواد كريم يطوي الصحراء كأنها ثوب من الخز ، في وثبات ضوامر كالوميض . فما شعر مثله الآن بلذعات الشمس تقرص رأسه ، وعنقه ، ويديه ، ورجليه ، وتسيل في بدنه خيوطاً من رصاص تنزو بها عروقه ، فيروي الرمال ويجهده الظمأ . ألا كم سوف يطول هذا الشقاء اللاهب ؟.. فلم يكن عبدالله يلقي على نفسه هذا السؤال في اقباله الى معاوية ، غير انه يلقيه في ادباره عنه وهو يخط بنعليه الباليتين فجيعته على الصفحة الغبراء

وسافر في قافلة تقطع الفلوات الى السواد نكرة لا يبوح باسمه . شقي

من اشقياء الناس نبت بدمشق بعد عز سميح فلاذ منها بالكوفة . وشاهدته القافلة يتمرغ في يأسه وبؤسه فتحدبت عليه . الصدقة تجوز في المساكين . ومد عبدالله الى العطايا يداً ترتجف ، واغمض عينيه لئلا يرى. فهو على خجل من نفسه . أأستجداء بعد سعة ؟... احسنت ارينب في نسيانه واجادت التدبير في الانصراف عنه الى الحسين بن علي. فالحسين اوفى الماماً بقدرها من عبدالله . عبدالله خانها ولفظها وانه ليجسر على الجبو الى الكوفة وهذا وزره. وسوف يقتحم في الكوفة خدر ارينب . أيملك هذه الشكيمة ؟ ... لا بد من القحمة . اودع ارينب اموالاً وزاناً وهو بحاجة الى هذه الاموال يرد بها عنه الاملاق والخصاصة . فهل تبخل بها عليه ارينب ؟... انها لتطحنه اذا فعلت . وبوسعها ان تفعل . فليس لتلك الاموال قيد . ومن حقها ان تفعل وعبدالله لج في الغواية . وخشي ان تمسكها عنه . وكيف يطالبها بها اذا انكرت ونفضت الثوب واليدين ؟

هي اموال تضمها البدر الطفاح . فالدر فيها ،والذهب فيها ،واللؤلؤ فيها . وجل اعتماده عليها في تقليم مخالب الدهر . واعتلجت في صدره الآمال والظنون. وكاد ينسى مكر معاوية حيال ضيعة الاموال الراسية في قبضة ارينب. على انه ارتضى ممن طلقها كل عدوان وانتقام . فهو المفتري . لم يحجم عن الدناءة لنحر حبه ، وليس على ارينب من حرج اذا انتقمت منه بسلاحه . انكر هواها فلا عجب اذا انكرت ما استودعها من نضار

ولولا الفقر المستحكم منه لاشاح عن هذا المال مهما بلغ من قدره . بيد انه في ضيق خانق يسد عليه منافذ النور . وهذه الغبشة المسدولة على عينيه اهابت به الى البحث عن درهمه الهاجد ، فلو انقشعت عن باصرتيه لابى على

قدمه ان تمتد به الى مثوى فاتنة نهاه

فاتنة نهاه ، اجل . ولكنه هام بصفية بنت معاوية . لا ، ما هام بصفية هيام المشتاق ، بل هيام الطامع في الرفعة . فلم تطلع عليه صفية بصباحتها ليهيم بها . كل ما شغف به منها انها ابنة معاوية ، وان معاوية خليفة المسلمين ، واي سيد ضخم هو خليفة المسلمين . فاذا ما انجده شيد له في الافلاك دارات ومقاصير . وهياماً منه بهذا السراب الواعد كفر بامرأته ، فاذا به يبقى على سراب !

وهل يجيز له الحسين بن علي رؤية اريب ومخاطبتها ولم يبق له من حق عليها ؟ ... قد يكون الحسين من الغيرة على قسط راجح ، فهل يرضى ممن باعلها وتعرف فيها الى نضرة الفتوّة ان تحـــادث فتى اذابت في حبه مخمور الصبابات ؟ ... . ان قلبين تحابا لا يتباغضان . والحسين فهم فطين ، فلن تخدعه المطالبة بالمال ويجيز لعبدالله رؤية من لا يزال حيالها العاشق المستهام

وبمن يستجير هناك عبدالله لابلاغ اريب انه عاد الى الكوفة ؟ ... كان له في الكوفة اصدقاء ، ولكن ألا يبرح هؤلاء الاصدقاء على ولاء ؟ ... ليس يجهل قدر الناس . فلا صديق في المحنة ، بينا هم كثر في الرفاهة . ربما تناساه من كان له صديقاً وهو من عمال معاوية ، والٍ من الولاة ، يدير الامر باسم خليفة دمشق وتنحني له الجباه . وهل من يلتفت اليه وهو صعلوك هشّ لا يملك عشاء ليلة ؟ ... لولا رفد من فزع اليهم في الطريق لقضى جوعاً ونهشت جثمانه الافاعي والسباع

قال : وما يحول دون مثولي امام الحسين بن علي استشفعه في امري ؟ ... ان الحسين لرحب الصدر ، سبط البنان ، فلا يمانع في محادثتي اريب في ثروتي .

وارينب صادقة في امانتها ، فلن تمسك عني وفري عندما تلمّ بحالي !

ورأى ان يسعى لنفسه . فهو يعرف الحسين معرفة فضفاضة . هذا ابن عمه تجمعه به اسرة قريش ، فلن يحتاج الى من ينصره لديه ، ولا الى من يستميل اليه حفيد الرسول . فان يكن النسيب لا يرفق بالنسيب فممن يرجى الرفق والحنان ؟.. ولكن معاوية نسيبه ولم يرفق به . ان معاوية منه لاشبه بالحسين في وحدة المنتمى وما رأف به معاوية ، بل هزه حتى جرده من اوراقه النضرات . فهو الآن شجرة عدا عليها الخريف المتلاف . قال : اذا وقعت في الحسين على ما وقعت عليه في معاوية فلا كانت الحياة . ليس لي غير حفرة اهوي فيها والتحف بالتراب !

ومال الى الانتحار يخفي به لؤم زمنه . وطالت لحيته وجلله شعره ، واشتدت به سمرته وألمّ به الهزال . ولم يكن ينطق الا اذا سيق اليه الكلام . واذا تكلم اكتفى بما قلّ . فكاد يكون ابكم . وما جهلت القافلة انه موتور ، على انه لم يكن يفضي بامره . فكل ما ادلى به انه يشتكي عسره ولم يزد في الايضاح . كان على ثروة جرّارة الاردان فاذا به في عوز فاضح . هذا كل ما استطاعت القافلة ان تستجلي من خفاياه

والقافلة تحدثت على مسمعه عن غدر معاوية بعبد الله بن سلام ، فاصغى ولم يعلن نفسه . وعلامَ تقوى القافلة في اسعاده وليست تملك المقدرة على تبديل حرف من المكتوب ؟... فليخنق اشجانه في صدره ، ان خنقها اولى من فضحها ونشرها والاحتراق بلوعتها على مرأى من كل عين

واطالت القافلة الحديث عن مكر الخليفة . قال رجالها : ولكن معاوية سقط حيث أمن العثار . نافسه في ارينب من هو اطول باعاً ، واسمى جاهاً ،

وحرمه اقتطاف الثمرة !

وعرف الجميع من هو السيد البرز والهمام الندب . هذا الحسين بن علي رجل الكوفة وواحدها . ولم تتعجب القافلة من اسفاف معاوية في مناضلة الحسين . فالبنصر دون السبابة في القوة والمكنة . قالوا : ان ابن فاطمة للمولى الخطير . فليس لابن انثى في هذا الزمن ان يضارعه في الصولة . ان تكن الخدعة نالت منالها من ابيه فلا بد من يوم يعود فيه الليث الى العرين ويأوي الحق الى مغناه !

وطعنوا على معاوية وشمتوا به . نصب الشرك فسقط فيه . وضحكوا طويلاً مما افضى اليه امر يزيد ، تبع النساء وطلبهن ، فكأنه يأبى ان تفوته حسناء . ما كفاه ما ينعم به منهن حتى ضاق به حب ارينب ، زوجة عبدالله ابن سلام ، فطاب له ان يسلخها من زوجها . ولقد فرض معاوية على زوجها طلاقها ليأنس بها يزيد ، فكان ان امتدت اليها يمين الحسين غير هيابة ولا واهنة تسبق الجميع الى لذوى الشهوات

ولاحت الكوفة . هذه هي بنخيلها وقبابها ودورها البيض . كستها الصحراء غلالة غبراء الاديم الا انها شفافة النسيج ، لا تحجب هيكلاً ولا ظلاً . وارتعد عبدالله بن سلام وهو يطل على الكوفة . انه لمقبل على شدة لم يعرفها في دمشق في انكد وقفة . فالمأساة لا تبرح مستمرة في الدهمة والاحراج . سيعرفه القوم في الكوفة وسيتهكمون عليه . وخشي النظرات الخبيثة الواقفة له في الطريق تزري بقدره . فليس بين الكوفيين من لا يجيد الهزء والسخر . كلهم سيضحك من غفلته ومن حمقه . باع الدر في مقابل وعد مهلهل نفحه به معاوية . ولقد خسر الدر ولم يظفر بالثمن ، فكسفه

الغبن في الصفقة . هو مظلوم أبله . ولم ينكر على نفسه البله . افلت ما تملك يمناه في سبيل ما لا يبرح مشكوكاً في غنمه . اشترى بمذخور حنينه غمائم زهراً في الافق البعيد ، تتألق في شروق الشمس وغروبها ، فتبصرها عينه ولا تطولها يده .

ونتنت ثيابه . وتلاشت فيه اناقة الامس . فالاجير في الركب خير منه . وتحامى العيون في ازقة الكوفة . هذا جوّاب آفاق لا عبدالله بن سلام . والتصق ناظراه بالارض . فليس يميل الى معرفة احد . وتذكر ماضيه القريب . لم يكن يبدو حتى يتحلق عليه القوم منادين باسمه . فهو الوالي المطاع . اما اليوم فانه لنفاثة موبوءة يتقيها حتى الموبوءون

ودنا من صرح الحسين بن علي . قد تلوح له ارينب في احدى النوافذ ، في شرفة من الشرف ، فتراه في اسماله فترق له وتشفق عليه . ولكن أيخلع عنه كل حياء ويحبو الى ارينب ؟... هل نسي ما كان منه فيها ؟... على انها الضرورة ، والضرورة سيدة قاهرة . وهو الاضطرار ، والاضطرار رهيب السلطان . ووقف امام الصرح بين الواقفين المستوفدين . وباب الحسين يغص بالمتظلمين يعرضون اشجانهم ولم يكن يحتجب ابن علي عن الناس . هؤلاء عدته لليوم الانور الجهم . فينصفهم ويعينهم على زمنهم كي ينصفوه ويعينوه على الغاصب . ودخل الجميع يقبلون الارض بين يدي الحسين الا ذلك الملثم الوجه ، الخائف رؤية النور . فناداه احدموالي الحسين وقد اوشك النهار ان ينقضي : ما بك يا ذا القناع في ازورار عنا ؟... أتقبل الينا وتبتعد عن حمانا ؟... ما جاء بك الى امير المؤمنين ؟

فاجاب الملثم بانين المكروب ، الغائر الصوت في غصة : جئت استظل هذه

الجدران . فقد اشعر وانا اتفيأها بالراحة . اخوك نضو اسقام ، فدعه في جثمته . ليس يبغي رفداً ولا قرى !

فادهشه المنطق الشاذ .ما تعوّد هذه النغمة الغريبة اللون والنبرة .قال: ومن انت يا اخا العرب !

ـ انا من نبت به ارضه وغضبت عليه سماؤه فلم يجد غير هذه الرحبة يأوي اليها لاتقاء العدوان . حسبه هذا الفيء ينشر عليه ملاءته . فانه فيه لناعم بالصفاء !

فازداد مولى الحسين دهشاً . وحبا الى الملثم يقول : بابي انت وامي ، اني لاشم فيك طيب النبل وألمس في مقالك نواح الحق الدميّ . فمن انت ايها المعتل الحشاشة ؟

ودنا منه وقد اوشك ان ينضو عنه لثامه . فمانع المقنع وقال بتأوه : لا فائدة من رؤية وجهي . ان وجهي لتشجيك غضونه . فهو كقلبي غريق الضنك والغم. واني لاخشى عليك من دمامته وانت تقف على جلي اساريره، فارفق بنفسك ولا تقتحم الهلكة . اني اضن بك ان اثير فيك الروع !

فجمدت يد مولى الحسين وقد تولتها الرجفة . كادت تميط اللثام عن وجه المنكود فحاذرت وهلة المفاجأة . وانكفأ المولى الى سيده ينحني امامه ويقول بوجل : اني لمبلغ امير المؤمنين نبأ ذا خطر . بالباب رجل مقنع يتلفع ببؤس نبيل . طغت عليه اطماره الا انها لم تطمس فيه إباءه . دعوته الى عرض ظلامته فاحجم مكتفياً بان يتفيأ ظلال معقل المكرمات!

فانتابت سامعيه رعشة من حيرة ووجوم . من البائس النبيل المقبل على تلك العرصات يلوذ بفيئها ؟... وفزعت العيون الى العيون . قال الحسين بن

علي : اما استطعت ان تزيح عنه قناعه وتغوص على سره ؟

– ليس يبوح بما تضطرب به نفسه . جلّ ما استطعت ان ادرك من حديثه انه عزيز ذلّ وكريم كلّ !

فسادت الرهبة المجلس . قال الحسين يغالب فيه القلق : عليّ بالرجل . لن نرضى بان يؤم دارنا طالب نصفة ونعاند في احقاق حقه . نحن هنا لدفع الجور والمكروه !

فعاد مولى الحسين الى الرجل المقنع يقول : أجب امير المؤمنين يا ابن أمي . فالحسين بن علي يدعوك !

فاعترضت الغصة في المنكوب مجال النطق . كيف يمثل في حضرة ابن علي وقد دهمه الارتباك الممض ؟... يريد رفع ظلامته الى الحسين ويخشى ابداءها . قال بارتعاش : وهل ابلغت امير المؤمنين امري ؟

– ابلغته انك بالباب ، وهو يريد ان يراك . فقم اليه . ان الحسين لحليم رحيم . سينقذك من اوصابك ويضمد كلومك . ما عرفت ارحب منه صدراً واندى يداً !

وقاده الى الحسين . واشتد بمن ضمتهم الحلقة الاكمداد والروع وهم يبصرون بذلك المقنع الرثّ في مجلس ابن علي . وتطيّروا من مرآه . فان في خطواته جلالاً مع كل ما يمور فيه من غثـــاثة نكداء . فكأنه روح من الارواح المقهورة يفجأهم من مطاوي الغيب . ومشى الملثم الوجه الى ابن علي يجثو امامه ويقبل الارض بين يديه ويقول : السلام عـــلى امير المؤمنين ابن الاصفياء الابرار !

فزادت هذه المهزة في الارتياع المستحكم . أأنسان من لحم ودم

يتكلم ام طيف من الاطياف ؟... قال الحسين : والسلام عليك يا هذا ، فمن تكون ؟

فاعلن : انا من احتضنته النعمة فكفر بها ، ومن حالفه السعد فناكره واقصاه !

— عرفناك مظلوماً ومرآك يشير الى بؤسك ، ولكن من انت وما جاء بك الى حمانا ؟

— رأيت ان ألوذ بكنف حفيد الرسول مما ألمّ بي ، فاقبلت اتوسد هذه الجدران ومناي ان ألقى في ظلالها امناً وسلاماً . انا من كواه المكر والخداع يا امير المؤمنين !

— ولكن اسمك ، ما اسمك ؟... ألا تدري انك تسيء الى الكياسة بدخولك علينا ملثماً ؟

فارتفع صوت جريح من تحت اللثام يقول: اؤثر ألا ترى عيناك هذا الوجه الملثم يا امير المؤمنين. فان وراء اللثام لاشجاناً قوارص واهوالاً صواعق . فالتستر عنك بعفوك افضل من كشف عربي وشماتة العاذلين بي . فقد اقدمت على منكر لا تحمد مغبته اخشى فيه من تنديدك واستهانتك . فاني لمجرم سخيف استجير بحلمك من غباوتي الرعناء !

فاشتاق الجميع ان يعرفوا الرجل . فمن هو ؟... لقد اثارت كلماته عاصفة من فضول وشجو . قال الحسين : زحزح قناعك عنك . لا بأس ان نقف على سرك ونلمّ بامرك . فمن تكون ؟

فامتثل واماط اللثام بيد ترتجف . واذا غمغمة تعلو المجلس وقد مازجها الخوف : عبدالله بن سلام ، ضحية يزيد !

واتسعت العيون رعباً حيال الدمامة العارضة . انه لوجه شؤم . وجه عائد من القبر . طالت لحيته على اصفرار محيا ، وذبول عينين ، وهزال ، وغؤور . فلولا اعلان نفسه لانكره من يجمعهم المجلس . ألا كم تبدل عبدالله؟... كل ما نعم به من روعة ونضارة انطفأ فيه ، الا الاباء . فقد بقي . والتوت قامته وهو يكشف طلعته . وخاف ان تجول عيناه في الابصار المسددة اليه فاطرق . فهو مهزوم خجول . وبلع الحسين ريقه وقد ايقن انه هو . ففي اي حاجة شمّر اليه ؟... وتماسك حفيد الرسول وقال بلوعة الاشفاق : عبدالله ، أأفضى بك نكدك الى هذا الحال العسير ؟

فكاد دمعه يفضحه . قال : هذا جزاء من يؤمن بذوي الختل والغدر يا امير المؤمنين . خدعني معاوية عن نفسي فاستنمت اليه ولم اكن اعلم انه يراوغ كالذئب . غرّتني ملامسه فعانيت لسعاته . واني لراض بما انتهى اليه جهلي . لم امثل بين يدي امير المؤمنين معاتباً بل مستنصراً مستغيثاً . ان استثاره بارينب لانتقام لي من الرجيم . بارك الله له فيها ، فقد اخزى بعقد قرانه عليها خصمي ولطمه لطمة افقدته البصر والرشد . واذا ملكت الجرأة على ارتياد هذا المعقل فاني لابدو فيه للاستمتاع ببعض نتافات من مال اودعتها ارينب وابى لي دهري العاتي ان اتناساها . فالفقر جرّني الى امير المؤمنين ابحث عن وفري ، لا طمعي في حسن لست به ذلك الحقيق !

فتولت غمرة من الالم سامعيه . انه لمنكود مرزوء . قال الحسين : أيكون لك عند ارينب مال جئت تطالبها به ؟

فاجاب بصوته الكئيب : هو مال لا يجوز لمثلي ان يدعيه . ولكن نضوب يدي وشحّ موردي اهابا بي الى استدرار عطف من ليس لي ان اقدم

على مخاطبتها في الخطير ولا الحقير !

فقال الحسين : ان تكن ارينب مؤتمنة على هذا المال يا عبدالله فلا اراها جازفت به . فانها لتستبقيه على عذرته . وانت تعرف ارينب كما اعرفها ، فما تؤتمن عليه يرتع لديها في حرز حريز !

قال عبدالله وهو يتأوه : ليس في النساء كأرينب يا ابن علي . فان فيها لمن الحرص على الحرمات ما يندر في سواها . هـذه آية الله في خلقه ، فمن غنمها غنم الحسن والوفاء والرفاء . فالجنة حيث تكون !

واجاد وصفها . ونضنضت الشفاه بالوشوشات : لا يزال يهواها !

فقال الحسين : سنوفد الى ارينب من يستوضحها طلبتك ، فاذا ايدتك في ما تعلن جئناك بالوديعة سليمة مجلوّة !

وصاح باحدى الجواري : ادخلي الساعة على أرينب في مخدعها وحدثيها بما يسأل عنه عبدالله بن سلام ، وعودي اليّ بالجواب العجلان !

ودعا عبدالله بن سلام الى الجلوس ، فاستحيا عبدالله . أيجلس بنته ورثاثته بين هؤلاء المتلألئة فيهم النعمة ، الفوّاحة اجسادهم بالطيب ؟... والقى على الحسين نظرة يستشفع بها في نفسه : ألا عفوك عن الازراء بي !

فنضّت في خاطر الحسين خشية عبدالله . قـال ابن علي : لا عليك ، اجلس ، ما كان الثوب ليرفع من قدر الناس ولا الفقر ليحط من مكانتهم . انت من قريش سواء كنت على املاق او نعمت بالوفر . ولقريش منزلتها في العرب ورايتها في المسلمين !

وابى عليه الا ان يجلس في المقام العالي . ونادى خادماً من خدمه يقول له : يا غلام ، احمل الى عبدالله كساء وعباءة من نخبة ما عندي !

وما نسي الحذاء . فاستغفر ابن سلام الله عن هـــذا الازعاج . فقال الحسين : انت في دارك ، فاطلب ما تشتهي . ما جرّدك منه معاوية من مال ومتاع سنسخو به عليك . انك لمن ابناء الاعمام . فلسنا نريدك عرياناً مملقاً!

فبكى . هذا السماح استنزف منه الدمـع الهاتن . وبكى كل من في المجلس . قال الحسين : ألا حدثنا عما لقيت من مكر ابن هند . فهل بلغ به الكيد الى الوعد ثم النكث ؟... خدعك بصفية ثم لواها عنك ؟... انـه لهادم يستطيب العبث بالناس كأن الناس سبحة يلهو بها! هذا رجل لا يبرح يعيش بعقل الجاهلية . ابوه تاجر بالعباد وهو ولوع بهذه المتاجرة . فلا شأن لديه لتحطيم القلوب ما دام قلبه على صفو ومرح ، وما دام القوم يجرون في ركابه خاضعين . وقد يخضعون كرهاً وقسراً ، الا ان الافراط لا بـد ان يجرّ الى العصيان . عبدالله، ستكون بيننا عزيزاً جليلاً . اذا ضاعت في خدر ارينب الوديعة فانك لواجدها في كف الحسين !

فعاد ابن سلام الى تقبيل الارض بين يدي ابن علي . انه لشهم مفضال هذا السيد النجد وليس يفر من حق ولا يخاتل في عهد

ووقفت الجارية بين يدي ابنة اسحاق . وارينب ، مع رضاها عن مباعلة الحسين اياها ، ظلت تعيش بنبضات قلبها . فالحب الاول الخافق فيها يموج على غليان . هويت عبدالله بن سلام ولن تهوى سواه . ان الحسين لاسمى عزة وارفع جبيناً . بيد ان الحب لا يقيم وزناً للحسب والجاه . ومع كل ما لقيت ابنة اسحاق من اكرام ورفاهة في عصمة ابن علي ظل فؤادها هائماً بابن عمها، بمن طلقها منه في غشية عشواء

وعذرته . اغراه معاوية بالمعالي فانقاد اليه . وللمجاملة نصيب من هـذا

الانقياد الاخرق . وهي مجاملة ذهب ضحيتها عبدالله . فهزأ به ابن هند فور ادراك البغية . غير ان طابخ السم آكله . فما طمع فيه معاوية باغواء عبدالله انقلب شره على معاوية وابنه . واطمأنت ارينب الى انتقام القدرة وما زالت ترجو لقاء عبدالله . ولما ابلغتها الجارية ان عبدالله في حضرة الحسين بن علي تراءى لها انها لم تسمع ، وان الوصيفة اخطأت البيان . فاستوضحت : تقولين ماذا ؟

واضطرب لبها قبل ان تدلي الوصيفة بالايضاح . قالت الوصيفة : جاء عبدالله بن سلام يسأل عن وديعته لديك ، فهو يقول انه ائتمنك على مال . ومولاي الحسين بن علي يريد ان يعلم اي امانة عندك لعبدالله !

فايقنت بعد التكرار ان عبدالله هنا ، على خطوات قلائل منها . واشتد بها الخفقان وقد ادركت ان من تهوى يأوي الى دار تقيم فيها . وسألت بدهش يلتمع فيه الشوق الطروب : أيكون عبدالله هنا ، في ديوان امير المؤمنين؟

— هو فيه . رجع من دمشق على هزال وأصفاء !

فصاحت ارينب : على هزال واصفاء ؟... ماذا تعلنين؟... نزلت بك العلة!

قالت وقد تعوّدت هذه اللواذع : اعلن ما شهدت عيناي . الحسين بن علي يرقب جوابك !

— ألا ابلغيه ان لعبدالله بن سلام عندي ثلاث بدر طافحة بالنضار . فهي له فليتسلمها مني ساعة يشاء . احتفظت له بها ليقيني انها دين في عنقي . اين عبدالله ابن سلام ؟... انا امرأة احرص على الوديعة واؤدي الامانة . ليقبل وليأخذ ماله . فليس من الانصاف ان اشبع ويجوع . هذه امواله حلال له . انها لتحيي من بلي في القبور !

وهاجها الحنين الى عبدالله . فهي ترغب في ان تراه كي تؤدي اليه الامانة يداً بيد . وهو هنا . فيا شوقها الى اللقاء !... عالنتها الوصيفة انه في هزال واصفاء ، لا قامت لمعاوية قائمة كم بالغ في الانتقام من هذا البريء المظلوم !

واضاء الحب كبد ارينب . هذا هو الوله اللباب . واندفعت ابنة اسحاق تتمتم دون ان تدري ما تقول : اين عبدالله ؟... اريد ان اراه !

فالاخلاص والهيام نطقا فيها . وانكفأت الوصيفة الى الحسين بن علي تجاهره بما افضت به اليها ارينب . قالت : مولاي ، لا تبرح الوديعة بين يديها على جمام . متى اراد عبدالله ان يتسلمها فان ابنة اسحاق ، زوجة امير المؤمنين ، لتلقيها بين يديه !

فاستفهم الحسين : أيكون المال عندها ؟

ـ لا يزال كما ائتمنها عليه ابن سلام !

فبلغ الاعجاب بارينب مبلغه الخفيّ . واطلق الحسين صيحة الرضا والتقدير فقال : بورك فيها من سيدة نقية الجيب . سلامة طويتها ورفعة خلقها تقيمانها في الذروة السامقة من كرم النفس ونصاعة الفطرة !

والتفت الى عبد الله يقول : مالك مصون يا ابن عمي ، بوسعك ان تتقاضاه ساعة يطيب لك . فان ما تؤتمن عليه ارينب لفي نجوة من الهلكة . الحمد لله الذي وهب لنا من مخلوقاته نساء لا يعدو عليهن الطمع ولا يفضحن الخفية . فلم تصارحني ارينب بان المال يستقر في يدها بل رأت ان تبقي الامر على كتمان حتى يوم اداء الامانات . والآن وقد حصحص الحق يا عبدالله فلك ان تدخل على ارينب وتسترد مالك كاملاً . فلست ابخل عليك بهذا اللقاء وقد جئت تأخذ حقاً واضحاً لا سبيل فيه الى روغان !

وقاده بيده الى مخدع ارينب وهو يقول : هنا تقيم ابنة اسحاق، فادخل ولا تحذر . الحسين بنفسه يبيح لك مرأى من طلقت بالامس وحفظت لك امانتك مع كل ما اصابها من جفوتك !

ونادى باعلى صوته : ارينب !

فاطلت من شق الباب . قال : افتحي . هذا ابن عمك عبدالله بن سلام جاء يسألك في نفسه . فاعيدي اليه وديعته . ان المطبوعة على الجلال لتمانع في هضم الحق النطّاح . بورك فيك من سيدة تنوء بالمروءات !

وفتح بنفسه الباب وانصرف . ان امرأة كأرينب ليست بحاجة الى رقيب عليها . فان ما نشأت عليه من حفاظ ليعاند في ركوبها الزلل . لها من نفسها ما يقيها التمرغ في الدرن

واطل الحسين على ديوانه وكل من حوله فائر الدهش . أيجيز لعبدالله وارينب ان يقيما على خلوة والحب بينهما تتلظى منه النار ؟... فرفع الحسين هامته حتى كادت تطاول الفلك ، وقال بوقار في اللهجة واطمئنان في النظرة : انا مؤمن بطهارة ارينب واباء عبدالله . فالمرأة الحصان الرزان، والرجل العفيف الكميل ، لا يحتاجان الى من يحصي عليهما الحراك والكلام !

فخلع على المجلس جواً من مهابة خشعت فيه الابصار، وتعثرت الانفاس بالوقار المبسوط فامتدت على حذر . هذه الثقة بعبدالله وارينب دلفت على ايمان بالخلق وعلى اعتزاز بالصولة . فما تقبض عليه يمين الحسين بن علي لايجرؤ ذو نفَس يتردد ان يشزره بنظرة حرام

١١

الحبيبان القديمان ، بل المزمنان ، على خلوة . هما هنا ، وجهاً لوجه . ارينب تلقي على عبد الله عينين صافيتين ، باسمتين ، وعبدالله مطرق، تغيب باصرتاه في الارض ويخونه العزم في تسديدهما الى ارينب

هو على خجل منها ، يخشى احتمال وقع المقلتين العاتبتين،وربما الشامتتين. فلم يكن يرجو هذا الموقف الادهم المتفتقة فيه الجراح ، ولكن فقره جرّه الى ما يتقي . وخانه الكلام . فهو ابكم . ماذا يعالن ارينب وقد طلقها عفواً؟... فما نشزت ولا اثمت . ما احرجته في مطلب ولا استمسكت بهوى ذميم

لقد جنى على نفسه لا على سواه بطلاق ابنة اسحاق . نفض طوقه منها ليزيدها قدراً . فاقبل عليها الملوك وابناء الملوك يفتحون لها الصدور. اما هو فالى اي شقاء انتهى والى اي حقارة ؟... ارتدى الاسمال وخلت قبضته من الفلس. فالجوع يبرّح به . والزراية بمكانته تسبق خطوه. كان وارينب في عصمته على شرف مرموق ، فاضحى وقد افلتت منه على مهانة فاضحة

واعتبر. وادرك مرمى جريمته. لم يبق في الوطاب امل ولا حيلة في دفع المبرم. فاليد الممسكة بارينب قابضة بجمعها عليها . فليس بين الاصابع فرجة تشف اعن نتافة من رجاء. واذا رضي الحسين برد المطلّقة فقد تمانع ارينب . ابنة اسحاق غير منقوصة القدر لتعطى وتوهب كالمستباح

ونظرت اليه ارينب في جهمته وهزاله فتألمت وناح فيها جأشها . ما هذا الانقلاب العاصف به ؟... تبدل حتى تنكر . فهو في نتن الحشرات ، ونحول الغرثى ، وذل المستعطين . واشفقت عليه في ذبوله . انه ليتناثر كالملاءة المهلهلة . ودنت منه تقول برعشة في الصوت وبلوعة في الاداء : هل انتهى بك سوء الطالع الى هذا الحال الانكد يا عبدالله ؟

فتواثبت حنجرته في غصة واخزة . ارينب تكسوء عطفها ورحمتها وكان يرقب منها التعيير والتنقص . وابتلّت عيناه بالدمع الا انه تجلد وقال وهو لا ينفك على اطراق : جنف عليّ الزمان فافضى بي الى المهلكة يا ارينب . واني للملوم . خدعني معاوية فبذلت له نفسي فاودى بي . انا قاتل كرامتي يا ابنة عمي فلقيت جزائي . اشمتي بي ما استطعتِ . سفالي اذلني . ما كانت قدماي تقودانني اليك ، الا انه الاملاق يا ارينب . فمنذ شهر وانا اجتاز اليك القفار على استجداء غضيض . عبدالله بن سلام ، ابن عمك ، اضطر الى السؤال ليأكل اللقمة . فانظري الى ما انتهى بي اليه بؤسي وسوء تدبيري !

فانتفضا معاً بالبكاء . هو لا يطيق الابقاء على دمعه وهي لا تستطيع كبت عبرتها . قالت وماء عينيها يشرق في خديها : هل بليت بهذا الشقاء كله يا عبدالله؟

قال : بلغت من الخزي ما لا يبلغه الذليل الناصية . صرفني معاوية عن دمشق مطروداً مهيناً فجئت اليك على فقري اسألك في امري . كنت اودعتك بعض المال ، كما ينضّ وهمي ، فهل اكون صادقاً في وهمي ؟

قالت : مالك لا يبرح على تمامه . هذه هي البدر الثلاث في خزانتي ترقب ان تتسلمها مني . فتعال انقدك اياها ديناراً فديناراً !

فاعجب فيها بهذا السماح وقال : ليس من حقي ان اتقاضى درهماً منها.

فهي لك يا ارينب بدل غدري بك . واني لارضى منك ببعضها كي يستقيم امري ، فهاتي ما يجود به عليّ حلمك !

وتعثر قوله بدمعه . ولم تكن ارينب لتنقطع عن البكاء . قالت : بل المال لك كله . فلن استبقي منه فلساً . هذه البدر امانة لك عندي ، واني لاعيدها اليك مهما بدر منك ازائي . فلست اجهل انك كنت مكرهاً في ما اقدمت عليه من هجران !

قال بشدة وحزم : من المحال ان اتقاضى هذا المال باجمعه . فاني لارضى بما تتفضلين به عليّ . اعطيني بعضه . انا قانع منه بما يرد عني لبعض الزمن الفاقة . فلن يتنكر لي السعد مدى العمر . فاذا وترني معاوية حقي فان لي من شبابي مسعفاً على قهر المحن مهما يبلغ من تنمرها واستذئابها . القليل من البرّ يكفيني . سار كب المفاوز الى المدينة اختفي فيها دافئاً علتي في صدري!

فهالها ما ازمع عليه . قالت : لن تملك يميني على درهم مما لك . اني لاكون في خسة معاوية اذا حجبت عنك من نقودك سحتوتاً . ألا أخبرني، هل صدّقتَ معاوية في ما أضلّك به ؟

فاجاب بانكسار المهيض الهمة : ما كنت اعتقد ان معاوية يغدر بمثلي وانا لا ازاحمه في سؤدد ولا مرتبة . فاني لعامل من عماله بوسعه ان يقيمني ويقعدني بايماءة . فما دهمني الظن انه يرفعني اليه ليسلبني اياك ؟... حسبته على صفاء نية وهو يحدثني عن مباعلة ابنته صفية ، غير ان الماكر لا يقوى على نفض مكره منه . فالخبث يلازمه حتى في ما بينه وبين نفسه . انه ليخدع نفسه ان تكن المنفعة تقدر عليه هذا الخداع . وانى لي ان ادري انه يسدد اليك نبلته وهو يواربني في صفية ؟... اني اقر بعجزي عن ادراك مخازيه !

قـالت : وهل تضحي بارينب لاجل صفية ؟... أتعدل بابنة معاوية ابنة اسحاق ؟

فاعلن في غمرة من الشجن : وهذه من مشايني يا ابنة عمي . اطفأ ابن ابي سفيان بمقاله الكاذب بصيرتي فآمنت ومشيت وراءه كالاعمى. ما ابقى لي الماذق على نهية وقد ذهب وعده الباطل بما يختلج به صوابي من رشد . فعفواً عني . جنيت وما دريت الا بعد الاوان باني الجاني !

قالت بحرقة يعروها الوجد : عفا الله عنك . كلما توالت الايام زالت من غيظي، الا انها لا تزيل من كمدي . فلا ابرح على حنين الى عهدنا الخالي. ولكن ماقضى به علينا التعس لا يشفع في رجـاء . والحسين بن عـلي ارحب صدراً من ذاك ، من يزيد بن معاوية . فلو ألقى بي سوء حظي في قبضة يزيد لكان من المحال عليّ ان اراك ، ولربما قتلني تفجعي . فالعناية لا تفتأ ترأف بنا يا عبد الله . أتذكر ما كان مني يوم دعاك اليه معاوية ؟... أبيت عليك اجابة الدعوة وحدثتك بما ينبض به قلبي . كنت على ريب بحسن المآل . اما انت فلم تحفل بسوء ظني وتململت شوقاً الى دمشق . فماذا لقيت فيها ؟... الغش والموت . ما في قصر الخضراء غير هذه السوق يبيع فيها معاوية ويشتري. أما رأيت باي بدل اشتراك وباي ثمن باعك ؟... اشتراك بالمداجاة وباعك بالمخاتلة ، لا وفقة الله في مبغى . وارى ان اقص عليك حكاية يزيد في ابنة عمك، ربمـــا لن يتفق لنا ان نتلاقى. في نفس يزيد مني اشياء يا عبدالله. هو يبحث عني ويسعى للاهتداء اليّ منذ اصيب ابوه بضربة الخارجي، الحجاج بن عبدالله الصريمي. فارتدت يومذاك قصر الخضراء يصحبني ابي وامي لعيادة الخليفة الجريح . وتحلقت واترابي على الطبيب الساعدي نسأل عن حـالة معاوية . فاقبل يزيد يبغي

الساعدي . وما وقعت عينه عليّ حتى ساورته الرعشة. فوقف ازائي معتعتاً بل مشدوهاً . ولست بمن يخفى عليها طبع يزيد . فان ابن معاوية لطلاب نساء . ورأيت الرجولة في الهرب فتواريت بين الجموع لا يطولني بصر . وتعجب يزيد من نفسه كيف غفل عني . وجاهد في ادراكي فخاب مسعاه. واقام يتحسر على فرصة ضاعت من يديه . ودرى باني في حيازتك فنظم ومعاوية تلك المكيدة الدهياء وكنا من ضحاياها . فلم يكن في نفس ابن ابي سفيان ان يزف اليك ابنته ، بل شاء ان يغريك بها لفصلك عني . ولقد نجح في فصل بعضنا عن بعض . غير ان الامر عاد عليه بالوبال . فنعم بي الحسين دون يزيد !

فجمجم عبدالله : نجنا اللهم من الشيطان الرجيم !

قالت ارينب: ذاك بيت قام على الدسيسة وسينهار بالدسيسة . فمن المحال ان يحسن معاوية غير المكر والاغواء . ان خراب البيوت ديدنه. فالمفطور على الشر لا يرجى منه صلاح !

فقال عبدالله : لا عرف الهناء في ساعة من ساعاته . افترى عليّ وانا في أمن وطمأنينة فهدم انسي وشوّه يانع دهري . فماذا سوف القى في غدي وقد سلخ مني سعدي وداس بنعليه مسرتي ؟... ارينب ، سأقضي العمر على مشقة وحسرة . كل ما بقي فيّ من رمق ينعى اليّ غدي. فلا اراني بمأمن من الويل والشؤم لن يبتعد عني ما دمت بعيداً عنك . وعزائي كله انك للحسين لا ليزيد . ولو كان يسخو علي الحسين بك لكنت استعيد صفائي. غير انها امنية تعز علي . ومن الوقاحة ان استجديها من ابن علي . حسبه انه اجاز لي مرآك . عفوك عني في حمقي وقد اشقيت به نفسي . اما انت فتمتعي من

دنياك بما تشتهين . اذا ارختك يد عبدالله فقد صرت الى يد من هو اكرم مني، الى يد من ترشح بالنبل طلعته ويستعصم بالاقتدار !

فهمت شؤونها وهي تشرق بدمعها وقالت: ان الحسين بن علي لمن سادة الجنة، الوفاء من طبعه والشهامة سجية فيه وهو من صفوة الاخيار في المسلمين الانجاد. الا ان الاقامة في حوزتك احب الى نفسي واصفى لخاطري . فما ابثك اياه لا اقدم على مباحثة الحسين فيه. فانا ابدأ منه على اجلال وخشية. وما القاه تحت جناحك من هناءة غير موفورة لي في هذا الصرح على ما يمور في ارجائه من فاتن بهيج. فاللقمة الجافية في كنفك اطيب طعماً عندي من مدمث الافاويه في رحاب سواك . فان نغشة الحب النابض بها قلبي لا تبرح تجذبني اليك !

فبكى بدمع مدرار. بها مثل ما به . قال وهو في ماضي لهفته : ارينب، ارينب ، لا كانت ساعة ابصرك فيها يزيد . ما العمل ؟... كيف نعود الى ما كنا فيه؟... أأختطفك؟... ان قطع يدي لاسبق من هذه الخيانة اجزي بها ابن علي. لسنا نطيق الحياة والمسافات تباعد بيننا ، فهل من سبيل الى اللقاء على كرامة دون ان نسيء في عودة ليالينا الى ذي فضل ولا نجحد يد ذي معروف ؟

فقالت والكلام يوشك ان يغور في صدرها : و كيف يا عبدالله؟... اين هذه السبيل الى المرتجى ؟...

قال والزفرات تصوّح حنجرته والعبرات تكوي ناظريه: ارينب ، فكري في ما يرجع بنا الى ماضينا الحبيب. عرفت الحسين معرفة جلية ، أفما تبينت فيه مكمناً للرحمة ؟... ربما اشفق علينا معاً ووهبكَ لي. خاطبيه في

امرنا . عالنيه انك لا تبرحين على ميل اليّ . ليس الحسين بالاغلف القلب ، الصفيق الشعور . فان انطباعه على الكرم والنبل يهب به الى الرفق بنا . فما تزوجك عن هيام بك بل عن كره لمعاوية الكريه . وعودتك اليّ تجرح ابن هند في صميمه جرحاً لا يبرأ . فيشيع ندى الحسين ، ويعلم المسلمون جميعاً ان ابن علي عزّ حيث هان ابن هند !

فقالت والوهلة ترين عليها : ألا يبدو لك اني اغمط فضله وانا أفجأه بهذا الحديث ؟... سيشعر باني لا اريده ويروّعه مني انكار يده . وهو مما لا يشوقني ان اظهر فيه . فما لقيت منه غير المروءة والاكرام . فكأني سيدة هذا الصرح ، يتوفر الجميع على خدمتي باخلاص وولاء . ومباحثة رجل هذا موقفه مني في النأي عنه مما يغمز من احسانه اليّ . ولست اريد ان ارتدي اللؤم حيال من دفع عني مكايد قصر الخضراء وانتقم لي ولك ممن جنى علينا!

فاقنعته بضرورة الصبر . ليس من أمل بجمع الشمل . واحرق خاطرهما هذا الحائل المفروض فارتميا في الارض ينتحبان بعضهما بجانب بعض . وهال ارينب ان يدهمهما الحسين بن علي في نشيجهما وجثمتهما في الارض متدانيين فحبت الى البدر الثلاث المحشودة في خزانتها تغرف منها الحجارة الكريمة وتعدّها فيما تلقيها في قبضة عبدالله . وكان عبدالله يتقاضى ماله وهو ضائع عما يملأ راحتيه . فينتقل الحجر الكريم من يد ارينب الى يد عبدالله مبتلًا بدمعتين ، بدمعة ارينب بنت اسحاق ودمعة عبدالله بن سلام . وتمنيا ان تطول الوقفة . فينقضي العمر في عدّ البدر الثلاث . وكم تتدحرج الدنانير في ارض المخدع من يد عبدالله وقد تاه عنها ابن سلام . فلم يكن يشعر بسوى مرأى ارينب . لا تزال كما افترق عنها . فالاناقة لا تبرح فيها على روعتها والطلالة الخضلة

هذه هي . فكل ما تبدل فيهـــا تلك العذوبة الطاغية وقد حل محلها وقار كئيب لم يسلم من سهو وجفاف .

وتتلامس الايدي في عدّ الدراهم فتجري في الاعصاب رعشة تطفح بلذة مخمورة . واستبطأ الحسين هـذه الخلوة فشاقه ان يرى . ولم يكن منه الا ان نهض الى مخدع ارينب مستطلعاً . فدخله على رؤوس اصابع رجليه دون ان يشعر به الحبيبان الباكيان . وسمع النواح وابصر بالدمع يرشّ المال . بل هو شاهد الدنانير تجري في الارض وترصع البساط الممدود بريقها ونفاستها والعاشقان غائبان عما هما فيه من شأن . ارينب تعدّ وتجهل كم عدّت، وعبدالله يستوفي ولا يعلم كم استوفى !

ووضح للحسين ان الحب لا يفتأ يشغل القلبين ، وان هيام عبدالله بارينب وهيام ارينب بعبدالله لم تهدرهمـــا القطيعة ولم ينسخها الطلاق . فهما لا ينفكان على طفاح ، فكأن لم يقع بين الزوجين ما افسد عليهما الجوى المحصاب .

وأعجب الحسين بهذا الحب المتأجج الضرم . وظـل في وقفته لا يحاول ان يمزق حجاب السحر بكلمة، بنفثة . واستطالت فيه بسمة الرضا . فليس ناقماً على هذا المشهد البريء النابض فيه القلبان نبضات الحب الينبع .

وتمادت الدنانير في دحرجتها في ارض المخدع وعبدالله لا يكلف نفسه التقاطها، وارينب لا تحس بسقوط النضار من يديها. فالاثنان في غشية تقصيهما عن الحقيقة الصراح . وامتلأت راحتا عبدالله بالمال وهو لا يزال يبسطهما فلا يهدأ فيهما الفلس . فقـــال الحسين مازحـاً : ألا اين جرابك تفرغ فيه حفنتك يا ابن عمي ؟

فتمزقت غشاوة السحر وارتعد الحبيبان. فامسكا عن عدّ المال ووثبا من جثمتهما بانتفاض الملوع . وسادهما الذعر والتوت الرقبتان وودّا لو يطويهما التراب . فيا للفضيحة الكاشرة الناب !... فضحك الحسين ضحكة رؤوفاً وقال : لا عليكما . ايقنت الآن انكما لا تبرحان على مودة . واني لاعيدكما الى ما كنتما فيه من نعمة . ارينب لك يا عبدالله . فاني اخلعها مني . وانت يا ارينب هـذا هو عبدالله ابن عمك فارجعي اليـه . والله لن ارضى لنفسي القضاء على هذا الحب المتأصل في اعماقكما . تمتعا بغضارة الهوى واغرفا من لذاذات الصبوة ما تطول ايديكما . ما كنت بمن يعكر عـلى المحبين صفاء ايامهم . ان للحب في شرعة المنصفين حرمة تصان !

ونادى اليه كل من ضمهم مجلسه يخطب فيهم : اشهدوا عـليّ ان ارينب بريئة مني . فهي لزوجها الاول عبدالله بن سلام . عبدالله احق فيها منا جميعاً . فاني اعيدها اليه مثقلة بصداقها . فمن العبث محاولة الاستئثار بقلب يضيء فيه حب تليد !

فتعجب منه سامعوه . ما الخـبر ؟... قـال : نظرت اليهما في جلستهما فراعتني منهما فرحة اللقاء . منذ ساعة وهما يعدّان المال وما انتهيا من حفنة . انهما لفي غفلة عما هما فيه . ها هو المـــال منثور في الارض وما شعرا به يتناثر . ومن الظلم ان يواثب الانطفاء هذا الحب المتقد في اضالعهما . اني اعيدهما الى ما كانا عليه من بعولة !

فتولى الخبـل القوم . ما كانوا ليؤمنوا بما يسمعون . وراعهم ما يسود عبدالله وارينب من بحران . فالخوف من الحسين في ما باغتهما فيه ذهب بقلبيهما . فالقتل لا محالة جزاؤهما . بيد ان الاصغاء الى ما ينطق به الحسين اذهلهما

عن امرهما فتضعضعا . فلم يدريا ما يصدقان . أيصيران الى القتل ام تغمرهما الرحمة ؟... قال الحسين : انتما حرّان في البقاء عندي او الانصراف عني ايها النسيبان !

فتلاشت فيهما الرهبة متدافعة . أصحيح انهما عادا الى حبهما الطليق ؟... ولم تسعفهما ارجلهما في الوقوف حيال رعشة الغبطة ، فسقطا بين يدي الحسين في سجدة الشكر وهما يرددان : ما اعظمك في سماحك يا حفيد الرسول !

وانهالا على يديه الندّيتين بشفاههما العطشى . فقال الحسين وهو يبارکهما بيمناه : لمثلكما تطيب الحياة . فاجرعا من ثمالاتها بما تنتشيان !

فارتفعت الدعوات بالتأييد والعمر المديد . وبرح عبدالله وارينب الكوفة الى المدينة يرتعان في افيائها الظليلة على جذل خميل ، فيما ينفث ، هنالك في دمشق ، قلب مكروب مهزوم ، الزفرات الحرار ، ويستحم بدموع سواجم تزيد في الحرقة كأنها الزيت على متأجج النار . وتوعّد مرشفان ، يتلجلجان خيبة وغلا ، بغد كالح حقود ، كأن فاجعة كربلاء حيكت خيوطها السود انتقاماً للخيبة الأكول في ارينب بنت اسحاق !

[تمت]

طبع هذا الكتاب على مطابع الاتحاد

سنة ١٩٤٦ — بيروت

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 074067354